
د.حسين الحاج حسن
الأسطورة
عند العرب
في
الجاهلية
(طبعة جديدة منقحة و مزيدة)

طبعة مزيدة

1418 هـ - 1998 م



بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام - ص.ب: 113/6311 لبنان
هاتف: 791123/4 / 802428(01) - 220924(03) - فاكس: 603654(01)
المصيطبة - شارع بارودي - بناية طاهر - هاتف: 311310 - 301030(01)

الدكتور حسين الحاج حسن
أستاذ الأدب العربي والحضارة العربية في
الجامعة اللبنانية الفرع الرابع
مشرف في قسم الدراسات العليا أدب قديم
وقسم الدكتوراه أدب جاهلي

الأسطورة عند العرب في الجاهلية

(طبعة جديدة منقحة ومزيدة)

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الأهداء

إلى إبنتي ريانة في عامها الثالث عشر، التي أتمنى لها أن تعيش حياة ريانة هادئة ناجحة؛ كما أرجو لها مستقبلاً زاهراً. أهدي هذا الكتاب حقيقة مشرقة واضحة والله ولي التوفيق.

حسين إبراهيم الحاج حسن

تمهيد

... قرب بيتنا جارة دهرية، وطبيبة ماهرة، وحكيمة حاذقة في نظر القوم يزدحم الناس على بابها حاملين أولادهم الصغار المصابين بالعين بغية الاستشفاء، فتعمد حكيمتنا هذه إلى قراءة التعاويذ ولمس المريض بهدوء، ثم شده من أذنه، أو من أصابع رجله، فيهدأ روع المصاب ويشفى!

سألت عن المرض فقالوا: هي (صيبة عين) وسألت عن طريقة المعالجة فأجابوا: (الرقي) فهي بنت فلانة المشهورة، وزوجة الراعي فلان، وهي تفهم هذا السر دون سواها. إلى أن دفعني فضولي لسؤال الحكيمة نفسها، فقالت: إني أقرأ بعض التعاويذ التي لا تعرف أنت معناها، ولا يجوز أن يعطي سرها للناس. (هيك أمي وصتني) فثنيت عليها السؤال... كيف تعرفين المصاب وكيف تشخصين المرض؟ قالت إذا تثاءب المريض أثناء معالجتي له، أعرف أنه مصاب بنظرة، فأعالجه بحجاب أو خرزة زرقاء، تعلق في عنقه. ثم عددت أنواعاً من الخرزات التي نسيت أسماءها الغريبة.

مسكينة تلك الحكيمة، فهيئتها المزرية البسيطة، لا تدل على طول باعها في هذا العلم السحري الذي لم يكتشفه أعاظم الأطباء في عصرنا الحديث!

وقد سألت أيضاً جماعة عن سبب زيارتهم للنبي (أيلا) الموجود بالقرب من أبلح، في بلد سمي باسمه، وكانوا قد أخذوا معهم خروفاً ليذبحوه على عتبة النبي في مكان خاص للذبح، وفاء لنذر قديم آلوا على أنفسهم تنفيذه. فقالوا لي: مرض ولدنا يوسف فأتينا به (النبي ايلا)، ونذرنا ان نذبح له خروفاً إذا شفي الصبي من مرضه، والآن والحمد لله، هو بصحة جيدة وقد ولى عنه المرض بفضل قوة (النبي ايلا) الذي طرد الروح الشريرة التي كانت قد حلت

في نفس المريض، ولبسته مدة طويلة من الزمن بات يعاني خلالها الهزال والضعف والقلق، فتعجبت لامرهم، وظهرت على وجهي علامات غريبة، تصدق أفكاري وشعوري فأجابوني: (أن النبي ايلا) عظيم جداً وله قوة عجيبة، وقد جربناه مراراً. فهو يقاص الجاني فوراً وكم من الناس من قصدوه ليقسموا يمين البراءة في حضرته، فأدانهم وبين الحق الصريح.

حيال هذه القصة تعجبت العجب الشديد، وما زلت حائراً أمام الكثير من هذه الحوادث التي ما زالت تقع في عصرنا الحاضر. وإذا تساءلنا كيف بقيت حتى الآن، وكيف استمرت في الحياة يمكننا القول: أنها وجدت الأرض الخصبة لتنمو وتبقى مترسبة في عقول البشر المساكين البسطاء الذين لا يرون أبعد من أنوفهم.

إذ يعللون الأمور تعليل الشعوب البدائية، ويصدقون الأوهام والأقاصيص الأسطورية دون تعب فكر أو كد ذهن، فلا يتمتعون بالارادة الفذة التي تسمح لهم رفض كل ما لا يتفق مع المنطق السليم والحجة الصارخة. فهم يعتمدون على حواسهم فقط ويلاحظون الظواهر ملاحظة بسيطة تقف عند مستوى الإدراك الحسي دون أن تتجه إلى إيجاد الصلات أو إدراك العلاقات أو تحقيق غاية علمية.

إن الإنسان الضعيف هو الذي يتقبل الأمور على علاتها وأخطائها، وينظر نظرة سطحية ويلاحظ ملاحظة عابرة، فلا يجرب بنفسه، ولا يحسن القياس والمقابلة، فيأخذ ولا يعطي ويا ليته يعرف سبل الأخذ حتى يتقن سبل العطاء.

وبعد هذا ظننت أن مثل هذه الأساطير يقع في بيئتي دون سواها، فانتقلت إلى بيئة جديدة بعيدة عن البيئة التي وصفتها، فوجدت فيها ما يشابه. وجدت أن الرجل منها إذا أتاه ضيف ثقيل، وأراد إبعاده وعدم العودة ثانية، كسر خلفه إبريقاً أو جرة. ووجدت البعض الآخر، يعمد إلى مكنسة، ويشك في أسفل قبضتها دبوساً أو ابرة، ليعجل في رحيل ضيفه الثقيل!!

فسألت هؤلاء الخلق عن كنه ما يعملون فلم أحصل على جواب مفيد، يريحني أو تعليل صحيح يقنعني. وإنما كل ما يمكن أن يقال انها عادات قديمة

ورثها الخلف عن السلف وما زالت مستمرة عند بعض الناس في مناطق متخلفة من بقاع الأرض.

لي صديق من بيئة ثالثة حدثني ذات مرة، عن رجل فقد صوابه إثر رؤيا مذهلة فجاء به أهله رجلاً أتقن مهنته، وعرف فيها سراً لا يعرفه سواه! سألت عن الرؤيا فقال لي أنه رأى غولاً أثناء عودته إلى القرية من المحلة (المسكونة) وعندما وصل العين في (المضيق) رأى امرأة عارية يجللها شعرها وهي تغتسل بالماء البارد. ولما أشار إليها صرخت بأعلى صوتها، ونهضت بقامتها التي تزيد على إضعاف قامة الرجل الطويل. ومن ذلك الحين فقد صوابه. وسألت عن مداواته عند الحكيم المذكور فقال لي: هو رجل قدير وبأمور الجان والغيلان بصير، يعرف أسرارها، ويتقن أبوابها. وقد ورث هذا العلم عن أبيه وجده ولهما فيه ضلع ضليع. وهو يحرق البخور ويقرأ التعاويذ، ثم ينشط في ضرب المصاب بقضيب لين حتى يغمى عليه ويقول أخرج، أخرج:

فيخرج الجن من أنفه، أو إصبع رجله اليسرى الصغيرة.

وهنا عادت بي الذاكرة إلى هذه الحوادث حتى اخترت موضوعاً لدراسة الأساطير في الجاهلية.

فإذا كان القوم في بلدنا النامي، وفي عصرنا الحافل بآثار النضج العقلي، لا يزال بينهم من يأخذ بهذه الترهات، فكيف بمن عاش في العصور الجاهلية القديمة؟

من هذه المقارنة رأيت مدخلاً للخوض في موضوع هذه الدراسة، التي وجهت نحوها. وغايتي استعراض الأساطير الجاهلية، العالقة بالمعتقدات والعادات والتقاليد الاجتماعية وهو معروف ان الاشارات إلى هذه الموضوعات، مبثوثة متفرقة في كثرة من الكتب الدينية، والتاريخية والأدبية، ولاسيما دواوين الشعر الجاهلي. أما الكتب الدينية ففي طليعتها القرآن الكريم الذي كان يرمي إلى إقرار دين التوحيد، بمحاربته جميع ما ينافيه من عقائد وتقاليد، انبثقت عن الشرك أو عن الوثنية الخالصة. يلي ذلك كتب الحديث والتفسير وما بني عليها من مؤلفات خاصة وعامة. وأما الكتب التاريخية فأولها السيرة النبوية لابن هشام وابن اسحق، وما يليها من أخبار وقصص عن الأنبياء، ومن إشارات في كل التواريخ العربية القديمة إلى الحياة الجاهلية.

بقيت الآثار الأدبية وفي طليعتها الشعر الجاهلي، وهو بحق ديوان العرب. ولقد كان مصدرنا الجزيل، وينبوعنا الغزير إلى ما تبعه من شروح وأمثال سائرة، وحكايات متقطعة تداولها الخلف عن السلف حتى دونت في المجاميع الأدبية، كتآليف الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه، وأبي الفرج الأصفهاني الخ...

وقد اجتهدت أن أكون موضوعياً في عرض الأحداث وتفسير ما أراه بكل تواضع في تعليلها أو في شرح البعض منها. فإذا كان من هذه الرسالة فائدة توجيهية، تدفعنا إلى الاعتبار بالماضي لفهم الحاضر، وبناء المستقبل، كان خيراً، وإلا فلا أقل من أن أكون قد قمت بدراسة اجتماعية موضوعية، أرجو أن تكون لها فائدتها في هذا الموضوع من العلم والله ولي التوفيق.

شمسطار في 20/ 1/ 1997

مقدمة

حياة الإنسان سلسلة متصلة لا إنفصام بين حلقاتها، فكل حلقة منها تمد اليمنى لرفيقتها السابقة، وتسمح باليسرى لزميلتها القادمة، لتكون وحدة وثيقة تحتل صفحة من التاريخ، لا ينازعها فيها منازع، وهي تصل وتتصل، وتسند وتستند وتعين وتستعين في جميع الحالات وفي جميع المجالات.

وابن هذه الحياة لا يستطيع التخلي عن ماضيه الذي يربطه بحاضره والذي يعد ركيزة له. ففي الماضي تاريخ وعبر، وفي الماضي عادات وسير، وفي الماضي تراث فكري زاخر وكنز أصيل فاخر.

وتبدو معالم كل ذلك في الحاضر الذي نعيش فيه، إذ يتلون هذا الحاضر بألوان الماضي فيأخذ منه ويتأثر به ويبني عليه ما يحتاج إليه الجيل الطالع.

فحاضرنا يخبرنا عن ماضينا القريب، وهذا يعلمنا عن الماضي الذي سبق حتى نصل إلى العصر الأشد بعداً من جميع العصور حيث لا ترى عين ولا تسمع أذن؟. . وبذلك يحصل التواصل المفيد.

فهل لنا أن نتعرف على العصر الجاهلي بهذه الطريقة التسلسلية؟ وهل يصعب الوصول وما هي أهون السبل؟

إن المصادر التي تتعلق بالتاريخ الجاهلي وبآثار الجاهلية، وصلت الينا من الرواة والعلماء الذين كانوا ينقلون الروايات والأخبار على ذمة ذاكرتهم وحسب بعد معرفتهم، وبقدر حسن نيتهم وإخلاصهم. وهل استطاع أحد منهم أن يتجرد من عصبيته، ويبتعد عن الميل والهوى؟

إن كثيراً من هذه المصادر قد سطت عليها عوادي الأيام، وأحدثت

الفجوات التي نقف أمامها متسائلين، والأخبار التي وصلت إلينا هي ضئيلة ومبعثرة فلا تكون مصدراً يمكن التعول عليه تماماً ولكنها تعطي نوراً خافتاً قد يمكننا من معرفة بعض الحقائق.

ومشكلتنا في ذلك أننا لا نملك نصوصاً جاهلية عن أساطير العرب حتى نستطيع استخراج حكم منها. ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب، بحجة ثوابتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود الأساطير عندهم، على الطراز الذي نجده عند اليونان مثلاً. وإذا حاولنا تطبيق بعض المذاهب والنظريات التي نجدها عند الأمم الأخرى على التراث العربي في الجاهلية، نبتعد بلا شك عن البحث العلمي الصحيح ذلك أن لكل أمة صفات وميزات وظروف خاصة، أوصلتها إلى نقطة معينة من نقاط الحضارة الانسانية، وسمحت لها بتكوين تاريخ يختص بها دون سواها. وليس كل ما ورد عند اليونان أو الفرس أو الرومان، لا بد أن نجد ما يشابهه عند العرب، وأن جهدنا في البحث والتنقيب. فلنستقرئ الشعر الجاهلي عله يفيدنا فيما وصل إلينا منه.

والشعرالجاهلي صدى قوي للحياة العربية: إجتماعية وأخلاقية ودينية، ذات عادات وتقاليد، فهو بالتالي ترجمانها وسجلها وديوانها.

والاسطورة في الشعر الجاهلي فكرة فتحت عليها نوافذ الدرس للكشف عن الانطباع الفكري الذي كان يسود عقلية الناس الجاهليين وبالأخص الشعراء منهم. كيف كانوا يتعاملون مع الأسطورة؟ وهل انتفعوا منها في إبراز اللوحة المعبرة؟ ثم مدى الاتساع الذي كانت تشغله الاسطورة في أذهان الناس الذين كان يخاطبهم الشاعر وتوحي لهم الأسطورة، بما يريد ويرمز لكل حاجاته، وذلك ليهيء السامع لفكرته، ويبسط أمامه ما يجعله قادراً على الاستماع، أو خاضعاً لسيطرة الفكرة وقانعاً بمضمونها المتناسق، والمنسجم مع الفكرة التي تدور في خلده.

وقد قصدت من هذه الدراسة المتواضعة إلى أشياء: لقد اعتمدت الشعر الجاهلي، إلا ما نبه النقاد الثقات على وضعه وصحته، على حياة العرب في تلك الفترة من الزمن، لأني أرى أن الأدب مرآة الأمة، ومنبر أفكارها ومعرض

أخلاقها ومجتلي عواطفها ومظهر عاداتها وتقاليدها، والمعبر عن مثلها وآمالها.

والشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة العرب، فهو جداول نابعة من هذه الحياة التي تحمل في مجراها ما في الينابيع من صفاء ومن كدرة، من خير ومن شر.

وإني أرى أنه مهما تفنن الشاعر الجاهلي في الوضع والنحل، ومهما تكن خبرته بنظم الحياة الجاهلية العربية، لا بد أن يتغلب عليه طبعه، ولا أظن أنه يستطيع أن ينسلخ عن بيئته انسلاخاً يجعل منه عربياً خالصاً وهو يحيي في الحواضر في القرن الثاني والثالث الهجري.

وقصدت إلى شيء آخر، وهو أن نقف على التراث العربي قبل الاسلام لأن معرفته ضرورية لمن أراد دراسة تاريخهم وأدبهم ونفسيتهم وعقليتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل ما في حياتهم في الجاهلية والاسلام.

لقد بزغ الاسلام فوجد نظماً وعادات وأخلاقاً ومعتقدات وتقاليد وصلات أبقى على بعضها، وهذب بعضها، واقتلع بعضها من جذوره.

وكل هذا نجده في ردود القرآن الكريم على الجاهليين وهذا ما دفعني إلى اعتماده مصدراً آخر غنياً.

إن إعادة قراءة الأدب الجاهلي قراءة تحديثية مستجدة في ظل التفهم الواعي لتفكير الشعراء يعيد لهم كثيراً من السمات الشخصية التي أفقدتهم إياها الدراسات التقليدية المتواضعة.

يتبين من بعض روايات الأخباريين، وهي قليلة، أن العرب كان عندهم أساطير كالذي رووه، من أن «العيوق والدبران لما ساق إلى الثريا مهراً، وهي نجوم صغار، نحو عشرين نجماً، وقد يتبعها أبداً خاطباً لها، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[1].

وكالذي رووه عن (العبور) و(الغميصاء) و(سهيل) وقد كانت هذه

(1) بلوغ الارب ج 2، ص 239.

النجوم مجتمعة، فانحدر سهيل فصار يمانياً، وتبعته العبور فعبرت المجرة وأقامت الغميصاء، فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[1].

وتحبو الشعريان إلى سهيل   يلوح كقمة الجبل الكبير

كما أننا نجد بعض الأساطير عند الشعوب البدائية، في الزمن البعيد استمرت حتى العصر الحاضر، بحكم سلطان التقاليد والعادات. فأخذها الخلف عن السلف دون أن يفكروا في صحتها ونفعها.

فالذبيحة مثلاً في الديانات السامية العريقة، وأغلب الديانات الأخرى هي نتيجة الايمان بالخالق، الذي له من منتجات العالم من نباتية أو حيوانية أو إنسانية، وذلك في سبيل العرفان بالشكر والجميل.

من هنا كانت تقدمة بواكير الثمار أو الحيوان، ومن هنا كان ارتقاء الفينيقيين في فكرة سامية لتقديم بواكير الأطفال! لكن الطبيعة البشرية سرعان ما تلافت خطر الكارثة بأن جعلت فدية للبكر من الأولاد.

هذا ما نراه في العهد الفينيقي، وخصوصاً في ملاحم أوغاريت في رأس شمرا. ونراه أيضاً في كل الديانات السامية واليهودية. يروي الانجيل عن موسى (كل ذكر فاتح رحم يقدم عنه فرخي حمام أو زوجي يمام). وهكذا افتدى السيد المسيح. وكذلك هي الحال في الديانة اليونانية، على فرق أن الديانات الموحدة ترفع الذبيحة إلى الإله الحق، أما الديانات الوثنية فإنها ترفعها إلى الآلهة المتعددة المختلفة.

ويجدر بنا في هذا المجال، أن نذكر بعض أساليب العبادة عند العرب في الجاهلية، كالطواف حول الأصنام مثلاً، وزيارة قبور الأولياء الصالحين. إن كل هذا نراه في أصول الطبيعة البشرية.

بعض الديانات كانت مغفلة، بمعنى أنها لا ترى في الآلهة ملكاً خاصاً بها، من هنا العراك بين الآلهة. عراك آلهة إسرائيل وآلهة الأمم. ونذكر هنا قصة جالوت وداوود.

---

(1) المصدر نفسه، ص 239.

فجالوت هو إله الكنعانيين، وكان جباراً ضخماً، طويل القامة قوي البنية، بارز الشخصية.

وداوود إله اليهود كان يرعى الغنم، صغير الحجم، ضعيف البنية قصيراً لاصقاً. ليس له أي ذكر في مجال الحرب والمبارزة.

وقد اختلف الكنعانيون واليهود، ودارت الحرب بينهم في سبيل نصر الآلهة، فاصطف الفريقان للحرب، وكل منهما يستعين بإلهه. وأخيراً أخذ داوود حجراً - وهو مشهور بضرب المقلاع - وضرب به جالوت، فشج له رأسه وعند ذلك اغتنم الفرصة، وذبحه وانتصر عليه. نستنتج من هنا أن الإله كان يختص بقوم وبقبيلة وبشعب.

إن طرق العبادة عند الشعوب البدائية، كانت تختلف باختلاف العادات والتقاليد، وإن كانت غايتها واحدة ألا وهي تكريم الآلهة. وبما ان العادات والتقاليد وجدت في إطار زمني ومكاني، فيصعب والحالة هذه ان تتغير بتغير البيئة.

في بلاد العرب تعودوا أن يقوموا بشعار الطواف حول الأصنام وفي الديانات الوثنية كانت تستعمل الشموع والبخور. وكذلك القول في موسم انتقال الشمس. إلى أن جاءت المسيحية، فغيرت تلك العادات، ورفعت النية فيها إلى الإله نفسه.

إن العادات والتقاليد هي أقوى من كل شيء، في ثبوتها وبقائها منذ الأمد البعيد. ولا نعجب إذا وجدنا بعض العادات في عصرنا الحاضر من بقايا الوثنية، كطريقة الاحتفال بتذكار دفن السيد المسيح، التي ترقى إلى عهد أدونيس.

وبعد، آمل أن تكون هذه الدراسة قد أدت عملها في الغرض المطلوب الذي رجوته منها، وأرجو أن أكون قد اهتديت إلى طريف من النهج وجديد من الرأي، وما توفيقي إلا بالله إنه السميع المجيب.

الباب الأول

الأساطير الاجتماعية

الفصل الأول

الأسطورة: تعريفها - نشأتها

تعريف الأسطورة

تفيد الأسطورة على الغالب، الحادثة القديمة المحفوفة بالمبالغات حتى الخرافات أحياناً، وتفيد أيضاً الأقاويل المنمقة المزخرفة التي لا نظام لها، حتى انها تشبه الكلام الباطل، وهي تتناول مختلف النشاطات الاجتماعية من أدبية وحربية وصناعية ودينية.

وقد وردت في اللغة الفرنسية بمعنى الحادث (Histoire) وفي اللغة الانكليزية بمعنى التاريخ (Historia).

وقد اتخذت الأسطورة معنى الحكاية، سواء أكان لها أصل مبالغ فيه أم لم يكن لها أصل، وزيدت الألف في أول الكلمة لتسهيل اللفظ لأن العرب تأبى لفظ الحرف الساكن كما هي الحال في كلمة أفلاطون.

وكلمة أسطورة هي من فعل سطر. وقد ورد تعريف مفصل لهذا الفعل ومشتقاته في لسان العرب[1] (يقال بني سطرا وغرس سطرا والسطر الخط والكتابة). قال الزجاج في قوله تعالى: وقالوا أساطير الأولين خبر لابتداء محذوف المعنى وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين[2] معناه سطّره الأولون.

---

(1) ج 6 ص 28.

(2) يعني القرآن الكريم الذي أنزل على النبي محمد ﷺ.

وواحد الأساطير أسطورة، كما قالوا أحدوثة وأحاديث وسطر يسطر إذا كتب. قال الله تعالى في كتابه العزيز «والقلم وما يسطرون» أي وما تكتب الملائكة، وقد سطر الكتاب بسطره سطراً وسطره وأسطره.

وقال الأزهري ما حكاه الضرير عن الأعرابي: أسطر إسمي أي جاوز السطر الذي هو فيه. والأساطير الأباطيل. والأساطير أحاديث لا نظام لها، واحدتها أسطر.

وإسطاره بالكسر وإسطير واسطرة واسطور واسطورة بالضم إذا جاء بالأحاديث تشبه الباطل: يقال هو يسطر ما لا أصل له، أي يؤلف ويقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها.

وفي تاج العروس فقد أورد الزبيدي عن الأسطورة ما معناه يقال هو يسطر ما لا أصل له أي يؤلف. وفي حديث الحسن سأله الأشعث عن شيء من القرآن، فقال له: والله إنك ما تسطر علي بشيء أي ما تروِّج. يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها[1].

أما الخرافة فلها مدلول خاص قيل عن بعض الروايات، إن خرافة اسم رجل استهوته الجن، فأقام بينهم ما شاء الله، ثم عاد إلى قومه فأخذ يحدثهم بالأحاديث الغريبة، فكانوا بعد ذلك كلما سمعوا حكاية أو نادرة أو خبرا فيه من الغرائب قالوا: حديث خرافة. ومنها اشتق الناس الخرافة والخرافات لكل ما لا يمكن تصديقه أو لكل خبر مبالغ فيه.

والاسطورة تختلف عن الخرافة أن فيها بعض الحقائق التاريخية كقصة الزير سالم مثلاً. ومن هنا نرى أن فيكتور هيكو، عرف الملحمة بقوله: (هي التاريخ ينشد على أبواب الأسطورة).

وقد ورد تفسير آخر للاسطورة في اللاروس تحت كلمة (Legende) أنها خبر تاريخي، أو حكاية تاريخية، بالغت فيها المخيلة الشعبية أو الابتكار الشعري.

وقد قال العقاد في كتابه (الله) ص ـ 17 ـ من علماء اللغة المحدثين

---

(1) تاج العروس ج 3 ص 267.

(ماكس موللر) صاحب الرأي المعدود في اشتقاق اللغات ومعاني الأساطير، وعلاقتها بالعقائد والعبادات.

فهو يؤمن بأن البصيرة هبة عريقة في الانسان، وإننا كما قال في كلامه على مقارنة الأساطير (مهما نرجع بخطوات الانسان إلى الوراء، لن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه منذ أوائل عهده). وان القول بانسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية: إنما هو قول لن يقوم عليه دليل.

ومصداقاً لهذا الرأي يرجح (موللر) إن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده، لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد، الذي ليس له انتهاء وانه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه في الكون، وهو الشمس التي تملأ الفضاء بالضياء، فهو محور الاساطير والعقائد كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات.

وإذا قيل لموللر أن اللانهاية لا يوجد لها معنى في اللغات البدائية، قال ان الاحساس بالمعاني يسبق اختراع الكلمات وقد ثبت أن الإنسان الأول، لم يضع في لغاته كلمات لبعض الألوان[1].

معنى الجاهلية

ذهب المفسرون إلى ان المراد من الجاهلية هو في قوله تعالى: ﴿**وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾ قيل كانت المرأة فيها تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها، كما روى عن ابن خالويه[2] إن هذا اللفظ أطلق في الاسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة. كما يرى الألوسي: إن الجاهلية هي الزمان الذي كثر فيه الجهال. وقال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل السوء فهو جاهل، ويؤيده قول النبي ﷺ لأبي ذر (انك امرؤ فيك جاهلية).

وبعد هذا يمكننا القول أن الجاهلية هي التسرع بالبوادر، وهي ضد

---

(1) راجع للمؤلف علم الاجتماع الادبي فصل اللغة.

(2) بلوغ الارب ج 1 ص 15.

الحلم والتروي، وضد الرصانة والوقار، والتبصر في عواقب الأمور. فالجهل ضد الحلم وليس ضد العلم. والشعراء الجاهليون كانوا يريدون بالجهل: التوحش لا عدم المعرفة. وهوس الشباب لا الوقار والحلم.

قال النابغة الذبياني:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل!

كما أنه يمكننا أن نشهد إلى تسمية الدروز لرجال الدين عندهم. فهم قسمين: عقال وجهال. فالعقال هم الحالمون الذين يتبصرون في أمورهم بحكمة ورصانة، ويتحلون بالحلم والوقار. والجهال هم عكس ذلك. وكذلك المسلمون جميعاً فإذا ذكروا الجاهلية أرادوا بها العادات الوثنية بما فيها من أدران الجهل، والتوحش، والطيش، والهوس، والحمق. وقد أصاب هذا المعنى عمرو بن كلثوم حيث قال:

ألا لا يـجـهـلـن أحـد عـلـيـنـا فـنـجـهـل فـوق جـهـل الـجـاهـلـيـنـا

وقد يصعب علينا أن نحدد الجاهلية كعصر معين من عصور التاريخ المعينة، لأنها ليست زمناً متصلاً بعضه ببعض، بل هي فترات متقطعة، تقع حيناً بعد حين. وكل فترة منها تكون طائفة وثنية لها شعائرها ولها عاداتها وخصائص عباداتها التي تعبر بها عن شعور الأمة، حسب دواعي البيئة.

ويجدر بنا الآن أن نتلمس بعض الخطوط العريضة للبيئة الجاهلية، حتى نتعرف على حياة العرب الجاهليين، وما تتسم به من صفات ومعان وأعمال.

البيئة الجاهلية

وجه التسمية

إن الجزيرة في أصل اللغة ما ارتفع عنه الماء أخذاً من الجزر الذي هو المد، ثم توسع فيه فاطلق على ما دار عليه الماء. ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القلزم من جهة الغرب، وبحر الهند من جهة الجنوب، وبحر فارس من جهة الشرق والفرات، أطلق عليه جزيرة وان كان له اتصال بالبر وأضيفت إلى العرب لنزولهم بها، وسكناهم فيها.

وتشتمل هذه الجزيرة على خمسة أقسام: تهامة ونجد والحجاز وعروض واليمن. فتهامة هي الناحية الجنوبية عن الحجاز. ونجد هي الناحية التي بين العراق والحجاز. والحجاز ما بين نجد وتهامة، وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام، وسمي حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة. والعروض هي اليمامة إلى البحرين.

وقد حدد مساحتها السلطان عماد الدين صاحب حماة في تقويم البلدان: سبعة أشهر واحد عشر يوماً تقريباً بسير الأثقال[1].

وصف أحوال العرب في الجاهلية

والعرب في الجاهلية صنفان: أهل حضر وهم سكان المدن العامرة، وأهل وبر وهم سكان الصحراء والخيم المتنقلة بين يوم وآخر.

وأهل الوبر يسكنون في البادية في بيوت مختلفة الأنواع والأشكال نذكر منها[2] خباء من صوف، وبجاد من وبر، وفسطاط من شعر، وسرادق من قطن. ومن بيوتهم في البادية: القشع وكانوا يتخذونه من الجلود، والقشع: الجلد اليابس. والطراف بيت كان الأغنياء منهم يتخذونه من الأديم. والحظيرة بيت كانوا يتخذونه من شذب الشجر، وهو جمع شذبه بالتحريك وهو ما يقطع مما تفرق من أغصان الشجر، وتصنع للابل لتقيها الريح والبرد. والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر. والاقنة بيت يبنى من حجر والجمع أُقن. والكبة بيت يبنى من لبن. وهذه البيوت العشر لأهل البوادي أحب لديهم من القصور المشيدة، والبيوت المزخرفة. وفي ذلك تقول إمرأة مُعاوية «ميسون»:

لبيت تخفق الأرواح فيه   أحب إلي من قصر منيف[3]

وقال آخر:

الحسن يظهر في شيئين رونقه   بيت من الشَّعر أو بيت من الشَّعر

---

(1) بلوغ الارب ج 1 ص 187.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 393.

(3) البيت لميسون امرأة معاوية. بلوغ الارب ج 3 ص 394.

ولما كان سكنى البادية مشهورة بصيانة العز والشرف، رجحها غالب العرب على الحضر وكثر حنينهم اليها، وذكر وحشها وطيرها، ورياضها ونبتها وشجرها وانجادها قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

وقد امتاز عرب البوادي عن أهل الحضر بامتيازات عديدة. ذكر منها ابن خلدون في مقدمته عدة فصول مشتملة على فروق بين الفريقين. منها:

أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أهل العمران لأن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه وإن الحضر معتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ[1].

ومنها أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، وذلك لأن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى، كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها من خير أو شر، وبقدر ما سيق اليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر. ومنها أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، وذلك أن أهل الحضر أوكلوا أمر المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم، والحامية التي تولت حراستهم. وأهل البادية لتفردهم عن المجتمع وبعدهم عن الحامية، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم فلا يوكلون أمرهم لسواهم[2].

وقد روى المستشرق بلاشير: عندما نتخيل كلمة عربي، نتخيل معها ذلك البدوي المتنقل في الصحراء. والبدو قسمان: قسم عامل في الزراعة وتربية المواشي، وقسم يملك الجمال والخيول وقطعان المواشي الضرورية لحياته وسعادته. ومورد آخر لتحصيل العيش عنده ألا وهو فرض الرسوم على الاغراب الذين يجتازون أرضه التي ينزل فيها، وإذا لم يكتف، عمد إلى الغزو والنهب عندما ييبس المرعى أو يجف ماء البئر. من هنا نرى الحروب العديدة منها حرب داحس والغبراء التي ألفوا حولها الأساطير العديدة[3].

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 137.

(2) مقدمة ابن خلدون ص 138.

(3) بلاشير ص 20.

ويزيد بلاشير قائلاً: على رأس كل قبيلة كان شيخ أو سيد يعمد إلى حل كل المشاكل التي يعود نفعها على القبيلة، وكان أفراد القبيلة هذه يتأرجحون بين قطبين. بين المحافظة على الشخصية الفردية واحترامها، وبين التعلق بروابط القبيلة التي هم جزء منها لا يتجزأ[1].

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت   وإن تــرشــد غــزيــة أرشــد

ومن الصعب تحديد صلاحيات السيد لأن ذلك يعود إلى كفاءته ومقدرته الشخصية وقد يكون البعض منهم حاكماً في الأمور السياسية والدينية والقضائية والحربية معاً[2].

نشأة الأساطير

ولا أزعم أن كل ما أقول في الأسطورة العربية هو الحقيقة الوحيدة، بل انني أحاول أن أستنبط من عادات الجاهليين وأثارهم الباقية، العقلية العربية في جميع مجالاتها ومعطياتها سواء ترسمت الواقع الصحيح أم غالت وزخفرت الكلام حتى أخرجته عن طبيعته وحدوده. وسطرته أساطير مختلفة.

وعلينا أن نبحث في عقلية الأمة العربية، في العصر الجاهلي، تحت ضوء بيئتها الطبيعية والاجتماعية، حتى نرى كيف شرع ذلك الانسان الأول، يفكر في نفسه وفي خالقه، وفي الرابطة بينه وبين الموجودات، معنوية كانت أم مادية. ومن الضروري في هذه الحال، أن نطلع عن كثب، على غرائز الأمة العربية، وعلى ميولها وتأثرها بالظروف والأحوال، فهل التفكير الجاهلي عنده القابلية لتوليد الأساطير؟ فمن قصص خرافية متناقلة من راوية إلى آخر ومن قبيلة إلى أخرى، ومن جيل إلى جيل، ومن أخبار خيالية متوارثة، يزاد على حواشيها ما يجمل به القول ويزخرفه اللسان، ويؤلفه الفكر بأسلوب عجيب، يستثير به العقول. في هذا الجو وفي هذا العصر عصر توليد الأساطير، نشأت الأسطورة العربية الجاهلية.

(1) المصدر نفسه ص 21.

(2) المصدر نفسه ص 22.

والأسطورة ليست وليدة شخص معين حتى يعرف أصلها وتاريخها، بل هي حكايات القدماء الذين ذهبوا فيها مذاهب شتى، فاشتملت على بعض ميزات مشتركة بين الشعوب، وبذلك تلونت الاسطورة بألوان الراوي، الذي يتركها بدوره إلى راوية آخر، يزيد عليها ما لطف له وطاب وقد يزيد عليها فرعاً من تأليفه وخياله. وهل يجد المدى الذي يصل إليه خيال الانسان المبدع؟ وهل تحصى الأنواع والأشكال، التي يذوقها ذلك الخيال، ويكسبها الثوب القشيب؟ فالاسطورة شاملة على جميع مجالات الحياة، بكل ما في هذه الحياة من أنواع وأشكال، فهي إذاً مرآة لها.

وقد ورد رأي العلامة (ماكس موللر) في تفسير نشأة الأساطير فقال: وجدت أساطير كثيرة سببها عجز اللغة الانسانية في نشأتها الأولى.

ويقول العقاد: يرى كثير من الناس أن الأساطير هي أصل الدين بين الهمج وهذا الرأي لا يمكننا أن نقبله بكل ما فيه، فالعقائد الهمجية، عقائد الشعوب البدائية، قد تلبست بالأساطير، فالعلاقة موجودة بين الأسطورة والعقيدة الدينية، ولكن ليست كل العقائد الدينية عند جميع القبائل الفطرية، نجدها في الأسطورة وبمعنى أوضح، أن الدين قد يحتوي الأسطورة، ولكن الأسطورة لا تحوي الدين[1].

ويشير العقاد في مكان آخر فيقول: إنه وجد أساطير كثيرة لا تتجاوز الأوصاف الرمزية والمشابهة الفنية التي طبع عليها الخيال، فهي ترجع إلى ملكة التجسيم والتصوير ولا ترجع إلى ملكة الايمان والاعتقاد[2].

وأني أرى أن عرب الجاهلية، كانوا عاجزين عن الاعراب عن ضمائرهم، بلسان مبين، كما أنهم كانوا قاصرين عن فهم معنى الموجودات فأخطأوا في إدراكها، إدراكاً علمياً سواء أكان من الناحية الدينية أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الحربية. وكل عنصر من هذه العناصر يدخل في حياكة (السدى) في الاسطورة. وقد يستحيل حصر معناها في كلمة بسيطة، إذ أن جميع العناصر المشار إليها، تدخل في تأليفها، والعنصر الذي يغلب عليها

---

(1) عباس محمود العقاد ـ الله ـ ص 10.

(2) المصدر نفسه ص 11.

تنسب الاسطورة إليه. فإذا ما غلب العنصر الديني كانت الاسطورة الدينية مثلاً. ولكن هل هي جزء جوهري من دين قديم؟ وهل هي في شريعة الدين؟ لا أظن ذلك صحيحاً، إذ أن الاسطورة غير لازمة للمتعبدين، بل تستنبط من عاداتهم وشعائرهم. فإذا نظرنا إلى تلك العادات والشعائر، نراها ثابتة ومستقرة عند العرب وعند غيرهم من الأمم. أما الأسطورة فلا تلزم حالة واحدة، بل تتغير وتتبدل مع مرور الزمن، وبعد ذلك فهي تأويل أو تفسير لعاداتهم وشعائرهم. وعلى العموم لا تؤلف وتظهر، إلا بعد أن تزول أو تضيع الفكرة البدائية التي دعت إلى اتخاذ تلك الشعائر والتقاليد.

وبعد استعراضنا جميع أنواع الأساطير، نلاحظ أن الانسان البدائي بعد أن ينظر إلى الكون الفسيح، الهائل العجيب، ويضيع في تأملاته، ويقف حائراً على عتبة أسراره، يطرأ على تفكيره وما يحمله إلى عبادة كل شيء مخيف أو مفيد. عبد المطر شوقاً إليه لأنه مصدر حياته وسبب معيشته، ومنه كل شيء حي، وعبد الرعد لأنه يخاف زمجرته العنيفة التي ارتعدت لها فرائصه. ثم كيف عبر عن هاتين الحالتين وكيف ترجم عنهما؟ إن مثل هذه الروايات ومثل هذا التعبير في تلك الحالة الذهنية، التي يلعب فيها الوهم والوسواس بالنفوس، تنشأ الأساطير. فالأسطورة كما أرى، عبارة عن تفسير علاقة الانسان بالكائنات التي تحيط به، وهذا التفسير هو آراء الإنسان فيما يشاهد حوله في حالة البداوة. فالاسطورة هي الدين وشعائره، والتاريخ وحوادثه، والفلسفة ومجالاتها والمجتمع ومشاكله والأدب وقصصه، والكون جميعه عند القدماء. وهي ليست فكرة خاطئة، بل انها فكرة بدوية تاريخية، لونت بصبغة الأطناب والمغالاة، لاظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية، في عصر مضى وزال أثره من ذهن الناس، والناس بالطبع يرغبون في تكبير الشيء الصغير للاثارة وجذب الانتباه. من هنا نرى بعض الناس يعظمون الأموات، ويبالغون في إظهار العجيب من خوارقهم، حتى يبلغوا بهم درجة الالهة في بعض الأحيان. وما زلنا حتى اليوم، نلمس مثل هذا الصنف من البشر، وهم البقية الباقية من ذلك الجيل البعيد، وما زال هؤلاء، يلاقون آذاناً صاغية، وعقولاً ساذجة، تتأثر بمثل تلك الأقاويل وتأخذ بها.

وكذلك إذا وقفنا على أطلال الأكواخ القديمة، التي ندبها الشعراء

الجاهليون، نشعر أنها كانت قصوراً فخمة ـ وهكذا شأن الانسان مع كل ما مضى. والانسان إنسان في كل زمان، وعلى الفطرة فهو مطبوع على السؤال، وفضوله يدفع به إلى أن يسأل ماذا ولماذا؟ والبدوي الجاهلي لضيق أفقه، وعدم اطلاعه، مفطور على أن يقنع كيفما كان الجواب، وهو يفضل الكلام من أن لا يجد جواباً مطلقاً. وفي هذا المجال وفي مثل هذه الحالة، يمكن للأسطورة أن تنشأ. فهي إذن آراء البداوة، التي تطرق ذهن الجاهلي، وتختلج في قلبه، فيسعى لحل تلك الرموز المعقدة، بما يخطر على فلتات لسانه، فتأتي غامضة بعيدة عن الوضوح بجميع ما تحمل من عناصر. والاسطورة الجاهلية تعطينا نماذج عن الحياة في ذلك العصر سواء أكان من الناحية التاريخية، أو الدينية، أو الاجتماعية.

والأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي، حينما كانت مطبوعة فى صفحات الذهن كما قيل في أسطورة اغريقية: ان غيمز ابن طروس ملك طروادة، كان بديع الجمال، فخرج يوماً للقنص على جبل فنزل زوس (رب الأرباب) بهيئة نسر، فاختطفه إلى السماء، فأقام في أولمب، واتخذه زوس ساقياً له. (ولهذا سمي الدلو) وكما قيل في أسطورة عربية: «وإنما كانت الغميصاء وسهيل مجتمعتين ولذلك يقال للشعريين اختار سهيل، فانحدر سهيل فصار يمانياً، وتبعته العبور، فعبرت المجرّة، وأقامت الغميصاء وبكت لفقد سهيل، حتى غمصت[1]. وكذلك من أساطير العرب العيوق. عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[2]. ومثل ذلك قصة الزهرة التي يروى أنها كانت إمرأة حسناء فاتنة، فصعدت إلى السماء ومسخت كوكباً.

وقيل: أن الديك كان نديماً للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار، ولم يدفعا الثمن، وذهب الغراب ليحضر الدراهم، وترك الديك رهناً عند الخمار، فخان به الثمن، وذهب الغراب ليحضر الدراهم، وترك الديك رهناً عند الخمار، فخان به ولم يرجع، وبقي الديك محبوساً وفي هذا يقول أمية بن أبي الصلت:

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 239.

(2) المصدر نفسه.

بـآيـة قـام يـنـطـق كـل شـيء   وخـان أمـانـة الـديـك الـغـرابُ[1]

وكذلك قصة حرب البسوس يمكن أن تدخل في عالم الأساطير، لما فيها من خوارق وزيادات، حولتها عن حقيقتها الواقعية، وقربتها من الخرافات، إذ بالغ الرواة بها وزادوا عليها وكذلك هي الحال في كتاب ألف ليلة وليلة وعلينا أن نميز بين القصة وبين الأسطورة، إذ أن القصة أو (Legende) هي على العموم الحكاية التي تتعلق بمكان واقعي، وبأشخاص حقيقيين، نقلت بالتواتر من جيل إلى جيل، مثل قصة سد مأرب.

قابلية الخيال الجاهلي لخلق الأساطير

ومن الملاحظ أن عرب البادية عندهم القابلية للتأثر بمن جاورهم من الأمم كما أثر البابليون عليهم وخاصة في مكة والحجاز، ولو تساءلنا كيف أخذ العرب هذه الأفكار، وقد كانوا في جاهليتهم أمة منعزلة عن العالم تقريباً، لم تتصل بالحضارتين العريقتين (بين النهرين والنيل) لأمكننا القول أن ذلك الحجاب الصفيق، الذي قيل عنه، لم يكن عازلاً تماماً، بل كان يتسرب من خلاله بعض النور من جراء اتصال العرب بمن حولهم مادياً وأدبياً وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة، نظراً لموقعها الجغرافي ولحالتها الاجتماعية. من هذا نستفيد أن العرب كانوا أمة متقاربة في مبادئ العقائد من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يختلفون عمن جاورهم من الأمم في الحالة الاجتماعية، والاقتصادية، وهذا يعود بلا شك إلى اختلاف البيئة من مدنية وبدوية. فالبيئة الطبيعية في الحجاز ونجد، عبارة عن بادية ورمل لا نهاية لها، وصحراء لا نبات ولا عشب فيها. فالأشجار نادرة، والينابيع والآبار قليلة. والبدوي تجاه هذه الحالة مضطر أن يلجأ إلى المغاور في الجبال، ليحتمي بها من حرارة الشمس، أما في الليل فيشد رحله تحت السماء الصافية، وراء هداية النجوم للبحث عن أرض خصبة ومراع يانعة وماء وفير لماشيته.

أما المدن فلا ينزل فيها إلا عارضاً، وتتدفق القبائل في أودية خصبة

(1) الحيوان للجاحظ ص 117 المجلد الثاني.

تنصب الخيام، وتدق الأوتاد حتى إذا ما اختتم الفصل، انتقلت إلى واد آخر أن مثل هذه البيئة التي لا تسمح الظروف فيها للزراعة والصناعة، تحمل الانسان إلى الاعتماد على هبات السماء، في اكتساب لقمة العيش فهو يترقب أوامر القضاء والقدر ومثل هذا الوضع، يخلق في البدوي الاتكالية المتطرفة، إلى حد أنه بدأ يستقسم بالأزلام في جميع أموره.

أما من جهة أخرى فهذا العيش الشظف جعل من البدوي المجاهد، المستمر في اكتساب المعيشة، الذي لا يترك الأمور إلى الغد، فلا ينظر فيما وراء الطبيعة، بل يستفيد من أقرب الطرق وأسهل الوسائل.

ثم إن صفاء تلك الرمال الواضعة، لا يشوبها كدر، ولا يقلق صفاءها عكر، لا حائل يحول بينه وبينها، ولا حاجب يحجب مجال نظره عنها حدت بالبدوي إلى البعد عن الأمور المعقدة، وجعلته يحب الفكرة البسيطة والبيان الواضح، والكلام الصريح. ومثل هذا يحتاج بلا شك إلى دقة النظر، وشدة الملاحظة التي تزيد في قوة بصره، كما تزيد في قوة بصيرته، وفي الواقع هذه ميزة خاصة من ميزات العربي الجاهلي، فلاحظها في وصف المرئيات وصفاً دقيقاً.

وهذه الملكة في دقة الرؤية وحدة الفراسة، استمرت وتركزت في شكل يشبه العلم، مثل العرافة والقيافة. وقد اشتهرت بها عدة قبائل إلى حد أنه كان باستطاعة الرجل أن يقول: أن المرأة التي مرت بهذا الطريق هي من قبيلة كذا... ويرى أثرها على الأرض ويقول انها متزوجة أو عازبة، وأنها بكر أو ثيب. وهكذا تطورت حتى اتصلت بالأصنام، وأصبح الكهان من الأطباء قال أحد الشعراء:

فقلت لعراف اليمامة داوني فانك إن داويتني لطبيب[1]

وما زالت هذه الفكرة حتى ظهرت الأديان في جميع النواحي، فتلبد جو العربي الصافي بتغيير البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة، فظهرت الصابئة وآراؤهم في عبادة الكواكب تقرباً إلى الله، وانتشر اليهود والنصارى في نجران حول المدينة، وظهرت آراء المجوسية في العراق. فلا بد للبدوي اتجاه هذه النظريات، أن يتحول في أسلوب عيشه، فيسير على عقائد دون أن يطمئن

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص 396 ـ مقدمة ابن خلدون ص 122.

إليها. لكن غرائزه الطبيعية كانت تسوقه إلى دين الآباء القدماء. فهو يخضع لسلطان الطبيعة، إذ كان يعبد الشجر والحجر؛ والدين عنده أساطير الأولين، والبعث حديث خرافة، والأنبياء عنده من المجانين والسحرة. وطبيعي في مثل هذه البيئة، أن تكون عقلية البدوي في حالة من الاضطراب والفوضى، ينقصها التنظيم والاستقرار. نستدل من ذلك خلو الشعر العربي من الشعر القصصي والملحمي، كالياذة هوميروس وشاهنامه الفردوسي. وان هذا الضرب من الخيال ليس مظهراً للخيال كله، فالشعر العربي مليء بالغزل والبكاء على الاطلال، وذكر الحوادث، وما صور به شعوره وعواطفه، وما وصف به التياعه وهيامه لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة. ونحن نعلم أن العربي له خيال وعواطف، ولكن علينا أن نعلم مقدار هذا الخيال وطاقته، وهل هو مثل خيال اليونان والهند؟ أم هو من نوع آخر؟

خيال خلاق مبدع يستطيع أن يولد الاسطورة، لأن الخيال مفتاح أبواب الخرافة، وأساس توليد الأساطير وهو ملك من ملكات العقل، يمثل الأشياء الغائبة وكأنها ماثلة أمامنا، وقد يستطيع الانسان أن يصور من ذكرياته السابقة، ومشاهداته الماضية، صوراً جديدة لا عهد له بها من قبل. والذي يأمل شيئاً يرغب فيه وينشط في إظهاره بحلة عجيبة غريبة. فالرغبة هي المحرك للخلق والتصور. أما تصور ما سمعه أو رآه الغير ولم نسمع به أو نراه نحن، نستعين على معرفته بالتخيل. وقد تأتي الصورة أو الرواية غير مطابقة للصورة الحقيقية المنقول عنها، وخاصة إذا كان المنظر غريباً وجديداً. والخيال على ما نعلم نوعان خيال تصويري وخيال إبداعي. والعرب في الجاهلية يمتازون بخيال تصويري أكثر منه إبداعي. فالعربي يأخذ شيئاً من المرئيات، أو شيئاً من المحسوسات، ثم يركب منهما صورة ليست بجديدة. فلا يضيف شيئاً من عنده لأن عقليته محدودة، وليس لديه تجارب جديدة. وسنرى في تشبيهات أصحاب المعلقات الناقة والفرس مثلاً بحيوان مثلهما قال امرؤ القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل[1]

---

(1) القصائد العشر للتبريزي ص 23 الا يطل: الخاصرة. الارخاء: نوع من العدو. السرحان: الذئب. التقريب: القفز، ويكون بنقل القائمتين معاً ثم الخلفيتين. التتفل: صغير الثعلب.

وقال أيضاً: كجلمود صخر حطه السيل من عل. وكذلك لبيد يشبه آثار الديار بالوشم، ويشبه عنترة الرماح باشطان بئر. من خلال هذه التشبيات يظهر الخيال العربي التصويري لا الابداعي.

وكذلك يتجلى الخيال العربي حينما نقارن بين شاعرية أبي تمام العربي وشاعرية ابن الرومي، كما أشار اليها الدكتور طه حسين في كتابه (من حديث الشعر والنثر) فالتشبيهات العربية الجاهلية، مع كونها منظراً بديعاً وصوراً جميلة، لا تدل على ابتكار في التخيل، فأين هذه التشبيهات من تشبيهات المتخضرمين، نعم لا يليق بنا أن نتوقع ذلك من العربي الذي كانت عقليته محصورة بين مشاهدات ومحسوسات بسيطة في العصر الذي نحن بصدده، إلا أنه يجب أن لا نؤمن بأنهم أرقى الأمم السامية، فهذا يهدينا إلى أن الفكرة العربية في ذلك الزمان لم تتجاوز المرئيات، ولذلك فإن العربي البدوي لم يتصور المعاني في حالة تجردها عن علاقة مادية. لقد وصف عمرو بن كلثوم الحرب بالطاحون وشبهها زهير بن أبي سلمى بالناقة اللقاح فقال:

فتعرككم عرك الرحى بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

قال التبريزي في شرح ذلك البيت[1] إنما شبه الحرب بالناقة لأنه جعل ما يسفك فيها من الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن، وقيل شبه الحرب بالناقة إذا حملت ثم أرضعت ثم فطمت، وفي هذا دليل على أنهم لم يجردوا الحرب في التصورات المذكورة، عن الحقائق المادية والصور الحسية.

الحقائق المادية التي تنتج عنها في عالم المشاهدات، وذلك على خلاف ما نرى في العصر الروماني والاغريقي، فإنهم صوروا الحرب والشجاعة والحب والجمال وأشباه ذلك في معان مجردة، ومع أنهم نحتوها على صورة انسان فلا نجد نظيرها في العالم الخارجي. لذلك نراها قد اتسمت بالصور المعنوية والروحانية.

أما العرب فقد مدحوا الوفاء وضربوا فيه الأمثال فقالوا (أوفى من

(1) شرح القصائد العشر للتبريزي ص 113.

السموأل) وأسخى من حاتم الطائي فكان حاتم تمثالاً حياً. ولهذا نرى أن أكثر قبائل العرب كانت تغلو في موصوفاتها مغالاة ظاهرة وكما قالوا عن (زرقاء اليمامة) أنها كانت تنظر مسيرة ثلاثة أيام، ولكن السموأل والطائي واليمامة، ما زالوا عند العرب أشخاصاً ولم يصلوا إلى درجة الآلهة كما هي الحال عند اليونان في أبطال الالياذة.

أما التصور السمعي فلم يقل شأناً عن التصور البصري. فالعربي كان مرهف الحس ودقيق الملاحظة عين بصيرة وأذن مرهفة. فقد حكي عن كعب الأحبار: ان النبي سليمان عليه السلام مر على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه وذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا الصفاء ومر بهدهد فأخبر أنه يقول: (إذا نزل القدر عمي البصر) أو (من لا يَرحم لا يُرحم) وصاحت طيطوى فأخبر أنها تقول: كل حي ميت وكل جديد بال. والورشان يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب والطاووس يقول: كما تَدين تُدان. وإذا صاحت الغربان تقول: البعد عن الناس راحة. والقطاة تقول: (من سكت سلم)، والنسر يقول: (يا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت)[1].

إن هذه الأقوال كانت مضرب الأمثال عند العرب. فمن المرجح أن العربي أخذ هذه النظريات بمساعدة تصوره السمعي الذي استفاد من تغريد الطيور. فوزن الأصوات وفق صعودها ونزولها. والدليل الذي يؤيد هذا القول، ما قيل من أن العرب يصفون الفاختة بالكذب يقال: أكذب من فاختة. لأن صوتها عندهم: (هذا أوان الرطب) وتقول ذلك والنخل لم يطلع[2]. إن هذا النوع من الخيال الذي يستند على التصور السمعي يظهر جلياً في الأساطير العربية.

والعرب لم يخلقوا أشخاصاً خرافية مثل قناطر الجبال (جمع قنطروس) وهو مخلوق خرافي كان يأوي إلى أكم تسالياً وزعموا أنه له شطر إنسان قائماً على شطر حصان[3].

---

(1) حياة الحيوان ج 1 ص 81.

(2) المصدر نفسه.

(3) الالياذة تعريف سليمان البستاني ص 225.

ولنسأل كيف عبر العربي عن الصور غير المادية، وكيف تخيلها، فإذا أخذنا مثلاً الجن فسوف نرى أن العربي لا يستطيع أن يتخيل صورة الجن بصورة خيالية مخيفة، بعيدة عن المادة بل توهمها بصورة الحيوان مثل الحية والنعامة والأرنب ـ كما نبين ذلك في فصل لاحق وسوف نرى في العقلية العربية القديمة تصوره الروح في شكل الهامة، والعمر الطويل في شكل النسر والأمانة في شكل الكلب، والصبر في الحمار.

والمكر والدهاء في الثعلب... ولذلك نرى أنه من الصعب على العقلية العربية تلك أن تفهم المواضيع التي تتعلق بما وراء الطبيعة على النحو الذي فهمه غيرهم من الأمم السابقة ـ وهذا يعود إلى عدم استعدادها للاستفادة من التجارب السابقة فلما قدرت على إدراك العقائد التي تفسرها الأديان الأخرى كما قال الشاعر....

حـيــاة ثــم مــوت ثــم نــشــر حــديــث خــرافــة يــا أم عــمــرو

أشرت سابقاً أن العربي في الجاهلية قليل الابتكار، ولم أقل انه عار من الخيال، إلا أن ذلك التصور أو الخيال التصويري، هو الغالب على حياته العقلية، ومن هذا الخيال التصويري تولد الاسطورة التصويرية.

فالعربي ينظر إلى السماء ويتأمل نجومها، فيمثل ما شاهده في البيداء غير أنه لا يخترع الأساطير اختراعاً مثل اليونان... واختلاف البيئة الجغرافية يؤدي إلى اختلاف في التصور والتفكير.

وإن كان العربي ضعيف التعليل في ربط المادة بالروح، إلا أنه لم يكن ضعيفاً في الاستنتاج من المحسوسات. وقد نجد عند العرب بعض الأوهام مثل الأسطورة التي تقول: إن دم الرئيس يشفي من الكلب وان سبب المرض روح شرير، حل في نفس المريض فيداوونه بما يطرد هذه الأرواح، أما إذا أرادوا مداواة الرجل المجنون، فخير دواء عندهم هو تعليق الأقذار أو عظام الموتى في عنقه. وكثير مثل هذه الأمثال التي نأتي على ذكرها بالتفصيل في باب الأساطير الاجتماعية.

إن مثل هذه الأمثال الواهنة ليست خاصة بالعرب، ولا تدل أبداً على عدم المقدرة على التعليل، بل هي من أوهام الناس التي نجدها عند مختلف الأمم ـ والتي مثلت على مسارح غير عربية.

إن حياة البدوي اليومية أثرت بالغ الأثر على تصوراته الخاصة، وعلى حياته العقلية إذ نجده يربط الصور بعضها ببعض كربط حياته اليومية، فإذا نظر إلى بعض النجوم تصورها الراعي وكلبه، وتصور معها الظباء تقفز، والأسد يثب، إلى ما هنالك من قصص تصورية من نجوم الدبران والعيوق، ومن سهيل والغميصاء كلها صور قصصية رائعة.

أما إذا تصفحنا بعض أبيات الأدب الجاهلي وأساطيره رأينا (يغوث) يشترك في حروب العرب (وهبل) يغيث وينصر أولياءه في موقعة أحد. وهذا ما دفع أبو سفيان إلى القول بأعلى صوته في هذه الموقعة: أعل هبل! أعل هبل![1]

وإن تصور العربي الجوع حية (سماها صفرا) تولد وتنشأ في بطن الانسان لكنه تمثل الجوع نفسه. حية البطن وليس على صورة حية. وسوف نفصّل ذلك في الفصل الذي يلي.

وبعد أن استعرضنا جميع أنواع الأسطورة عند العرب، فهل نرتاب في قابلية العقلية العربية في توليد الأساطير، وأي أنواع الأساطير امتاز بها العرب دون سواهم؟

والخلاصة ان العربي في العصر الجاهلي كما أشرت سابقاً محدود الخيال من ناحية التخيل والاختراع بالنسبة للظروف الحياتية، ولأحوال البيئة الجاهلية، ومن ناحية أخرى واسع الخيال من حيث التخيل التصويري، فهو مبدع فيه ومجيد له، والاسطورة قد تتولد من الخيال التصويري كما تتولد من الخيال الاختراعي. وقد يسهل على العربي تصور الأشياء ويصعب عليه اختراعها في العصور الجاهلية.

فإذا أردنا أن نبحث في أسطورة عربية نراها منسوجة بخيال تصويري أكثر منه خيال اختراعي، وإذا أردنا أن نبحث عن ناسج الاسطورة العربية نرى ذلك العربي الذي يلعب بالألفاظ أكثر مما يلعب بالمعاني[2].

---

(1) وهبل صنم كانت تعبده قريش.

(2) راجع ـ الحياة الأدبية في الجزيرة العربية ص 25. الدكتور طه حسين.

الفصل الثاني

مذاهب وعادات العرب في الجاهلية

للعرب في الجاهلية عادات خاصة في المأكل والمشرب، ومذاهب مختلفة جروا فيها على قواعد الفطرة والتجربة، من ذلك انهم كانوا يبكرون في الغداء[1] وسئل أحدهم عن ذلك فأجاب: ان فيه ثلاث خصال، الأولى انه ينشف المرة، والثانية يطيب النكهة. والثالثة أنه يعين على المروءة. قالوا: وكيف يعين على المروءة؟ قال: إذا خرجت من بيتي وقد تغذيت، لم أتطلع على طعام أحد من الناس. وكانوا يؤخرون العشاء رغبة في ورود الأضياف بعد عودتهم من مسارحهم. وبلادهم حارة فإذا برد الطقس اشتدت الشهية إلى الأكل.

ومن عاداتهم إيقاد النار في الأماكن العالية، حتى يهتدي الضيف في الليل المظلم والكريم منهم هو من أوقد ناره أيام الجدب والقحط. ولهذه النار علامة خاصة تتسم بها حتى يميزها الضيف عن بقية أنواع النيران المختلفة عند العرب في أحوال معيشتهم. واتخذوا الكلاب أيضاً ليهتدي اليهم من لا يعرف المنازل. قال ابن هرمة: يصف ضيفه كيف استدل إلى منزله بواسطة النار ونباح الكلاب:

وإذا أتانا طارق متنور　　　نبحت فدلته عليّ كلابي
وفرحن إذ أبصرنه يضربنه　　　من أنسها بشراشر الأذناب[2]

---

(1) بلوغ الارب ج 1 ص 374.

(2) بلوغ الارب ج 1 ص 374. فطبيعة كلاب الرجل الكريم تفرح بقدوم الضيف ولا تنبح عليه بل تأنس به. وسبب هذا الانس اعتيادها على كثرة الضيوف التي تتردد باستمرار على داره.

ومن عاداتهم، كيفية تقديم الأكل للضيف بأنفسهم، وليس بواسطة الخدم، ولا يقدم الضيف إلى الطعام، بل يقدم الطعام إلى الضيف. ثم هم يقللون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة وكانوا يعيبون الرجل الأكول الجشع. قال الشنفري:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن   بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل[1]

وقيل للحارث بن كلده: ما أفضل الدواء؟ قال الأزم. يريد قلة الأكل. وقال بعض حكماء العرب: أي بني لأمر ما طالت أعمار الهند، وصحت أبدان العرب ولله درا بن كلده إذا زعم أن الدواء هو الأزم، فالداء كله من فضول الطعام، فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين، والدنيا، والقرب من عيش الملائكة: أي بني لما صار الضب أطول عمراً؟ لأنه يبتلع النسيم، أي بنى قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن ولا انتشر لي عصب ولا عرفت ذنين أنف[2]، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، ما لذلك علة إلا التخفيف من الأكل. فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك[3]. وما أظن صاحبنا حكيماً بل بخيلاً. ويقولون: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وقعدت الاعضاء عن العبادات، فالزاد ينشط الاعضاء على المعصية لأن منشأ المعاصي كلها والشهوات الأطعمة، فبتقليلها تضعف المعاصي. وعلى هذا المبدأ، حتى يصون نفسه من المزالق الخلقية، بكل تحفظ وبعد صيانة، عليه أن يصوم أبد الدهر على هذا الحرمان، بحبوحة في الدنيا، وراحة في الآخرة.

والعادة صفة ملازمة للانسان وهي طبيعة ثانية، يكسبها من المحيط الخارجي الذي يعيش فيه، وسرعان ما ترسخ في النفس، وتتأصل في أعماقها، بعد المران والتكرار، وعندئذٍ لا يستطيع الانسان، أن يبطلها، أو يخفف منها، حيث تصبح جزءاً لا يتجزأ منه، فتمتزج مع الاصول ويصعب عندها التمييز بين الدخيل والأصيل.

---

(1) بلوغ الارب ج 1 ص 367.

(2) الذنين: رقيق المخاط.

(3) بلوغ الارب ج 1 ص 377.

والعادات مختلفة بين فرد وآخر، وبين شعب وشعب، وبين جيل وجيل. وقد يتوارثها الخلف عن السلف عن طريق الايحاء والتقليد. فسنة الاباء كانت سنة الاجداد، وسوف تصير سنة الابناء فيما بعد.

فالطفل يشرب الحليب من ثدي أمه، ويشرب معه عاداتها وتقاليدها. ولا عجب إذا تأملنا بعض العادات التي نسير عليها نحن اليوم كانت من عادات العصور الجاهلية، وقد وصلت إلينا عن طريق الوراثة دون شك، كما أن هناك بعض العادات لا يختص بها شعب بنفسه، بل هي مشتركة بين جميع الشعوب والأمم، وصلت اليهم عن طريق التمازج والاختلاط، وعن طريق الاقتباس والتقليد.

أما العرب فلهم عادات عجيبة وتقاليد غريبة، توارثوها عن بعضهم من قبيلة إلى قبيلة، ومن عصر إلى عصر، وبعض هذه العادات خاصة بهم، والبعض الآخر أخذوه عن الشعوب التي جاورتهم، والتي بدورها أخذت كما أعطت.

والعادة هي بنت البيئة، ولكل بيئة عادات خاصة تتميز بها عن سواها، ولكل شعب حاجات ونزعات لا يشاركه فيها أحد. فالعادات إذن كثيرة ومتنوعة، إذ ليس لها حد محدود ولا شكل معروف.

ولنتناول بعض العادات والتقاليد الجاهلية الاسطورية، التي تهدينا إلى الاطلاع على حياة الشعب البدائي، بما فيه من طرائف غريبة، وأساطير وخرافات يقف الانسان أمامها حائراً متعجباً. من هذه العادات نذكر (قصة الرجم).

قصة الرجم

كان أبرهة الأشرم قد استولى على اليمن وقتل أميرها ارياطا، وكان قد بنى القلّيس[1] بصنعاء، لم ير مثلها في زمانها. وقد أتاها رجل من مضر فأحدث فيها، ثم خرج لأن أبرهة كان قد أرسل إلى النجاشي يقول:

---

(1) السيرة 1 ص 43 كنيسة بصنعاء سميت بذلك لارتفاع بنائها وعلوها ومنها القلانس لأنها في أعلى الرؤوس.

«لست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب». غضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت ليهدمه. خرج اليه رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر، فعرض له فهزم، وقد أخذه معه أسيراً، وفي أرض خثعم، عرض له نفيل الخثعمي، فهزمه وأخذه أبرهة أسيراً مع ذي نفر. حتى مر بالطائف فخرجت اليه ثقيف قائلة: أيها الملك نحن عبيدك سامعون، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريده، يعنون اللات، إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نرسل معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم، بعد أن بعثوا معه أبا رغال، يدله على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس[1] فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب، وهو القبر الذي يرجمه العرب حتى اليوم. وما زالت هذه العادة سائرة المفعول حتى اليوم، وهي إشارة إلى غضب الناس على أبي رغال، دليل أبرهة الظالم. وهذه عادة جاهلية.

المرأة المتوفي زوجها:

وهي ان المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حفشاً[2] ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة حماراً أو شاة أو طائراً فتفتض[3] به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطي بعرة فترمي بها، ثم تراجع بعدما شاءت من طيب أو غيره. ووقع في رواية فإذا كان حول، فمر كلب، رمت ببعرة، وهو إشارة إلى أنها رمت العدة. وهكذا إن رميها البعرة يتوقف على مرور الكلب سواء طال زمن الانتظار أم قصر[4] ومما يظهر أن هذه العادة، كانت عسراً على النساء فعدلت فيما بعد بفتوى جديدة، وهو أن ترمي بها كلباً أو غيره.

---

(1) موضع بطريق الطائف فيه قبر أبي رغال دليل أبرهة، يرجم.

(2) الحفش ـ البيت. بلوغ الارب ج 1 ص 244.

(3) تفتض به (أي تمسح به جلدها).

(4) بلوغ الارب ج 2 ص 50 ـ 51.

مذهبهم في الخرزات والاحجار والرقي

فمن خرزاتهم (السلوانة) ويقال لها السلوة، وهي خرزة يسقى العاشق منها، فيسلو في زعمهم قال الراجز:

لو أشرب السلوان ما سليت ما بي غنى عنكم وان غنيت[1]

ومنهم من لا تنفعه السلوة كما قال أحدهم:

سقوني سلوة فسلوت عنها سقى الله المنية من سقاني[2]

أي سلوت عن السلوة واشتد بي العشق ودام.

نستخلص من هذا، أن الحرمان الذي كان يعانيه البدوي في مجتمعه الضيق، يبقى أثره في أعماق نفسه فيظهر عليه بعلامات مختلفة منها الضعف والوهن اتجاه حبه العنيف الذي تحطم على صخور عادات الجاهلية الصلبة، فلجأ إلى الوهم، عله يفرج همه ويزيل غمه، بطريقة أسطورية عجيبة.

كان في الخرزة عبرة في نظر أهل الجاهلية، ولو وجد البدوي في عصرنا الحاضر، فهل نظن أنه بحاجة إلى استعمال خرزته السحرية؟

أما إذا لاحظت المرأة بعض الفتور والجفاء من زوجها، فتعمد إلى نوع آخر من الخرزات العجيبة وتدعى (بالهنمة) (بالليل زوج وبالنهار امه). ولا تزال تردد هذه العبارة حتى تستفيد. أما إذا كان للمرأة ضرة، فلا تنفعها إلا (القرزحلة)[3].

وأنشد ابن الأعرابي:

لا تنفع القرزحله العجائزا إذا اقطعنا دونها المفاوزا[4]

ومنها خرزة العقرة[5] تضعها المرأة على الخاصرة فتمنع الحبل. ومنها

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 5.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 6.

(3) بلوغ الارب ج 3 ص 6، تاريخ العرب ج 5 ص 347.

(4) المفاوز جمع مفازة وهي المكان المهلك مأخوذ من الفوز وسميت به تفاؤلا بالسلامة.

(5) بلوغ الارب ج 3 ص 7 تاريخ العرب ج 5 ص 348 - تاج العروس ج 3 ص 414.

(الخصمة) وهي خرزة للدخول على السلطان، دون خوف أو وجل، يضعها الداخل تحت فص الخاتم، أو في زر القميص أو في حمائل السيف. قال بعضهم:

يعلق غيري خصمة في لقائهم ... وما لي عليكم خصمة غير منطقي[1]

ومنها الكحلة: وهي خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم، ولكنها لا تنفع الفرس إذ لها خرزة خاصة تدعى (القبلة).

ولا فرق بين خرزة أهل الجاهلية، وخرزة عصرنا اليوم، إلا اللون، فالبعض من نسائنا يستعملن الخرزة الزرقاء على صورة الكف، تعلق في عنق الصبي، حتى تقي عنه العين والحسد، وخاصة إذا كان ولداً وحيداً أو جميلاً.

وأما المرأة الفارك[2] إذا سافر عنها زوجها تقول: بأفول القمر وظل الشجر شمال تشمله[3] ودبور تدبره، ونكباء تنكبه[4]. ثم ترمي في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة، وتقول: حصاة حصت أثره، ونواة نأت داره، وروثة راثت خبره، وقالت فارك في زوجها:

أتبعته إذا رحل العيس ضحى ... بعد النواة روثة حيث انتوى

الروث للريث وللنأي النوى[5]

وقال آخر يخاطب امرأته:

لا تقذفي خلفي إذا الركب اغتدى ... روثة عير وحصاة ونوى

لن يدفع المقدار أسباب الرقى ... ولا التهاويل على جن الفلا[6]

يظهر ان البعض منهم لم يكن يثق بهذه التمثيليات والأقاويل، أو أنه جرب بنفسه فلم ينفعه الاختبار فعارض القوم وأعلن رأيه بصراحة تامة.

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 7.

(2) الفارك التي تبغض زوجها.

(3) الشمال ريح تقابل الجنوب والدبور ريح تهب من الغرب.

(4) نكباء ريح بين الصبا والشمال.

(5) بلوغ الارب ج 3 ص 8.

(6) بلوغ الارب ج 3 ص 8.

وبقي التميمة، ويقال انها خرزة تعلق في العنق لتدفع عنهم الآفات. وهذه أيضاً تجربة فاشلة، أجراها أبو ذؤيب (خويلد بن خالد بن ربيد) فلم تنفعه. هلك وله خمسة بنين في عام واحد، فرثاهم بقصيدة قال فيها:

وإذا المنية انشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع[1]

الوشم:

وهو أن يغرز في العضو إبرة، حتى يسيل الدم ثم يحشي بنورة[2] فيخضر. ومن عادات العرب الباطلة والمستقبحة: الوشم يزعمون أنه يقوي المفصل الذي وشم عليه، وهو يستعمل للنساء والرجال والأطفال على حد سواء، ينقش به غالب أبدانهم، أنواعاً من النقوش من صور حيوانات، على الشفاه واليدين وسائر أنحاء الجسد، قصد التزين والتجميل. وما زالت هذه العادة حتى اليوم في بعض البلدان العربية وخاصة عند الأعراب.

النياحة

كان العرب يوصون أهلهم بالنوح والبكاء عليهم إذا ماتوا، وبقدر ما يكون الميت عظيماً بقدر ما تكون النياحة عليه عظيمة وطويلة. قال طرفة بن العبد مخاطباً ابنة أخيه معبد:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله   وشقّي عليّ الجيب يا ابنة معبد[3]

وكانوا يظنون أن أرواح الموتى لا تنقطع من التردد إلى منازلهم في الدنيا طيلة سنة كاملة. قال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فقوما وقولا بالذي تعلمانه   ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا: هو المرء الذي لا صديقه   أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 9.

(2) النورة دقيق كالأثمد تدق فتسفها اللثة. بلوغ الارب ج 3 ص 10.

(3) الجيب من القميص هو الذي يدخل منه الرأس بلوغ الارب ج 3 ص 11.

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[1]

وما زالت هذه العادة متبعة، حتى عصرنا الحاضر وعلى الأخص في الريف، وأما زيارة القبور وزرع الزهور عليها، فما زالت متبعة أيضاً في الريف والمدينة على حد سواء. وقد حدثتني بعض الزميلات وهي تحمل شهادة جامعية عالية، وتعتبر نفسها مثقفة، إنها تزور قبر والدتها كل خميس عصراً ظناً منها أن روح المرحومة تطوف فوق القبر في ذلك النهار كما أن والدتها تسعد وترتاح بهذا اللقاء الخيالي الاسطوري.

والحقيقة أن الذي قال أن العادة طبيعة ثانية، ليس ببعيد عن الصواب!

جز النواصي[2]

وهي علامة النعمة التي يمنحها العربي إلى الرجل الشريف بعد أسره، فبعد أن يفك أسره، يجز له ناصيته كعلامة فارقة وتبقى مقصوصة ولا يجوز له تطويلها. قال بشر بن أبي حازم الأسدي:

وإذا جـزت نـواصـي آل بـدر فـأدوهـا وأسـرى فـي الـوثـاق
وإلا فـاعـلـمـوه أنـا وأنـتـم بـغـاة مـا بـقـيـنـا فـي شـقـاق[3]

وسبب هذا الشعر، أن قوماً من فزارة، جاوروا بني طيء، فعمد هؤلاء إلى الفزاريين فجزوا نواصيهم وقالوا: مننا عليكم ولم نقتلكم. فقال بشر للطائيين: فإذا قد جززتم نواصيهم فاحملوها الينا، واطلقوا من قد أسرتم منهم، وان لم تفعلوا، فاعلموا أننا نبغيكم فنبقى في شقاق دائم[4] يتضح أن عادة جز الناصية عندهم، كانت للافتخار واظهار البطولة يمن بها القوي على الضعيف.

(1) يقول أنا الآمن هاتين القبيلتين أفنى كما فنيا. بلوغ الارب ج 3 ص 12.
(2) النواصي: جمع ناصية وهي الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة.
(3) البغاة جمع باغ وهو الظالم بلوغ الارب ج 3 ص 15.
(4) بلوغ الارب ج 3 ص 16.

خضاب النحر[1]

كان الصيد عند العرب سبباً رئيسياً من أسباب حياتهم في الجاهلية، والخيل هي التي تسهل لهم الوصول إليه، لذلك اهتم العرب اهتماماً بالغاً بها، وخصصوها بخدمة جلى. ومن عاداتهم: انهم إذا أرادوا الصيد ساقوا الخيل وأغاروها، فالسابق على غيره يخضبون نحره بدم ما يمسكونه من الصيد، وهي علامة توضع لأجل الفخر والمباهات غير أن لاعراب الحجاز عادة قريبة من التي ذكرنا، وهي أنهم إذا نزل بهم ضيف من أعيان القوم نحروا له، حتى إذا ترحل عنهم، لطخوا طرفي سنام بعيره بدم ما ذبحوه، وهذا دليل تقديره واعتباره تجاه مجتمعه وأصحابه.

التعقية

والتعقية عند العرب، هي أن يقتل الرجل رجلاً من قبيلته، فيطلب القاتل بدمه، فيجتمع رؤساء القوم إلى أولياء المقتول، ويقدمون لهم ديَّة، ويسألونهم قبولها، فإن كان أولياؤه أصحاب قوة وسلطان، رفضوا وإلا قالوا بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي، وهذه العلامة تقضي بأن يؤخذ سهماً ويرمي به نحو السماء، فإن رجع مضرجاً بالدم، فهي علامة النهي عن أخذ الديه، وإن رجع كما صعد أخذناها وحينئذٍ يمسحون لحاهم ويصالحون. (فمسح اللحية علامة الصلح) قال ابن الأعرابي[2] ما رجع ذلك السهم قط إلا نقياً، ولكنهم يعتذرون به عند الجهال. ومن شعر الهذلي ما أنشده أبو عبيد البكري:

لا ينسئ الله منا معشراً شهدوا   يوم الأميلج لا عاشوا ولا مرحوا[3]
عقوا بسهم فلم يشعر به أحد   ثم استفاؤا وقالوا حبذا الوضح[4]

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 18.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 19.

(3) الأميلج موضع في بلاد هزيل كانت به وقعة. لا مرحوا: لا جرحوا.

(4) إنهم آثروا الدية الابل والبانها على دم قاتل صاحبهم. والوضح هنا اللبن. وقوله لا ينسئ الله أي لا يؤخر الله موتهم من الانساء وهو التأخير.

كان الذي يرضى بالدية ينظر إليه نظرة ضعف وذل، قال قائلهم يهجو من أخذ الدية من الابل:

وإن الذي أصبحتم تحلبونه   دم غير ان اللون ليس باحمرا

وقالت امرأة تعير قومها لانهم رضوا بالدية وتقاعسوا عن الثأر لابنهم: أيها القوم: هل رضيتم باستبدال الدم باللبن!! فاثأروا وردوا شرفكم وكرامتكم.

الاستقسام بالأزلام

كان في الكعبة بمكة المكرمة، صنم لقريش، يدعى هبل، وهو من أعظم أصنام العرب في الجاهلية. وكانوا إذا أرادوا سفراً أو تجارة، أو نكاحاً أو نسباً لأحد مجهول، جاؤوا إلى هبل، يستقسمون عنده، ويتناول أمين القداح[1] أجره ثم يبدأ بعمله. وأزلامهم كانت سبعة قداح، محفوظة عند سادن الكعبة. كتب على أولها (نهاني ربي) وعلى الثاني (أمرني ربي) وعلى الثالث (منكم) وعلى الرابع (من غيركم) وعلى الخامس (ملصق) وعلى السادس (العقل) وعلى السابع (غُفْل) أي ليس عليه شيء. فإذا أرادوا الاقدام على أمر سفر أو تجارة أو غزو، استقسم لهم: بقدحي (الأمر والنهي) ويعمل بأمر الذي يخرج. فإن أتت النتيجة غير متناسبة مع صالحهم صبروا سنة وأعادوا الاستقسام بقدحي (نعم) (ولا) فإذا ظهر (نعم) مضوا وإذا ظهر (لا) توقفوا. أما إذا أرادوا معرفة رجل مجهول النسب، عمدوا إلى الأزلام الموسومة (منكم من غيركم، ملصق) فإن ظهر منكم أعزوه وإن ظهر من غيركم نفروا عنه، وإن ظهر ملصق، بقي مجهول النسب[2] ويحكي ان امرأ القيس، لما خرج يطلب بثأر أبيه، استقسم عند ذي الخلصة، فخرج السهم الذي لا يريده (نهاني ربي) فسب الصنم ورماه بالحجارة وانشد:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   لم تنه عن قتل العداة زورا[3]

---

(1) أمين القداح ضارب القداح - بلوغ الارب ج 3 ص 66 تاريخ العرب ج 5 ص 319 الأصنام ص 28 تاج العروس ج 8 ص 326.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 67.

(3) الأصنام ص 35.

لأن أخذ الثأر عندهم أمر واجب ولا بد منه.

وكان كثير منهم يخضع لما تتخيره له قداحة، وللقداح الرأي الفصل، قال شمْعلة بن أخضر الضبي:

رئيس ما ينازعه رئيس ... سوى ضرب القداح إذا استشارا[1]

وهذا رجل آخر يشبه امرأ القيس حيث لم يستشر قداحاً وإذا همّ بأمر مضى فيه، وقد عزم على الحرب ولم يستشر قداحاً فقال:

أتاني قاشر وبنو أبيه ... وقد جنّ الدجى والليل لاحا
وحذّرني أموراً سوف تأتي ... أهزّ لها الصوارم والرماحا
سأمضي للذي قالوا بعزم ... ولا أبغي لذلكم قداحاً[2]

وقالوا إنها ثلاث قطع من الخشب، مكتوب على أحدها: نهاني ربي، وعلى الآخر: أمرني ربي، وأما الثالث فغفل. فإن خرج الأمر مضى لطيشه، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أجال القداح مرة ثانية.

وسواء أكانت ثلاثة أم سبعة أم أكثر، وسواء أكانت عليها كتابة أم لم تكن، فإن الذي أريد أن أذكره أن الأصنام كانت تستشار. وأكثرهم يأتمر بنتائجها.

قال طرفة ساخراً بالاستقسام لما بعث عمرو ابن هند قائداً من قواده هو الفلاق بن شهاب العدوي ليصلح بين بكر وتغلب، فاصطلحوا على دخن، فأغارت تغلب على بكر، وكان الفلاق ضالعاً مع تغلب:

فسعى الفلاّق بينهم ... سعي خِبّ كاذب شِيَمُهْ
أخذ الأزلام مقتسماً ... فأتى أغواهما زُلَمهْ
عند انصاب لها زُفَرٌ ... في صعيد جمه أدمُهْ

ديوان طرفة 17 ـ 18

أدمه: جلود ما حمله إلى الانصاب ليذبحه عليها. زفر: من معانيها البحر والنهر الكثير الماء وهو المراد هنا ليدل على الماء الغزير.

---

(1) البيان والتبيين ج 3 ص 104 سوى ضرب القداح: سوى صاحب الضرب الموكل به.

(2) المصدر السابق ج 3 ص 104.

النسيء

النسيء وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، وأصله من نسأت الشيء إذا أخرته، فإنهم يعتقدون أن من الدين تعظيم الأشهر الحرم، وهي أربعة: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة[1] والقتال في الأشهر الحرم محرم، وأما بعض القبائل، كانوا إذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل. فلم يكن أشهراً محرمة محدودة ومعينة، وربما زادوا عدد الأشهر ثلاثة عشر، ليتسع لهم الوقت، ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراماً. وكان يختلف حجهم لذلك حتى جاء الاسلام، وعين لهم رسول الله ﷺ في حجة الوداع الأشهر عامة، والأشهر الحرم خاصة فقال: (السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادي وشعبان)[2].

التسمية والكنى

جرى العرب على تسمية أبنائهم بمكروه الاسماء، ككلب وضرار وحرب، وتسمية عبيدهم بمحبوب الاسماء، كفلاح ونجاح. والسبب في ذلك، أجاب عنه أبو الدقيش الكلابي[3] لما سئل لما تسمون أبناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لاعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا ومن العرب من سمي تفاؤلاً مثل: غالب، ومالك - وطارق وسعدى وغانم. ومنهم من أراد القوة والصلابة، مثل صخر وحجر، ومنهم من يخرج من منزله وامرأته تضع، فيسمى ما تلده باسم أول من يلقاه، قد يكون ثعلباً، أو ظبياً، أو كلباً، أو حنشاً وكل ما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه. كلها عادات سار عليها العرب كغيرهم من الأمم، تقليداً وتوهماً.

ومما يروي، أنه مر وائل بن قاسط بأسماء، وكانت امرأة جميلة، وبنوها

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 70.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 72.

(3) بلوغ الارب ج 3 ص 193.

يرعون حولها في الحقول المجاورة، فهمّ بها، فقالت له: لئن لم تنته لاستصرخن عليك اسبعي فقال ما أرى بالوادي أحداً فقالت: لو دعوت سباعه لنعتني منك وأعانتني عليك فقال: أوتفهم السباع عنك؟ فقالت نعم: ثم رفعت صوتها: يا كلب - يا ذئب - يا فهد - يا دب - يا أسد فجاؤوا يتعادون يقولون ما خبرك يا أماه؟ قالت ضيفكم هذا أحسنوا قراه فذبحوا له واطعموه. فقال وائل ما هذا إلا وادي السباع(1).

الطرق بالحصى

ومن عادات العرب الساذجة هذه العادة أيضاً وهي الطرق بالحصى. وهم يتوقون بكليتهم إلى معرفة أمور الغيب، وإلى كشف ما يخبئه المستقبل لهم في حياتهم القلقة غير المستقرة وللطرق بالحصى صورة مخصوصة عندهم، فالكاهن عندهم يسألونه عن الحادثة، فيخرج حصيات كان قد أعدها، فيطرق بعضها ببعض، فتظهر له ساعتئذٍ ملامح الاجابة(2).

أما الخط على الرمال فهو أغرب وأعجب. يأمر الكاهن غلاماً له لم يبلغ الحلم، فيخط خطوطاً على رمل أو تراب، بعناية ودقة وسرعة زائدة، كي لا يدركها العد والاحصاء. ثم يأمره الكاهن، فيمحوها خطين خطين وهو يقول: (ابني عيان اسرعا البيان) فإذا ما بقي منها خطين يفرح صاحب المشكلة، ويتهلل وجهه، وإذا ما بقي خط واحد فهو علامة الخيبة والفشل.

هذه هي صفات الشعوب في حياتها البدائية، وهذه هي عاداتها وتقاليدها الاسطورية. فحياة العرب في الجاهلية حياة بسيطة ساذجة، متقلبة، صعبة، وقد أتى نتاجهم الفكري صورة معبرة عن هذه الحياة بكل عجائبها وغرائبها وأوهامها. وهذه البساطة والسذاجة في الحياة البدائية كانت عند سائر الأمم الأخرى في عصورها الجاهلية.

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 195.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 323 - المجاني الحديثة، لبيد بن ربيعة ص 115 سطر 19.

الحمس

كان من الحمس عند العرب انهم لا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات، إنما يقفون بالمزدلفة، وكانوا لا يسلاؤون[1] ولا يأقطون[2] ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر، وإنما يكتفون بالقباب الحمر في الأشهر الحرم، وعلى العرب قاطبة أن تطرح زادها إذا دخلت الحرم، وتترك ثياب الخل وتلبس ثياب الحرم إما شراء، وإما إعارة، وإما هبة، وإن لم يجدوا طافوا بالبيت عرايا رجالاً ونساء.

---

(1) سلا السمن طبخه.

(2) الأقط شيء يتخذ من المخيض.

الباب الثاني

الأساطير الاجتماعية

الفصل الأول

الأساطير الحياتية

كانت أرض المجتمع الجاهلي خصبة جداً لتوليد الأساطير، ويمكننا اعتماد هذه الأساطير دليلاً، يلقي بعض النور على حياة الجاهليين بكل ما فيها من عادات وتقاليد وتصورات بدائية، تسودها المغالاة ويوشحها التزويق والتنميق.

والاسطورة الاجتماعية الجاهلية ترسم لنا حياة البدوي بما عنده من ذخائر فكرية استند بها على واقع وخيال تصويري، أعطى نفائس انسانية عظيمة، وأفق محدود استمد ماءه من البيئة الجاهلية الفطرية.

وقد تضيق الصفحات عن ذكر جميع ما اطلعت عليه من الأساطير الاجتماعية الكثيرة، وسوف، أورد منها طائفة متنوعة من المجتمع الجاهلي في جميع حقول المعرفة، وشتى أساليب الحياة.

ورد في القرآن الكريم: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله. ولا الشهر الحرام. ولا الهدى، ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً واذا حللتم فاصطادوا﴾**[1].

الهدي والقلائد:

من واجبات الحاج أن ينحر الهدى الذي ساقه إلى البيت الحرام، فلا يستحلها المحرم في فترة إحرامه وهي إما ناقة، أو بقرة، أو شاة، فلا تنحر إلا

(1) سورة المائدة الآية 2 والآية 3.

للغرض الذي سيقت من أجله ولا ينتفع من لحومها وجلودها وأوبارها بشيء، بل كلها للفقراء. ونعجب هل هنالك من الفقراء من يستهلك كل هذا الهدى؟ وهل تدوم الافادة أكثر من أيام معدودة؟ هناك الملايين من الحجاج ينحرون ويهدون في الوقت نفسه!!

والقلائد وهي الأنعام التي يضع أصحابها قلادة في رقبتها، ويطلقونها ترعى حتى يوم النحر وهذه القلائد يحرم احلالها بعد تقليدها.

وفي الآية التي تلي يعدد الذبائح الممنوعة حتى يصل إلى ما ذبح على النصب، (وان تستقسموا بالأزلام... ذلكم فسق... فما ذبح على النصب - وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها، وينضحونها بدماء الذبيحة، في الجاهلية فهي محرمة لما فيها معنى الشرك بالله. وأما الاستقسام بالأزلام[1] -).

القداح التي يستشيرونها في الإقدام على العمل أو تركه. كانوا يستعملونها في الميسر المعروف عندهم، فيقسم الجزور أو الناقة التي يتقامرون عليها (وقد ورد التعريف بهذه العادة في فصل العادات والتقاليد في الجاهلية).

الاسلام دين ودنيا بعكس المسيحية التي حصرت اهتمامها بأمور الآخرة. بعد أن عدد لهم الذبائح الممنوعة في الأيام العادية، وذكر لهم أيضاً الصيد الممنوع في أيام الاحرام: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾**[2].

وإذا أخطأ أحدهم فعليه كفارة بسيطة، وإذا عمد الصيد يدفع كفارة، فيذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله. فالغزالة مثلاً تجزي بها نعجة أو عنزة. والابل بقرة... وإذا لم يجد بهيمة فعليه أن يطعم المساكين بما يساوي ثمن الصيد، وإذا لم يجد، صام عن الأكل ما يعادل هذه الكفارة. هذه العقول البسيطة المحدودة الأفق، خاطبها الله حسب مداركها وحسب إمكاناتها، حتى يسهل الأمر وينفذ، وإن عادة ذبح البهائم هي عادة قديمة، وقد يصعب جداً تغيير العادات فوراً وسريعاً ذلك أن بعضها ما زلنا نسير عليه

(1) تاريخ العرب ج 5 ص 319.

(2) سورة المائدة الآية 95.

حتى اليوم! والجاهلية الحديثة هي أدهى وأخطر من الجاهلية القديمة ذلك أن الجاهلية لا تختص بقوم معين أو زمن معين بل هي ممارسات وأعمال تعرف بها وتدل عليها.

البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي:

ثم هناك بعض الأصناف من الأنعام التي كانوا يطلقونها لالهتهم بشروط خاصة وعلامات معينة معروفة عندهم، كلها منتزعة من أوهام الجاهلية، المتراكمة ومن ظلمات العقل الجاهلي حتى جاء الاسلام بنوره الساطع ونفي هذه الأباطيل كلها. ودل الناس على حياة جديدة وسعيدة.

ورد في القرآن الكريم: **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾**[1].

فالبحيرة هي الناقة التي تشق أذنها، وتخلى للطواغيت إذا ولدت خمس أبطن آخرها ذكر.

كانوا يهتمون لأمر الأنثى من الحيوان لأنها تعطيهم فائدة أكثر من الذكر. والبحيرة هي بنت السائبة وهذه هي الناقة إذا تابعت بين عشر أناث ليس بينهن ذكر، سيبت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، وإذا انتجت من انثى شقت أذنها ثم خلي سبيلها وبعد ذلك فهي برء من سقم أو نجاة من حرب والحامي، هو الفحل إذا لقح ولد ولده. فلا يركب ولا يحمل عليه، بل يترك في إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك.

ولوحة أخرى يصف فيها القرآن الكريم تصورات الجاهلية وتقاليدها البدائية في الحرث والانعام يقول: **﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذه لله وهذه لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾**[2].

يزعم أهل الجاهلية أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام، فعليهم أن يجعلوا قسماً منها إلى الله سبحانه، وقسماً لأوثانهم وأصنامهم، ثم

---

(1) سورة المائدة الآية 103 ـ السيرة النبوية ج 1 ص 89 ـ تاريخ العرب جج 5 ص 209.

(2) سورة الأنعام الآية 136.

هم بعد ذلك يجورون على القسم الذي جعلوه لله فإذا هبت الريح من النحو الذي جعلوه لالهتهم إلى الذي جعلوه لله، ردوه إلى حصة آلهتهم. وإذا هبت الريح من النحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لالهتهم، أقروه ولم يردوه. وذلك معنى قوله: ساء ما يحكمون.

وحتى اليوم ما زلنا نقع على ما يشبه مثل هذا في تقديم النذورات من أمتعة ومآكل... ففي إيطاليا يقدمون بواكير مزروعاتهم من فواكه وزروع إلى الله حتى «يبارك مواسمهم» فإذا ما انتجت الكروم مثلاً انتاجاً عظيماً يهدون للرب باكورة الانتاج بعض العناقيد الكبيرة. ظناً منهم أنه يبارك في الغلة ويرضى عنهم بهذه الهدية البسيطة.

كما كانوا يمنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب، ويمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو الركوب، أو لا يركبونها في الحج لأن فيه يذكر اسم الله... **﴿وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾**[1].

وانهم كانوا يسمون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم، ويجعلونه محرماً على أناثهم إلا أن ينزل الحمل ميتاً فعندئذٍ يشترك فيه الذكور والاناث والذي يقرر كل هذا بطبيعة الحال الكهنة والسدنة والرؤساء **﴿وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا، ومحرم على أزواجنا، وان يكن ميتة فهم فيه شركاه سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم﴾**[2].

الطواف:

ومن أقاويل العرب في الجاهلية وهم يزاولون فاحشة التعري في الطواف ببيت الله الحرام وفيهم النساء ـ إن الله أمرهم بذلك. لقد أمرهم آباؤهم بهذه البدعة، فورثوها عنهم ففعلوها. إن هذا النوع من الجاهليين أكثر اعتقاداً من الجاهليات الأولى. وأكثر الشوائب والخرافات التي ورثها الجاهليون، أتت عن طريق الوراثة، وراثة عادات وتقاليد الآباء والأجداد. حتى بات من

---

(1) سورة الأنعام الآية 138 ـ النحل الآية 56.

(2) سورة الأنعام الآية 143.

الصعب التخلي عنها أو من روابطها. **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تفعلون﴾**[1].

تحريم أكل الدسم:

ومما يروي عن أساطير العرب وسذاجتهم، أنهم كانوا لا يأكلون دسماً في أيام حجهم، ويكتفون باليسير من الطعام. فقيل لهم: خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا **﴿أي لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرم عليكم. فقال: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبين من الرزق﴾**[2].

ثم يعرض القرآن الكريم مشهداً بائساً لاستعباد الواقع المألوف الذي يسلب الانسان حرية التفكير والاعتقاد، ويجعله عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف المألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه. والآية التي تلي: **﴿... اتجاد لونني في اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان﴾**[3] كان لعبادة الطواغيت عظيم التأثير في نفس الجاهليين، فالعادات الجاهلية التي تأصلت في نفوسهم ونشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم، وشربوها مع لبنهم حتى ساروا في أثرها دون تفكير، وعبدوها دون تمييز، ولم يعد بامكانهم عندئذٍ أن يميزوا بين الحق والباطل، الحق الواضح من قبل الرسول الكريم عن طريق الامثال. ولكنه الشيطان يوسوس في صدورهم، فيجرهم إلى الأوهام والانطواء تحت ظلام طواغيتهم.

نذر الابناء للآلهة:

وبعد هذا ترد أسطورة ما زالت تعيش حتى عصرنا الحاضر، وهي نذر الابناء للآلهة حتى تعيش وتسلم. تذكر بعض الروايات في التفسير **﴿فلما أتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما أتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾**[4] إن هذه

(1) سورة الأعراف آية 28.
(2) سورة الأعراف آية 32.
(3) سورة الأعراف آية 71.
(4) سورة الأعراف آية 190 ـ الاسراء الآية 64.

القصة وقعت لآدم وحواء إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين فجاء إليهما الشيطان فأوعز إلى حواء أن تسمي ما في بطنها عبد الحارث: والحارث اسم لابليس ولقد كان العرب قبل الاسلام وحتى عهد الرسول ﷺ ينذرون بعض أبنائهم للآلهة أو لخدمة معابد الآلهة تقرباً وزلفى.

إلى الله وذلك لتعيش أبناؤهم وتوقى الاخطار. كما يجعل الناس اليوم نصيباً في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين، كما أنهم يستبقون شعر الغلام لا يحلق لأول مرة، إلا على ضريح قديس أو ولي، أو أن يستبقوه للاختان حتى يختتن هنالك. مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بإله واحد ويتبعون هنا الاعتراف بهذه الأعمال الساذجة الخرافية. وقد أعيد تمثيل هذه المهزلة في عصرنا. ولا عجب بعد ذلك فالناس هم الناس في كل مصر وعصر بدائي.

كان يظن العرب أن ما يتلى عن النبي ﷺ من القرآن أقاصيص سمعوا بها من قبل، وليست حديثة العهد بهم **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[1]. كان البعض من رواتهم يأتون من بلاد فارس بأقاصيص ويتلونها على الناس مزخرفة من نسيج خيالهم، ليحولوا بها الناس عن الصراط المستقيم إلى وسوسة الشيطان. كما فعل النضر بن الحارث إذ له في هذا الشأن باع طويل، كان يذهب إلى فارس ويتعلم من أخبار ملوكهم (رستم واسفنديار) ويحدث الناس بها.

زعم العرب أن البنات لله:

وكان عرب الجاهلية يزعمون أن لله البنات (وهي الملائكة) على حين أنهم كانوا يكرهون ولادة البنات لأنفسهم **﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾**[2] وانحرافهم هذا سوّل لهم وأد البنات والمعاملة الوضيعة والذل والهوان. وسبب هذا أن البنات يجلبن العار لهم، ولا يقاتلن في الحروب، ولا يكسبن لقمة العيش، وقد يقعن في السبي. ثم يرسم لهؤلاء الناس صورة لبعض عاداتهم في الجاهلية **﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً**

(1) الأنفال الآية 31.

(2) النحل الآية 57 والاسراء الآية 40 و58 و59.

كظيم﴾ مسوداً من الهم والحزن فيكظم غيظه وغمه كأنها بلية، كلها تصورات شاذة لأوضاع شاذة، وهذه العادة ما زالت تسود اليوم عند بعض الناس في الأرياف.

ويظن العرب أن بعض الناس الملهمين يتكلمون بلسان تابعهم فهو الذي يلهمهم القول ويجول في آفاق الغيب ويوحي اليهم القول الآية: **﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾**[1] وهنا لا بد لنا من وقفة قصيرة عند شياطين الشعر وعبقريتهم.

ليس عند العرب وحدهم بل عند عامة الشعوب، يعتقدون أن كل عبقري موهوب بقوة خارقة غير منظورة. عند اليونان نجد(موزا) (La Muse) هوميروس ربة الشعر ربة الوحي والالهام. العرب جزؤوا هذه القوة فلم يحصروها بإله واحد بل جعلوا لكل شاعر رئياً أو تابعاً يلهمه القول. من هنا اتهامهم للنبي أنه شاعر. . . **!﴿ويقولون إننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾**[2].

عبقر وشياطين الشعر:

نسب عرب الجاهلية كل أمر غريب عجيب إلى الجن، وتخيلوا أن «عبقر» واديهم ومقامهم، وقالوا في الأمر العظيم: عبقري، فلا عجب بعد هذا أن يصلوا الشعر بالجن، ولا عجب أن يتخيلوا أن لكل شاعر شيطاناً يلهمه قول الشعر «القريض» وقالوا: أن للشعر شيطانين، أحدهما مجيد واسمه الهَوْبَر، والآخر مفسد واسمه الهوْجل، وكانت عقيدتهم هذه حتى العصر الاسلامي، فقد روي أن رجلاً من تميم أتى الفرزدق وقال له: إني قلت شعراً فاسمعه قال: انشدني، فقال:

ومنهم عُمر المحمود نائله ... كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق، ثم قال: يا ابن أخي، إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر، والآخر الهوجل، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره، ومن انفرد

---

(1) الشعراء الآية 122.

(2) الصافات الآية 36.

به الهوجل فسد شعره، وقد اجتمعا لك في هذا البيت، فكان معك الهوبر في أوله فاجدت، وخالطك الهوجل في آخره فافسدت[1].

وقد سموا الشعر رُقَى الشياطين، قال جرير:

رأيت رُقَي الشيطان لا تستفزه   وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وقال آخر:

ماذا يظن بسلمى إذ يلم بها   مُرَجّلُ الرأس، ذو بُرْدَيْن وضّاح

خزّ عمامته، حلو فكاهته   في كفه من رقى الشيطان مفتاح

وصرح كثير منهم في العصر الجاهلي وفيما بعده، بأن شياطينهم تلهمهم أفانين القول، قال الراجز:

إني وإن كنت صغير السن   وكان في العين نبوٌّ عني

فإن شيطاني أمير الجن   يذهب بي في الشعر كل فن

التطير

﴿قالوا: اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون﴾[2].

إن من عادة الأقوام الجاهلة الجري وراء الخرافات والأوهام، فقد كان الواحد منهم إذا هم بأمر لجأ إلى طائر فزجره، أي اشار اليه مطارداً، فإن مر سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر، وإن مر بارحاً عن يساره إلى يمينه، تشاءم وتوقع الضر. وقد فصلنا ذلك في باب العادات والتقاليد. ومن بين هؤلاء ابن الرومي الشاعر العباسي الذي تطرف فأوغل في أوجاسه، وأبعد في أوهامه، حتى امتلأ خياله بالخرافات وأشبع تفكيره بأرجاس الجاهلية وأدران الحياة البدائية.

إن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا غيب تكل اليه ما تعرفه وما لا تقدر عليه، فتلجأ إلى الأوهام والخرافات والأساطير التي لا تقف عند حد.

---

(1) جمهرة أشعار العرب ص 30.

(2) النمل الآية 47 السيرة ج 1 ص 154 ـ تاريخ العرب ج 5 ص 310.

أما فيما يخص الأسرة في الجاهلية، يظهر لنا حالة من حالاتها البائسة في فك أواصرها. **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهم أمهاتكم وما جعل أدعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾**[1] كان الرجل يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي.

أي حرام محرمة كما تحرم عليّ أمي. ومن ساعتئذٍ يحرم عليه وطؤها ثم تبقى معلقة لا مطلقة فتتزوج غيره، ولا هي زوجته فتحل له. فالأسرة الجاهلية هي الصورة المصغرة عن المجتمع الذي لم يسلم من الأوهام الساذجة، تلك التي أضرت بها وعرقلت مسيرها في سلم التقدم. وكانوا يعتقدون أيضاً، أن أولادهم وأموالهم هي الوسيلة التي تقربهم من الله. والحقيقة أن تصرفهم في الأموال والأولاد هو الذي يقربهم من الله، وهو الذي يضاعف لهم في الجزاء، **﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعفاء﴾**[2].

الزجر والعيافة

الزجر والعيافة ان تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنواعها، فتتفاءل أو تتشاءم، والعائف المتكهن بالطير أو غيرها[3].

1 ـ وقد شاع في العرب، زجر الطير والوحش وإثارتها، فما تيامن منها سموه سانحاً، وما تياسر سموه بارحاً، وما استقبلهم فهو الناطح، وما جاء من خلفهم فهو القعيد[4]. وقد اختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤمهم بها، فمنهم من كان يتشاءم بالبارح، لأنه لا يمكن رميه إلا بالانحراف اليه، ويتبرك السانح، ومنهم من يرى عكس ذلك.

قال أبو عمرو بن العلاء: (سأل يونس رؤبة بن العجاج: ما السانح؟ قال: ما ولاك مياسره[5].

---

(1) الأحزاب الآية 4.
(2) سبأ الآية 37.
(3) القاموس المحيط مادة عاف.
(4) بلوغ الارب ج 3 ص 307 مقدمة ابن خلدون 121.
(5) العمدة ج 2 ص 203.

وحكى أبو عبيدة عن رؤبة أو البارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك فولاك مياسره والسانح ما يأتي من يسارك إلى يمينك[1].

ونقل عن المفضل الضبي أن البارح ما يأتي من يمينك إلى يسارك والسانح ما يأتي من يسارك إلى يمينك[2].

وإنما اختلفوا في الاصطلاح لأن الزجر وهم وخرافة تابع للمصادفة الصرف، فمن زجر طيراً وقضى لبانته تفاءل باتجاهها، ومن لم يقض حاجته تشاءم بهذا الاتجاه نفسه.

قال ابن دريد: أهل نجد كانوا يتيمنون بالسائح ويتشاءمون بالبارح، وأهل العالية على عكسهم. وقال أبو جعفر النحاس: السنيح عند أهل الحجاز ما أتى من اليمين إلى اليسار، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين، وهم يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح، وأهل نجد بالضد من ذلك، والسانح عند أهل نجد هو البارح عند أهل الحجاز وقال المبرد: السائح ما أراك مياسره، فأمكن الصائد، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له[3].

2 ـ وأهل التطير من الطير إذا مر بارحاً أو سانحاً أو رآه يتفلى وينتتف، ثم صاروا إذا رأوا الأعور من الناس والبهائم، أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فزجر الطير هو الأصل ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوه في كل شيء[4].

فهم إذاً بدأوا بالطير ثم انتقلوا إلى غير الطير من الحيوان، ثم جاوزوا الحيوان إلى ما يحدث في الجماد من كسر أو صدع مثلاً[5].

3 ـ وليس في الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه، وأبشع إخباراً، وأشنع أخباراً. فلما خصوا الغراب بهذا؟.

لعل سبب ذلك أمور ترجع إلى لونه، أو إلى عمله، أو إلى إسمه

---

(1) الأغاني ج 9 ص 157.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 318.

(3) العـدة ج 2 ص 203 والأغـاني ج 9 ص 157.

(4) الحيوان ج 3 ص 129.

(5) الحيوان ج 3 ص 135.

ونستطيع أن نستنبطها من قول الجاحظ: «وتطيروا بالغراب إذا كان أسود، ولاختلاف لونه إن كان أبقع، ولأنه غريب لا ينقطع اليهم، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم إلا عند مبايتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم، ولأنه ليس شيء أشد على ذوات الدّبر من إبلهم من الغربان، ولأنه ينقب عن الدبر حتى يبلغ إلى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب وفقار الظهر[1]. وقد بسط ولوعه بنقر قروح الابل في موضع آخر إذ قال إن العرب تسمي الغراب ابن داية. لأنه إذا وجد دبرة في ظهر البعير أو قرحة في عنقه سقط عليها ونقره وعقره حتى يبلغ الدايات، وإذا كان في ظهر البعير دبرة غرزوا في سنامه إما قوادم نسر أسود، وإما خرقة سوداء، لتفزع الغربان منه ولا تسقط عليه، وقد يوضع الريش علامة لجمال الملوك»[2].

وأشار إلى التشاؤم باسم الغراب بقوله ان اسمه قد اشتقت منه الغرابة والاغتراب والغريب[3].

لهذا جعلوا الغراب مثلاً في الشؤم حتى أنهم إذا ذكروا غيره ذكروا الغراب معه، وقد يذكرون الغراب وحده. وهم يتشاءمون بغيره من وجه واحد، أما هو فكثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدم في الشؤم[4].

وبلغ من بغضتهم له أن تحرزوا من التصريح باسمه، فكنوا عنه بالأعور، مع أنه مشهور عندهم بقوة الابصار وصفاء العين، فيقال «أصح بدناً من غراب وأبصر من غراب، وأصفى عيناً من غراب»[5].

وقد أكثر الشعراء من ذكر تشاؤمهم بنعيبه وشحيجه، قال عنترة: إن الغراب الأبقع قد أنذره بين أحبابه، وانه غراب كريه المنظر، منسول الريش، مولع بتفريق الأحبة، فكأن فكيه مقص يقطع الأواصر:

ظعن الذين فراقهم أتوقع   وجرى ببينهم الغراب الأبقع

---

(1) الحيوان ج 3 ص 136 الأبقع: فيه بقع. الدبر: جمع دبرة وهي القرحة. دايات العنق: فقراته.

(2) الحيوان ج 3 ص 129.

(3) المصدر نفسه ص 135.

(4) الحيوان ج 3 ص 137.

(5) الحيوان ج 3 ص 130.

حَرِقُ الجناح كأن لحي رأسه — جلمان بالأخبار هِش مولع
فزجرته ألا يفرخ طيره — أبداً ويصبح خائفاً يتفجع
إن الذين نعبت لي بفراقهم — هم أسهروا ليلي التَمامَ فأوجعوا[1]

وتوجس زهير ان يرتحل عنه أحباؤه لما سمع نعيق الغراب:

ألقى فراقُهم في المقاتلين قذى — أمسى بذاك غراب البين قد نَعَقَا

وكذلك توجس النابغة:

زعم العواذل أن رحلتنا غداً — وبذاك تنعاب الغراب الأسود[2]

وبقي التشاؤم بالغراب إلى ما بعد الاسلام، وما زال الناس يتشاءمون به إلى اليوم. قال عمر بن أبي ربعية:

نعب الغراب ببين ذات الدُمْلُج — ليت الغراب ببينها لم يَشْحج[3]

وقال جرير:

إن الغراب بما كرهت لمولع — بنوى الأحبة دائم التشحاج
ليت الغراب غداة ينصب دائباً — كان الغراب مقطع الأوداج

4 ـ على أنهم تشاءموا بطيور أخرى، منها الجراد «لأن فيه معنى الجَرَدَ، ولأنه ذو ألوان»[4] والجرد من معانيه القحط والمنع والتعرية والبلى[5]. وسوف نتحدث عن قصة النابغة وصاحبه لما خرجا للغزو فسقطت جرادة على أحدهما فتطير ورجع، ولم يعبأ الآخر فغنم وعاد.

وقد يتطيرون بالبازي والغراب والرَّخم والبومِ «وأشياء كثيرة من جهة التسمية ويتيمن بها آخرون»[6].

5 ـ وتشاءموا ببعض الحيوان كالثور الأعضب ـ المكسور القرن ـ والابتر

---

(1) ديوان عنتر ص 103 والحيوان ج 3 ص 16 حرق الجناح: منسول الريش متقطعة. اللحيان: جانبا الوجه. الجلم: المقص الكبير يفرح: تصير له فراخ.

(2) الأغاني ج 9 ص 157.

(3) يشحج: يصوت يقال شحج الغراب إذا غلظ صوته لكبر سنه.

(4) الحيوان ج 3 ص 136.

(5) القاموس المحيط مادة جرد.

(6) العمدة ج 2 ص 203.

ـ المقطوع الذنب ـ والقعيد ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر ـ والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش»[1].

قال الرماح بن أبرد:

جرى بانبات الحبل من أم جَحْدرِ ظباءٌ وطير بالفراق نَعُوب[2]

وهذه حادثة تاريخية تنبئ عن تشاؤمهم بالكلاب، ذكر الطبري أن السيدة عائشة سارت إلى البصرة لتشترك في موقعة الجمل، فلما مرت على ماء الحوأب نبحتها كلابه، فقالت هي ومن معها: أي ماء هذا؟ فقيل لها: ماء الحوأب، فصرخت السيدة بأعلى صوتها، ثم ضربت عقد بعيرها فأناخته، ثم قالت: «انا والله صاحبة كلاب الحوأب، طروقاً ردوني، تقول ذلك ثلاثاً. فأناخت وأناخوا حولها، وهم على ذلك وهي تأبى، فغالطوها وقالوا لها إنه ليس ماء الحوأب، حتى كان الغد فجاءها ابن الزبير فقال: «النجا، النجا» فقد أدركتم والله علي بن أبي طالب، فارتحلوا[3].

ويظهر أن العرب كانوا يتشاءمون بكلاب الحوأب إن نبحتهم، ويتفاءلون بها إن لم تنبحهم، وظل وهمهم هذا إلى ظهور الاسلام.

6 ـ واشركوا النبات مع الطير والحيوان، فتشاءموا بالضَرْب ـ شجرة حجازية ضخمة شائكة ـ والبان، والخِلاف ـ الصفصاف ـ ولعل السبب أنهم ربطوا بين أسمائها وما تدل عليه مادتها من غربة وبَيْن واختلاف. وربما نظروا إلى مرارة طعم الريحان ـ وهم يتفاءلون بالريحان فتشاء موابه[4]. ولم يقف تشاؤمهم عند هذا، فإنهم تشاءموا ببعض الأحداث، فإذا انكفأ من امرأة إناء وصب ما فيه تشاءمت واستعادت من ذلك بقولها: دافق خير. وتشاءموا بالعطاس قال امرؤ القيس:

وقد اغتدي قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجنب فعْم المَنطَّق[5]

يقول انه يبكر قبل أن يستيقظ الناس، حتى لا يسمع عطاسهم فيتشاءم

---

(1) المخصص لابن سيدة مواد الكلمات. البلدان ج 3 ص 356.

(2) الأغاني ج 2 ص 273.

(3) تاريخ الطبري ج 5 ص 71 ومعجم

(4) الحيوان للجاحظ ج 3 ص 142.

(5) فعم ممتلئ.

ويخيب وإذا استمع أحدهم عاطساً لا يعرفه، قال: بكلابي أسأل الله أن يجعل شؤمك بك لا بي[1].

7 ـ ولهم ضروب من التفاؤل أسلفت بعضها في أول الفصل.

على أنهم تفاءلوا بالهدهد إلى أبعد حد، لأنهم زعموا أنه كان يهدي سليمان عليه السلام إلى مواضع الماء في أعماق الأرض، وزعموا أن الله تعالى آثره بالقُنْزَعَة التي على رأسه مثوبة له على بره بأمه، لأنها لما ماتت جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة، ويروون قصيدة في ذلك لامية بن أبي الصلت أو غيره[2].

8 ـ ولكن الزجر لم يكن ضربة لازمة يدين بها الناس، فإنه وهم لا يستند إلى منطق الحوادث والعقل، إذ ندد به كثير من الشعراء، وسفهوا المتشائمين خاصة، لأن التشاؤم يدعو إلى الكف والاحجام، أما التفاؤل ـ على أنه وهم أيضاً ـ فإنه يدعو إلى الإنجاز والاقدام.

قال المرقِّم:

لا يمنعنَّك من بُغا ء الطير تعقيد التمائم
لا والتشاؤم بالعطا س ولا التيمن بالمُقاسم
وقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم[3]

ونصح أفنون بن صريح التغلبي من يزمع الرحلة ألا يثنيه زاجر الطير، ولا يعوقه الغراب ولا الوعول الآتية من الخلف:

يا أيها المزمع وشْكَ النوى لا يثنك الحازي ولا الشاحج
ولا وعول نَجَشَتْ كُدَّساً خارجها من غمرة والج[4]

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 366.

(2) الحيوان للجاحظ ج 3 ص 160.

(3) الأغاني ج 9 ص 157. المقاسم: من يقاسمك الوافي الصرد: طائر ضخم الرأس. الحاتم: الغراب حاتم: طائر.

(4) الحيوان ج 3 ص 139 الحازي: زاجر الطير الشاحج: الغراب. نجشت: ثارت. كدساً: الآتي من الخلف. والعرب تتشاءم به، غمرة: رعيل من الظباء يعني أن الذي يتخلف عنها يدركها سريعاً فيلج فيها لأنه عداء.

وافتخر ربيعة بن مقروم بان مقادته إلى الله، فلا يثنيه طير سانح، ولا يعوقه غراب، وهو على مذهب أهل العالية في تشاؤمهم بالسانح:

أصبح ربي في الأمر يُرْشِدُني إذا نويت المسير والطلبا
لا سانح من سوانح الطير يثنيـ ـني ولا ناعب إذا نعبا[1]

ويشاركه لبيد في إيمانه بالقضاء والقدر، وأن الغيب مفاتيحه بيد الله وحده:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل[2]

ولم يقتصر بعضهم على إنكار التطير ورفضه، بل زادوا على جحدهم له أنه شؤم على من يعتقده، لأنه إن لم يعوقه عن طلبه يزعزع ثقته ويبلبل عقله، قال علقمة بن عبدة:

ومن تعرض للضربان يزجرها على سلامته لا بد مشؤوم[3]

وروى أن النابغة خرج وزبان بن منظور الفزاري للغزو، فسقطت جرادة على النابغة فتطير وعاد، وأما زبان فمضى فظفر وغنم، فقال:

تَعَلَّم انه لا طير إلا على متطير، وهي الثبور
بلى، شيء يوافق بعض شيء أحايناً، وباطله كثير[4]

نرى أن في هذه الأبيات معنى جديداً وهو أن الطير لا أثر لها في خيبة أو نجاح، وما هي إلا مصادفات في بعض الأحيان، والمصادفة ليست سبباً ولا علة.

وهذا عوف بن عطية بن الخرع التيمي لا يعبأ، بالطير، يقول إنهم يقصدون البلاد ليهجموا وليغنموا، غير متوجسين من طير شراً حيثما اتجهت وكيفما طارت، سيان عندهم السانح منها والبارح:

نَؤمُّ البلاد لحب اللقاء ولا نتَّقي طائراً حيث طارا

---

(1) الحماسة للبحتري ص 257.
(2) حماسة البحري ص 257.
(3) بلوغ الارب ج 3 ص 327.
(4) العمدة ج 2 ص 202.

سنيحاً ولا بارحاً إن جرى ونرجو هناك بهن اليسارا[1]

كما افتخر حاتم بن عدي بانه ذو عزيمة، لا يثنيه عن قصده صرد ولا غراب:

وليس بهياب إذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم[2]

وكان من الطبيعي أن يكون شعراء الاسلام أكثر تنديداً بالزجر والزاجرين، لأنه يفتر العزائم، ويعوق عن الأعمال، ويكل الغيب إلى غير الله تعالى علام الغيوب، وهو كفر ظاهر، ومن ألطف ما قيل أبيات لأبي الشيص يبرئ فيها الغراب من الطيرة، ويقول: إذا كان الناس يتطيرون منه لأن اسمه قريب من الغربة، فأولى بهم أن يتطيروا بالأبل، لأنها مطايا الغربة والفرقة:

الناس يلحون غرا ب البين لما جهلوا
وما على ظهر غرا ب البين تُطْوَى الرِّحَل
ولا إذا صاح غرا ب في الديار احتملوا
ما فرق الأحباب بعـ ـد الله إلا الإبل
وما غراب البين إلا ناقةٌ أو جمل[3]

وكذلك فعل شعراء إسلاميون آخرون منهم الكميت، فهو على خبرته بعادات العرب وعقائدهم لم يجارهم في تشاؤمهم:

ولا أنا ممن يزجر الطيرَ هَمُّه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمرَّ صحيح القرن أم مرَّ أعضب[4]

ومن هؤلاء صابئ بن الحارث، فقد أعلن أن الانسان قد يتوجس شراً من أمر لا خير فيه. والرجل الذي لا يوطن نفسه على تحمل رزايا الدهر إنما هو رجل ضعيف العزيمة:

وما عاجلات الطير تُدني من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب
ورب أمور لا تَضيرك خَيْرة وللقلب من مخشاتهن وجيب

---

(1) الحيوان ج 3 ص 135.
(2) المصدر نفسه حاتم: الغراب. الواقي: الصرد.
(3) العمدة ج 2 ص 201.
(4) المصدر نفسه ونسبها الألوسي إلى صابئ بن الحارث البرجمي ج 3 ص 323.

ولا خيـر فيـمـن لا يـوطـن نـفـسـه على نائبات الدهر حين تنوب[1]

والمراد بعاجلات الطير تلك التي تمر أمام الزاجر أول ما يبصر، فإن أبطأت عليه وزجرها فقد راثت، والأول محمود والثاني مذموم.

كان بعض العرب يتقولون على القرآن وعلى الرسول، فيتوهمون أن النبي شاعر وان له رئيا من الجن، يأتيه بالقول الفائق، أو أنه كاهن يتصل بالجن وهم يمدونه بعلم ما وراء الطبيعة. وهنا هو سر الاختلاف بينهم وبين الرسول فلم يفرقوا تفريقاً صحيحاً ولم يميزوا تميزاً دقيقاً. لذلك كنا نرى ما للكاهن من اعتبار وتأثير على الناس وما للكهانة من دور يذكر فعن طريقها كانوا يعلمون علم الغيب، وبواسطتها يتنبأون عن مستقبلهم الغامض المحفوف بالأوهام والتخيلات **﴿انه لقول رسول كريم وما بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون﴾**[2].

الكهانة:

وكانت الكهانة تقوم على القدرة الشخصية، وعلى ذكاء الكاهن وكان بامكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب، والتحدث عما سيحدث للسائلين، أن يدعي الكهانة وأن يعد نفسه كاهناً، يتكلم باسم الأرباب وينطق بالقوة الخفية، يقصده الناس إلى معبده ويؤلف لهم ما شاءت قريحته من خرافات وأقاويل. والكاهن وان كانت وظيفته التنبؤ وفعل المغيبات، هو طبيب كذلك يصف الدواء للمرضى بعد أن يستشير التابع، وقد اشتهر في الجاهلية عدة كهان ذكر الأخباريون أسماءهم.

منهم شق وسطيح[3] وللأخبارين عنهما قصص أخرجتهما من عالم الواقع إلى عالم الخرافة فشق في زعمهم إنسان له يد واحدة، ورجل واحدة وعين واحدة، وجعلوه على صورة نصف آدمي، وذكروا أنه كان معاصراً لمالك بن نصر اللخمي، وانه استدعاه واستدعى سطيحاً معه، لتفسير رؤيا رآها أفزعته.

---

(1) بلوغ الارب ج ج 3 ص 326.

(2) الحاقة الآية 41 و42 الطور 29.

(3) تاج العروس 9 ص 396. تاريخ العرب ج 5 ص 194.

وقالوا: أن سطيحاً كان كتلة من لحم، يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة، وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، وكان في عصره من أشهر الكهان[1] هذا كله من قصص الأخباريين. واليوم نجد الكثير ممن يعتقد بالتبصير بالفنجان وقراءة الكف والتنبؤ بالمستقبل وأبراج الحظ مثل[2].

النذور في الجاهلية:

ونقطة أخرى يجدر بي ذكرها، ألا وهي النذور التي بلغت حداً بعيداً عند الجاهلين، وما زالت حتى اليوم. لقد تبين لي من دراسات النذور عند الشعوب البدائية، فرأيت أنها نتيجة حاجة وتصور الانسان أن بامكانه التأثير على آلهته بهذه النذور، فيجعلها تميل إلى إجابة طلبه، وحل مشكلاته، وذلك بتقديم مطالب مغرية وهدايا سارة، يفرح بها الاله كما يفرح الانسان، فيعد الهدية نوعاً من التقرب والتحبب، وأما الحاجات التي كان يرجو الناذرون تحقيقها، فهي على الغالب الحصول على ثروة أو صحة أو نصر. والناذر على يقين بالطبع من أن الاله الذي نذر له النذر، قادر على تحقيق ذلك والا لما تقدم اليه بهذا النذر. وما زلنا حتى اليوم في غمرة هذه الأوهام والتصورات الجاهلية. فقد حدث لي أن زرت صديقاً لي، له زوجة مريضة مرضاً نفسياً، ولد لها عقدة نفسية فشلت أعصابها وانهارت قواها. وبعد أن فشل الأطباء في معالجتها، وفرغت جيوب زوجها، عمدت هي شخصياً إلى تحليل المرض فظنت أن السبب هو عدم وفاء نذر، تعهدت به إلى كبار القديسين، منذ زمن بعيد، وهي تظن أنها تشفى من مرضها بعد تقديم النذر (ألا وهو أسوارة من ذهب) وقد حققت حلمها ووفت نذرها، وزال الوهم من نفسها، ولكن لا ندري إن كان حل مكان العقدة المذكورة، عقدة جديدة، ونذور جديدة؟!

موقف الجاهلين من البعث:

أما موقف الجاهلين من البعث، فقد كان موقفاً سلبياً، أشار إليه القرآن

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 278.

(2) ماغي فرح في كتابها «الأبراج» وسلوى ماجد «أبراج الحظ» 1996 م.

الكريم بالآيات التالية ﴿وقالوا ان هي حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾[1] ثم ﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت بل وعدا عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2] وقالوا: ﴿إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنّا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً ما يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعيدنا، قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً﴾[3] .

وقد ذكر الأخباريون أن قوماً من قريش كانوا زنادقة، ينظرون إلى العالم الثاني نظرة عدم اهتمام أو اكتراث، يتجلى هذا الانكار للحشر والبعث في أبيات تنسب إلى شداد بن الأسود بن عبد شمس، يرثي بها قتلى قريش يوم بدر إذ ورد فيها:

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام؟[4]

أراد الشاعر بهذا البيت إنكار البعث وأن يصير الانسان مرة أخرى إنساناً بعد أن تتحول روح الانسان إلى طير[5] .

غير أن فريقاً من الجاهلين كان يؤمن بالبعث وبالحشر، بعد الموت ونستشهد على ذلك بالعقيرة.

وتسمى البلية، ويقصدون بذلك عقر ناقة أو جمل أو شاة عند قبر الميت، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً. ويذكر أيضاً أنهم كانوا يعقرون رأس الناقة أو الجمل ويشدونه إلى الوراء بعد عقر إحدى القوائم كي لا يهرب، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً. ذلك أنهم كانوا يرون أن الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة إذا لم تعقر مطاياهم عند قبورهم[6] .

يقول مطرود بن كعب الخزاعي:

---

(1) الأنعام الآية 29.
(2) النحل الآية 38.
(3) الاسراء الآية 49 و50 و51.
(4) بلوغ الارب ج 1 ص 345.
(5) بلوغ الارب ج 2 ص 199 ـ السيرة ج 1 ص 29.
(6) تاج العروس ج 10 ص 43.

يا عين فابكي أبا الشعث الشجيات[1]   يبكينه حسراً مثل البليات[2]

وعندما تشاورت قريش في الرجوع عن القتال، بعثت عميرٍ بن وهب ليحزّر أصحاب النبي فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع[3].

وقد وردت أبيات أيضاً عند لبيد بن ربيعة تحمل هذه التفسيرات يقول:

تأوي إلى الأطناب كل رذية   مثل البلية، قالص أهدامها[4]

عقر الابل على القبور:

ورد معنا أثناء هذا البحث أن العرب في الجاهلية كانوا يعقرون الابل على قبر الميت، وقد اختلف الباحثون في الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك.

قال ابن السيد فيما كتبه عن كتاب الكامل للمبرد: قال قوم انهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الابل في حياته لضيفاته، واحتجوا بقول زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب:

فإذا مررت بقبره فاعقر به   كوم الجلاد وكلَّ طِرْف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها   فلقد يكون أخا دم وذبائح[5]

وقال آخرون أنهم كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام. وقيل انهم فعلوه لأن الابل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت، فكأنهم يثأرون لهم منها. وقيل أن الابل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بعقرها أنها قد هانت عليهم لعظم المصيبة. وقد ظلت هذه العادة إلى أن جاء الاسلام

---

(1) الشجيات: الحزينات. طرفة بن العبد ص 63 سطر 68.

(2) السيرة ج 1 ص 140 البيت 16.

(3) النواضح الابل السيرة ج 10 ص 622.

(4) المجاني الحديثة ص 112 سطر 76 ج 1 ـ تأوي: تنضم. الأطناب جمع طنب: حبل الخيمة. الرذية: المرأة التي قد أرذأها أهلها أي ألقوها وأراد بها الأرملة الفقيرة.

القالص: المرتفع. الأهدام: جمع هدم وهو الثوب الخلق. أي يأوي إلى منزل كل أرملة فقيرة بالية الثياب تشبه الناقة البلية في عجزها عن الكسب وامتناع الرزق منها.

(5) الكامل للمبرد ج 2 ص 258 وبلوغ الأرب ج 3 ص 326.

بشريعته العدل وذلك بالحديث الشريف: «لا عقر في الاسلام» وإني أرى أن العقر كان تكريماً للميت وإشهاراً لفضله بين الناس، وتباهياً بما نحر بنوه على قبره من ذبائح لاطعام الفقراء والمحاويج. أما اليوم فإننا نذبح الخراف أمام ضيف أو غائب عزيز علينا تكريماً له وتقديراً. ثم لم يكن الذبح موقوفاً على النوق، بل كانت تذبح الخيل أيضاً.

وشاهدنا على صحة ما ملت إليه، عند ابن الأشيم الفقعسي حيث يوصي ابنه أن يعقر على قبره، ودعا عليه بالفقر إن لم يعقر يقول:

إذا مِت فادفنّي بحراء، ما بها ... سوى الأصرخين، أو يُفَوِّز راكب

فإن أنت لم تعقر عليَّ مطيتي ... فلا قام في مال لك الدهر حالب

ولا تدفِنّي في صُوىً، وادفنني ... بديمومة تنزو عليها الجنادب

ومما يظهر أن النوق كانت تتهيب الذبح إذا ما رأت قبراً، لأنها نظرت غيرها يذبح عليه، أو لأنها تتهيب الدم أو أن الشاعر تخيل هذا وصوره قال شاعر مر على قبر ربيعة بن مكرم:

نفرت قلوصي عن حجارة حَرَّة ... بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفري يا ناق منه، فإنه ... شريب خمر، مسعر لحروب

ضرب الثور إذا عافت البقر الماء:

ومن أساطير العرب في الجاهلية ضربهم للثور إذا عافت البقر للماء. فكانوا إذا أوردوها ولم تشرب إما لقلة العطش وإما لكدر الماء، ضربوا الثور ليقتحم الماء، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشَّوّلَ الضحل، وكما تتبع أُتنُ الوحش الحمار، فقال في ذلك أنس بن مدرك في قتله سليك بن السلكة:

إني وقتلي سليكاً ثم أعْقِلَهُ ... كالثور يضرب لما عافت البقر

وقال الهيبان الفهمي:

كما ضَرب اليعسوب أن عاف باقر ... وما ذنبه ان عافت الماء باقُر[1]

(1) معجم الشعراء ص 489.

ولما كان الثور أمير البقر وهي تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه باسم أمير النحل.

وقيل انهم كانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء، لتمسك البقر عن الشرب حتى تهلك.

قال الأعشى في ذلك:

فاني وما كلفتموني وربكم — لأعلم من أمسى أعقّ وأحوبا
لكالثور والجنيّ يُضرَبُ ظهرُه — وما ذنبه ان عافت الماء مشربا
وما ذنبه إن عافت الماء باقر — وما إن تعاف الماء إلا ليُضربا[1]

فكأنه قال: إذا كان يضرب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنها انما عافت الماء ليضرب.

وعجب النابغة الذبياني من أن تلقي عليه جريرة لم يقترفها، وشبه حاله بحال الثور المظلوم يضرب لأن البقر لا ترد الماء:

أتترك معشراً قتلوا هذيلاً — وتعقبني بما فعلت حُدام
كذلك يُضرب الثور المعنيّ — إذا ما عافت البقر الخِيَام[2]

وأشار بعض الشعراء إلى ذعر البقر من الماء، وإلى ضرب الثور وهو غير متعص على الورود:

فلا تجعلوني كالبعير وفحلها — يكسّر ضرباً وهو للورد طائع
وما ذنبه إن لم ترد بقراته — وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

فهل لذلك من سبب؟

زعموا أن الجن تصد البقر عن الماء، وان الشيطان يركب قرني الثور، فكأنهم بضرب الثور يطردون الجن منه. ولا أرى هذا التعليل مقبولاً فالبقر شأنها شأن إناث الحيوان مع ذكرانه، تقتدي بالثور وتحاكيه، فإذا ورد الماء وردت معه. ولكن الذي لا أجد له تعليلاً ما قيل من أنهم كانوا يضربون الثور بعدما ورد الماء وشرب لتشرب البقر عند ضربه، وأرجح أن هذه مبالغة من قصاص العادات، أو أنها مجافاة لفهم النصوص.

---

(1) الحيوان ج 6 ص 53 وبلوغ الارب ج 2 ص 303.

(2) حماسة البحتري ص 353.

وبعد فهل لنا أن نقرأ الماضي قراءة مستجدة واعية!!

التصفيق وقلب القميص:

عاش عرب الجاهلية في الصحراء وهم على دربتهم بها وممارستهم لمسالكها، قد يضلون فإذا ما ضل أحدهم في فلاة قلب قميصه، وصفق بيديه كأنه يومئ إلى إنسان يهديه[1]؟

ولم يذكر أحد تعليلاً لهذا العمل، وعلى ما أرى، فلعل منشأه أن الرجل يريد أن يسلي نفسه بسماع صدى يديه، أو يتوهم أن إنساناً يسمع تصفيقه فيسرع إليه ليعينه:

وأما قلب القميص فللتفاؤل بتغير الحال. وقد جاء ما يشبه هذا في الاستسقاء ذكر القلقشندي أن الرجل كان يحبس ناقته ويصيح في أذنها كأنه يومئ أي إنسان، ثم يحركها ويزعم أنها تهتدي إلى الطريق[2] ولكن الشعر المروي ليس فيه ذكر الناقة، وإنما في قلب الثوب والتصفيق.

قال أعرابي:

قلبت ثيابي والظنون تجول بي ... وترمي برجل نحو كل سبيل
فلأياً بلأي ما عرفت جليتي ... وأبصرت قصداً لم يصب بدليل

وقال أبو العملّس الطائي:

فلو أبصرتني بَلَوى بطان ... أصفق بالبنان على البنان
فاقلب تارة خوفاً ردائي ... وأصرخ تارةً بأبي فلان
لقلت أبو العملّس قد دهاه ... من الجنان خالعة العنان

وقال الشاعر:

وآذن بالتصفيق من ساء ظنه ... فلم يدر من أي اليدين جوابها

(لا تبعد):

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 349.

(2) صبح الأعشى ج 1 ص 405.

إن مجتمعاً هذا وضعه، لا يستبعد أن يدور في فلكه هذه الاسطورة التي تقول ان الميت عند وضعه في قبره، يقال له لا تبعد. أي أنه وان ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفي قلوبهم، ولعل هذا التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصة مما كانوا يأكلونه ويشربونه، ويسمونها باسم الميت وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندها وضرب الخيام حولها، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمه وتحيته، لأن روح الميت في رأيهم حية لا تموت، ولهذا كانوا يسقونها بصب الماء على القبر. قال أحد الشعراء:

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني
وأين مكان البعد إلا مكانيا[1]

أما ابن الرومي الشاعر العباسي الذي تفطر كبده على ابنه، وكان على يقين أن السقيالا تجدي نفعاً للميت ومع ذلك، لم يطق صبراً حتى قال: مقلداً:

سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
وان كانت السقيا من العين لا تجدي

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 14.

الفصل الثاني

الأساطير الخيالية

تصورهم للشيطان:

يظهر من نقد هذه الأسطورة التي وردت في أشعار الجاهلية، انها من أثار العقائد الجاهلية في الجن. وقد اتخذت مثلاً لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره. واعتقادهم أن الشيطان يركب قرني الثور، هو الذي جعلهم يتصورون أن الثور يتقدم البقر في شرب الماء ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه، فلا يخشى الثور من الجن والشيطان أخبث أنواع الجن.

وقد حلت الأرض محل الشيطان في أسطورة شاعت بين العوام فأخذت مكانه من قرني الثور، وسار الرأي أن الأرض تنتقل في أول يوم من كل سنة من قرن إلى قرن، وبذلك يعللون دورة الأرض وحدوث عام جديد وقد ذكر أن كلمة شيطان تعني الحية فقد ظهر الشيطان على صورة الحية خدعت أبوينا آدم وحواء في الجنة؛ والحية عند أكثر الشرقين رمز يشير إلى الثورة والعصيان والشر. وهذه الفكرة هي من اسطورة شرقية قديمة عن سقوط البشرية في الشر. وتتمثل في سقوط آدم وحواء وطردهما لذلك من الجنة[1].

وقيل من معاني كلمة شيطان الخبث، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له: شيطان. فالفكرة كانت معروفة قبل التسمية. وهذا التعليل من تلك التعليلات التي يرجع إليها علماء اللغة كلما أعياهم الوصول إلى الحقيقة.

---

(1) تاج العروس ج 9 ص 253 شطن.

الذبيحة في الجاهلية:

ذكرنا أن الانسان في حالة الفشل يعمد إلى خلق الأقاويل ليحتمي بها ويعلل الوقائع. تعليلاً خاصاً، فيضيع في بعيد خياله، ويفسر الأمور بالشكل الذي يريد ويرغب فيظن مثلاً أنه يستطيع التغلب على النحس، وشؤم ناصية المرأة، وعتبة الدار، بالذبائح في بعض الأحيان. ولهذا جرت العادة بذبح ذبيحة عند زفاف العروس إلى بعلها ووصولها إلى عتبة بيته، طرداً للأرواح الشريرة وإرضاء لها. كما جرت العادة بذبح الذبائح عند الانتقال إلى دار جديدة، أو حين الشعور بوجود أرواح شريرة فيها، ويقال لهذه الذبائح ذبائح الجان.

وما زلنا حتى اليوم نذبح أثناء الزفاف، أو عند استقبال رجل عظيم، ولا ندري الدافع إلى القيام بمثل هذا العمل. وقد شهدت مرة عند استقبال رئيس قرب المطار هنا في بيروت، يذبحون الخراف على جانبي الطريق ترحيباً بالضيف الكبير. مع العلم أن الرئيس الضيف سوف لا يتناول من لحم تلك الذبائح ولكنها عادة سرنا عليها منذ زمن بعيد ويصعب علينا الآن تركها أو تغييرها، إذ ليس من السهل تغيير العادات والتقاليد في زمن يسير.

التثاؤب والعطاس:

ويدخل في هذا الحقل الخصب للخرافات الاجتماعية، ما يصدر عن الانسان والحيوان من حركات مثل التثاؤب والعطاس[1]. ويروي أن التثاؤب عمل من أعمال الشيطان[2] أما في بعض المناطق الريفية هنا في لبنان، يعتبرون الرجل المتثائب رجلاً وضيعاً لا يحترم حقوق نزيله، ولا يراعي حرمة الضيافة. فهذه الحركة في نظرهم هي حركة شيطانية. وأما العطاس فقد كان أثره في إيجاد الشؤم شديداً، وهو من العادات الجاهلية المذكورة في الشعر المنسوب إلى الجاهلين. ذكر ان امرأ القيس قال:

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل   شديد منيع الجنب نعم المنطق

---

(1) تاج العروس ج 2 ص 138.

(2) تاج العروس ج 2 ص 138 ـ ثئب ـ تاريخ العرب ج 5 ص 325.

وأراد بذلك أنه كان يتنبه للصيد، قبل أن يتنبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم ولا يوفق في صيده. وفضلاً عن ذلك كانوا يظنون أن في العطاس مرضاً، عليهم تجنبه قدر المستطاع. ويروى أنه كلما كانت العطسة شديدة كان التشاؤم منها أشد. وأشأم الطيور عند الجاهلين الغراب. ليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه[1].

تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ:

ومن خرافات العرب في الجاهلية أنهم كانوا يعلقون الحلى والجلاجل على اللديغ، زاعمين انه يفيق، وذلك لأنهم أرادوا شغله بصلصالها حتى لا ينام فيسري السم فيه فيهلك على زعمهم.

قال العتيبي: كانوا يجعلون الحلى في يد الملدوغ ويحركونها لئلا ينام فيدب فيه السم، وقيل لبعض الأعراب: أتريدون أن يسهر؟ فقال: أن الحلى لا تسهر؛ ولكنها سنة ورثناها أو هم زعموا أن حلى الذهب تبرئه، وحلى الرصاص تميته[2].

قال عويمر النبهاني:

فبت مُعَنى بالهموم كأنني　　سقيم نفى عنه الرقاد الجلاجل

وقال آخر:

كأني سليم سهَّد الحَلْى عينه　　فراقب من ليل التمام الكواكبا[3]

وقال النابغة:

فبت كأني ساورتني ضئيلة　　من الرقش في أنيابها السم ناقع
تُسَهَّد من نوم العشاء سليمها　　لحلى النساء في يديه قعاقع[4]

وشبه بعض بني عذرة أثر الحب في أنفسهم بالسليم المحلى:

(1) تاج العروس غرب ـ قال رؤبة فازجر من الطير الغراب الغاريا.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 336.

(3) ليل التمام ليل الشتاء الطويل.

(4) المخصص ج 4 ص 41.

كأني سليم ذله كَلْمُ حبه ترى حوله حَلى النساء مُوَضَّعا

وازدرى بعضهم هذه العقيدة فقال:

وقد عللوا بالبطل في كل موضع وغُرُّوا كما غُرَّ السليم الجلاجلُ

وأشار بعض الشعراء الاسلاميين إلى هذه العادة فهذا جميل بثينة يرى عكس ذلك اذ أن حلي بثينة أضناه وأسقم فؤاده، فابدل له الشفاء بالداء قال جميل:

إذا ما لديغ أبرأ الحَلْيُ داءه فحليك أمسى يا بثينة دائيا

تمائم للوقاية من الحسد:

يتفشى في الأمم البدائية والشعوب الجاهلة ربط المسببات بغير أسبابها الطبيعية فيؤمن الناس بالسحر، ويعتمدون على التمائم في النفع ودفع الضر، وقد دان العرب بالتمائم ونوعوها، قال رقاع بن قيس الأسدي:

أَحَبُّ بلاد الله ما بين منعج إلي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمي وأول أرض مسَّ جلدي ترابها[1]

ومن تمائمهم:

تعليق كعب الأرنب:

كانوا يعلقون على أجسامهم كعب الأرنب، لاعتقادهم أنه وقاية من السحر، وأن الجن تنفر من الأرنب لأنها تحيض[2]. وقال ابن الاعرابي: «قلت لزيد بن كثوة: أتقولون أن من علق عليه كعب أرنب لم تقر به جنان ولا عمّار الحي؟ قال: إي والله، ولا شيطان الخماطة ولا جار العُشَيْرةَ، ولا غول القفز»[3] قال امرؤ القيس:

---

(1) الأمالي ج 1 ص 53.

(2) صبح الأعشى ج 1 ص 406.

(3) بلوغ الارب ج 2 ص 358 والعمار: الجن التي تسكن مع الناس. الخماطه: شجر شبيه بالسدر أو كل شجر لا شوك له أو كل شجر له شوك: العشيرة: الصغير العشرة: شجرة جيدة النار.

أيا هند لا تنكحي بُوهَةً عليه عقيقته أخسبا
مُلسّعة وسط أرساغه به عسم يبتغي أرنبا
ليجعل في ساقه كعبها حذار المنية أن يعطبا[1]

تعليق سن الثعلب وسن الهرة وحيض السمرة:

وزعموا أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة وعلق عليه شيء من هذه سلم، وإن الجن إذا رأته لم تقدر عليه. قالت امرأة تصف ولداً:

كانت عليه سِنّة من هرة وثعلب، والحيض حيض السّمرة

وقد امتدت بهم الخرافة إلى زعمهم أن جنية أرادت صبياً فلم تقدر عليه، فلامها الجن في ذلك، فقالت تعتذر اليهم:

كان عليه نفرَه ثعالب وهررة والحيض حيض السمرة[2]

تعني أنه كان يحمل ما ينفرها من التعرض له.

الهامة والصدى:

هذه الخرافة على ما أرى، مبعثها ولوعهم بالثأر، وأي تحريض على الثأر أقوى من زعمهم أن القتيل الذي لم يؤخذ بثأره، يخرج من هامته طائر يسمى الهامة، فلا يزال يقول: اسقوني! اسقوني، حتى يقتل قاتله فيسكن؟[3].

يقول المسعودي: إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط في الجسم، فإذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يكون كضرب من

---

(1) حماسة البحتري ص 189. البوهة: الرجل الأحمق. العقيقة: غرلة الصبي وشعر كل مولود من الناس والبهائم. الاحسب: من أبيض جلده من داء فصار أبيض وأحمر هو الأبرص. الملسعة: المقيم في داره لا يبرحها. العسم: يبس يصيب مفصل الرسغ فتعوج القدم والكف.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 358 والعمار: السمرة: ومن شجر الطلح، وحيضها شيء يسيل من السمر كدم الغزال.

(3) بلوغ الارب ج 2 ص 311.

البوم، وهو أبداً مستوحش يسكن في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور، وانها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده فتخبره به[1].

قال شداد بن الأوس بن عبد شمس في رثاء كفار قريش يوم بدر:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام؟[2]

وقال شاعر لابنه يوصيه أن يثأر له ان قتل حتى لا تنادي هامته بالسقيا لأن العطش إنما هو بأبيه لا بالهامة، واهمال الثأر مصيبة كبرى يبيض الرأس منها:

ولا تَزْقُوَنْ لي هامةً فوق مَرْحَب فإن زقاء الهام للمرء عائب
تنادي الا اسقوني، وكل صدى به وتلك التي تبيض منها الذوائب

وقال ذو الأصبع العدواني مهدداً ابن عمه المبغض له:

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني[3]

واستعطف عبيد بن الأبرص جُحْراً لما طرد بني أسد إلى تهامة بقصيدة قال فيها إن الوديان ملأى بتوجع المنكوبين وآهات المحروقين وأصوات الهام:

في كل واد بين يتـ رب فالقصور إلى اليمامة
تطريب عان أو صيا ح محرّق أو صوت هامة[4]

وقد عيروا بترك الثأر، وعبروا عن ذلك بأن الهامة تطالب بثأر القتيل، قال مفَلس الفقعسي:

وإن أخاكم قد علمت مكانه بسفح قبا تسقى عليه الأعاصر
له هامة تدعو إلى الليل جَنْبها بني عامر هل للهلاليّ ثائر؟

أما الصدى فمن معانيه أنه طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلى، كما يزعم العرب، ويظهر أنهم أطلقوه على غير القتيل فيما بعد كما يتضح من النصوص.

---

(1) مروج الذهب ج 1 ص 251.
(2) مروج الذهب ج 1 ص 251.
(3) بلوغ الارب ج 2 ص 311 وج 1 ص 345.
(4) المصدر نفسه.

قال حاتم:

أما ريٌ إن يصبح صداي بقطرة   من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
تَرَى أن ما أنفقت لم يك ضرني   وأن يدي مما بخلتُ به صِفر[1]

وقد ظل هذا من تخيلات العرب بعد الاسلام، مما يدل على أصالته في نفوس العرب قال توبة:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   عليَّ ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا   إليها صدى من جانب القبر صائح

وقال قيس بن المُلَوَّح:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا   ومن دوننا رمس من الأرض أنكب
لظل صدَى رمسي - وإن كنت رمة -   لصوت صدى ليلى يهَشُّ ويطرب

وقال جميل بن معمر:

يهواك ما عشتُ الفؤاد فإن أمت   يتبع صداي صداك بين الأقبُر

وذكر الجاحظ أن الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعي إليه ضعف وليه وعجزه وهذا ما كانت العرب تقوله في الجاهلية، وأورد للنمر بن تولب:

أعاذل إن يصبح صداي بقفرة   بعيداً فآتي صاحبي وقريبي
ترى أن ما أبقيت لم أك ربَّه   وإن الذي أنفقت كان نصيبي[2]

الرَّتم:

لكن للكلمة معنى آخر ورد في المادة نفسها، هو أن الرتمة خيط يعقد في الاصبع للتذكر، وجمع الكلمة رَتَم، فالرتم كالرتيمة واحدة الرتائم والرتائم والرتام، والمستذكر بالرتائم مستهدف للشتائم[3]. والنصوص التي وردت لا تجافي هذا الرأي، بل كلها صالحة لأن تفسر به. قال الشاعر:

لا تحسبنَّ رتائماً عقدْتها   تنبيك عنها باليقين الصادق

---

(1) شعراء النصرانية الأب لويس شيخو ص 110.
(2) البيان والتبيين ج 1 ص 284.
(3) القاموس المحيط مادة رتم.

وتطرق شاعر في قوله أن فلاناً يعلم أن ظبيه مسْتَحَلّ، ولكنه يخدع نفسه ويعللها بالرتائم:

يعلل عمرو بالرتائم قلبه وفي الحي ظبي قد أُحِلَّت محارمه

وقال آخر لا حياً على رجل من العرب أخذ يوصي قبل سفره ويعتقد في الرتم:

هل ينفعنك اليوم ان هِمْتُ بهم كثرة ما توصى وتَعْقَادُ الرَّتَم[1]؟

فالرتمة في هذه النصوص هي الخيط المعقود في الاصبع للتذكير، وهذا فعل المحبين، يعقد كل منهم في إصبع الآخر خيطاً ليذكره دائماً بمن يحب ويوحي إليه بالوفاء.

واليوم هل تغير عصرنا عن عصر الجاهلية؟ وهل نجد أثراً لمثل هذه الخرافات الواهية؟ الحقيقة أننا نصادف شبهاً لهؤلاء النوع من البشر الذين عاشوا من قرون خلت. فالتغيير يعود إلى الفكر أولاً ومن ثم إلى النفس. ومن الفكر والنفس تتفتح الآفاق الجديدة وتتفتق الآراء المستنيرة بنور المنطق ودفء الحقيقة. لا يغير الله ما يتقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. من أوهام وأباطيل ويقرأوا الماضي قراءة جديدة واعية وعلى ضوء هذه القراءة يتفهمون حاضرهم ويدركون واقعهم بعين مبصرة وبصيرة مستيقظة حية. وبعد يسهل عليهم بناء مستقبلهم المشرق الخير.

أما إذا أراد البدوي السفر ويكون في مأمن على عرضه، عمد إلى غصن شجرة، فعقده، فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط المعقود، فإن وجده على حاله علم أن زوجته لم تخته، وان وجده محلولاً، قال: قد خانتني. وذلك العقد يسمى الرتم. قال أحدهم يصف شيخاً: خانته زوجته مرات عديدة وفي كل مرة تحلف له فيصدقها.

خانته لما رأت شيباً بمفرقه وغَرَّهُ حَلْفُها والعَقْدُ للرتم[2]

كيف لا يصدقها والرتم على حاله هل يكذبها أم يكذب الرتَم؟

(1) معجم البلدان ج 4 ص 225 وبلوغ الارب ج 2 ص 316.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 311 ـ تاريخ العرب ج 5 ص 168.

وقال آخر:

مـا الـذي تـنـفـعـك الـرتـائـمُ إذْ أصـبـحـت وعـشـقـهـا مـلازم
وهــي عــلــى لــذاتــهــا تــداومُ يــزورهــا طـبُّ الـفـؤاد عـازم[1]

لم تقف الرتائم حجر عثرة في طريق العاشقين، مع وجود الظروف القاسية في الحياة الجاهلية ولم يتوصل معتنقوها إلى حد مفيد مع تمسكهم الأعمى وايمانهم الضعيف.

وطء المقلاة دم الشريف:

وقد زعموا أن المرأة التي يعيش لها ولد إذا وطئت دم الشريف عاش ولدها. أو هو خاص القتيل الشريف سواء قتل غدراً أو قوداً. وقال ابن الاعرابي: يمرون به ويطئون حوله. وقال أبو عبيدة: تتخطاه المقلاة سبع مرات، وهذا معنى وطئها له[2].

وشبيه بهذا ما حدثني عنه أحد الاساتذة المصريين عما تفعله بعض النساء الجاهلات في مصر من تخطيهن القتيل للبرء من العقم قال بشر بن أبي حازم:

تـظـل مـقـالـيـت الـنـسـاء يـطـأنـه يَقُلْنَ: ألاَ يُلقى على المرء مئزر؟

وقال الكميت متأثراً بهذه العقيدة، أو لعلها ظلت إلى عهده، في مدحه الحسين بن علي:

وتـطـيـل الـمـرز آت الـمـقـالـيـت إلـيـه الـقـعـود بـعـد الـقـيـام

وقال آخر:

تـركـن (الـشّـعـثـمين) برمـل خَـبْـتِ تـزورهـمـا مـقـالـيـت الـنـسـاء[3]

وقال آخر:

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 317 ـ والطب هو الماهر الحاذق بعلمه كالطبيب.
(2) بلوغ الارب ج 2 ص 318.
(3) المصدر نفسه ص 318.
الشعثمين: شعثم وشعيث ابنا معاوية بن ثعلبة وخبث المطمئن من الأرض فيه رمل.

بنفسي الذي تمشي المقاليت حوله يطأن له كشحاً هَضباً مُهَشما

وقال آخر:

تباشرت المقاليت حين قالوا ثوى (عمر بن مُرّة) بالحَفير

وقال ابن السكيت يصف مذهباً من مذاهب العرب في الجاهلية: ان العرب كانت تقول: ان المرأة المقلاة هي التي لا يعيش لها ولد حتى تطأ القتيل الشريف، يعيش ولدها.

سقوط السن[1]:

ومن تخيلات العرب وخرافاتهم، أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سن، أخذها بين أصابعه وقذف بها إلى أعلى، مستقبلاً الشمس إذ طلعت قائلاً: يا شمس ابدليني بسن أحسن منها. أما اليوم فقد سمعت أحد الصبيان يقذف بسنه منادياً الشمس: يا شمس خذي سن الحمار وأعطني سن الغزال. وكم يأسف وكم يحزن الذي يغلط ويلفظ العكس!!

شفاء المجنون، تعليق الأقذار النجسة:

ومن خرافاتهم الجاهلة اعتقادهم أن تعليق الأقذار النجسة وقاية من العين والجن والأرواح الخبيثة، واشندوا للمزق العبدي:

ولو كنتُ في بيت تُسَد خَصاصُه حواليَّ من أبناء بكرة مجلسُ
ولو كان عندي حازيان وكاهن وعلّق انجاساً عليّ المنجس
إذاً لأتتني حيث كنت منيتي يَخُبُّ بها هاد إليّ مُعَفْرِسُ[2]

تعني انه كان يحمل ما ينفرها من التعرض له.

كما زعموا أن التنجيس يشفى إلا من العشق:

قال أحدهم:

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 318.

(2) حماسة البحتري ص 139 والحازي: الخبير بالأمور والمراد هنا الطبيب الحاذق معفرس: غالب.

يقولون علق - يا لك الخير - رِمّة وهل ينفع التنجيس من كان عاشقاً؟

ولكن القضاء لا بد واقع، ولا بد أن يخلف بعض الظنون، فقد علقت امرأة على ولدها نجساً فلم يقه من الموت، فقالت:

نجّستُه لا ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفوس

ولكن في كل عصر عقلاء ومدركون ينظرون إلى الواقع نظرة صائبة ويحللون الأمور بمنطق سليم وعقل موزون. ولم تخل البيئة العربية الجاهلية من عقلاء يستخفون هذه العقيدة، قال المرقم:

لا يمنعنك من بغاء الخير تعقيد التمائم[1]

وقال آخر:

ولا ينفع التعشير إن حُمَّ واقع ولا وَدَعٌ يغني ولا كَعْبُ أرنب

والذي يلفت النظر ويزيد في دهشتنا أنه ما زال لهذه الخرافات أشباه يدين بها بعض الجاهلات في عصرنا الحاضر في لبنان المتحضر وغيره من البلاد العربية التي زرتها ولمست عن كثب مثل ما ذكرت كمصر مثلاً وجدت أن بعض النساء الجاهلات يعلقن على الصبي تمائم فيها ناب ذئب ورأس كلب وكف إنسان... الخ.

ومثل هذا نراه في بعض مناطق لبنان يعلقون مثل هذه الأشياء على أولادهم ليسلموا من (صيبة العين).

شق الرداء لتقوية الحب وتأكيده:

كان العرب في الجاهلية يزعمون أن المتحابين إذا شق كل واحد منهما ثوب صاحبه دامت مودتهما ولم تفسد. قال أبو عبيدة: كان من شأن العرب إذا جلسوا مع الفتيات للتغزل أن يتعابثوا بشق الثياب، لشدة المعالجة عن ابداء المحاسن. وقيل: إنما يفعلون ذلك ليذكر كل واحد منهما صاحبه به، وقال العيني: كانت عادة العرب في الجاهلية أن كل واحد من الزوجين يأخذ برد

---

(1) المصدر نفسه ص 255.

الآخر، ثم يتداولان على تخريقه حتى لا يبقى فيه لبس طلباً لتأكيد المودة[1].

وأياً ما كان الباعث على شق الرداء العجيب فإن شعرهم قد صوره. ويمكن أن يفسر به قول عبد يغوث بن الحارث:

وأنحر للشرب الكرام مطيتي   وأصدع بين القينتين ردائيا[2]

فهو في هذه القصيدة يتحسر على حريته المسلوبة وماضيه الجميل السعيد، فيقول انه كان ينحر مطيته للندامى، ويوطد حبه للمغنيتين اللتين تطربانه؛ على أنا نستطيع أن نذهب مذهباً آخر هو أنه جياش الشعور طروب، إذا ما سمع غناء القينتين شق رداءه إعجاباً وسروراً.

وبقي هذا الوهم إلى ما بعد العصر الجاهلي، فهذا سحيم عبد بني الحسحاس يشير إلى شق الرداء والبرقع، وإن كان يشك في نفعه:

فكم قد شققنا من رداء محبرٍ   على طفلة ممكورة غير عانس
إذا شُق برد شق بالبرد برقع   دواليك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بُقْيَا على الهوى   وإلف الهوى يُغْرِي بهذي الوساوس[3]

وعجب شاعر آخر من فتور الحب وزواله، بعدما شق برقع حبيبته وشقت رداءه فقال:

شققت ردائي يوم (برقة عالج)   وأمكنتني من شق برقعك السَّحْقا
فما بال هذا الود يَفسد بيننا   ويمحق حبل الوصل ما بيننا محقا[4]

ولماذا نعجب فنحن اليوم وقد نعتبر أنفسنا أننا وصلنا إلى ما وصلنا، فما زال البعضُ منا يشق رداءه إثر فقيد عزيز. وقد لاحظت هذه الملاحظة في لبنان وفي مناطق الريف فوجدت بعضهم يشقون من الجانب الأيمن والبعض يشقون من الأمام، وبعد السؤال كان الجواب من إحداهن: شق الرداء من الأمام يكون لفقيد عزيز ومهم جداً وشقه من الجانب يكون على جانب بسيط من الأهمية أو القرابة. اللهم أبعد عنا شر الجاهلية!. وألهمنا العمل السليم والعقل القويم.

---

(1) خزانة الأدب البغدادي: ج 1 ص 281.
(2) المفضليات ج 1 ص 156.
(3) خزانة الأدب ج 1 ص 382.
(4) السحق: الرقيق بلوغ الأرب ج 2 ص 323.

خدر الرجل:

ومن عادات العرب الخرافية، أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله، ذكر من يحب أو دعاه، فيذهب خدرها. قال جميل:

وأنت لعيني قرة حين نلتقي ... وذكرك يشفيني إذا خدرت رجلي

أما إذا بقيت رجله على حالها، فهذا يعني أن الحب قد نضب من قلبها، وتغيرت أحوالها العاطفية. وكم يكون حبها قوياً وعنيفاً إذا زال الخدر حالا وسريعاً. إن ذكر الحبيب في تلك الحالة كان (اسبرو الجاهلية) وقالت امرأة:

إذا خدرت رجل دعوت ابن مصعب ... فإن قلت عبد الله أجلى فتورها

وقال شاعر ولهان أحب (كبيشة) حباً لا حدود له:

صب محب إذا ما رجله خدرت ... نادى (كبيشة) حتى يذهب الخدر

وقال الوليد بن يزيد:

أثيبي هائماً كلفا معنى ... إذا خدرت له رجل دعاكِ[1]

ونتساءل هل كان ذلك الدعاء يفيدهم للخدر دون سواه؟

ويروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خدرت رجله فقيل له: ادع أحب الناس إليك فقال: يا رسول الله.

يقول الألوسي: استدل الحشويون وعباد القبور بهذا الكلام على جواز الاستغاثة بأصحاب القبور عند الشدائد ونداء غير الله سبحانه وتعالى وهو كما ترى استدلال غريب يدل على جهد فيهم عظيم ويتابع الألوسي: إن الشعوب في أطوارها البدائية التي مرت بها كانت لا تحسن ربط العلة بالمعلول، ولا تعمل بوحي المنطق والفكر المستنير بالعلم والخبرات والتجارب، بل تلاحظ ملاحظات عابرة وسريعة غير مقيدة بقانون علمي أو برهان منطقي.

وفي بطلان هذا المذهب الجاهلي يقول أبو العلاء المعري:

وتنحدر في بعض الأحايين رجله ... فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 320.

يقول المعري: ولا أرى من يقول بذلك إلا من خدر عقله وتركب جهله!

ذكرنا جميل بثينة ونسينا كثير عزة الذي قال:

إذا مددت رجلي ذكرتك اشتفى بدعواك من مذل بها فيهون

اختلاج العين[1]:

ومن نظير هذا الوهم أن الرجل في الجاهلية كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أحبه) فإن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربه. قال أحدهم:

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وان كان المزار بعيدا

وقال آخر:

إذا اختلجت عيني أقول: لعلها لرؤيتها تهتاج عيني وتطرف

وهذا الوهم باق في الناس اليوم وربما كان ذلك لدى البعض منهم قاعدة مطردة.

الكي دواء العشق[2]

ومن أوهام الجاهلية ظنهم أن الكي دواء العشق كان إذا عشق أحدهم وأفرط عليه العشق حتى يهيم على وجهه، سكراناً من خمرة الحب اللاهية، حمله رجل آخر على ظهره، كما يحمل الولد الصغير، وقام رجل آخر فأحمى حديدة أو ميلاً وكوى به بين إليتية فيذهب عشقه فيما يزعمون: قال أعرابي:

كويتم بين را نفتي جهلا ونار القلب يضرمها الغرام

وقال آخر:

شكوت إلى رفيقي اشتياقي فجاآني وقد جمعا دواءاً
وجاءا بالطبيب ليكوياني ولا أبغي عدمتهما ـ اكتواء

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 321.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 321.

ولو أتيا (بسلمى) حين جاءا لغضاني من السقم الشفاء[1]

وأريد أن أعلم هل عرف قيس هذا العلاج؟ وجميل أين اكتوى؟ ولو عرفه ابن أبي ربيعة لما أمكنا عد معالم الكيات العديدة ولما بقي مكان خال منه!!

منافع لحم السباع[2]:

ولنا في خبرة العرب الطبية في الجاهلية فائدة جلى، نستعين بها حتى نكسب الجرأة والشجاعة وليس لنا إزاء هذا إلا أكل لحوم السباع الذي يزيد في القوة والجرأة. قال أحد الاعراب: وكان قد أكل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً، فصادفه نمر فجرحه ولم يستطع الصمود في وجهه:

أبا المعارك لا تتعب بأكلك ما تظن أنك تلقى منه كرّارا

فلو أكلت سباع الأرض قاطبة ما كنت إلا جبان القلب خوّارا

كي السليم ليصح الأجرب.

ومن غريب معتقداتهم أنهم كانوا يكوون الجمل السليم ليصح الأجرب وقد أكثر الشعراء من التشبيه بهذا العمل الجائر، قال الشاعر:

فألزمتني ذنباً وغيري جره حنانيك لا تكو الصحيح بأجربا

وقال بعض الأعراب:

كمن يكوي الصحيح يروم بُرْءاً به من كل جرباء الإهاب

ذكر الجاحظ أنهم كانوا إذا أصاب إبلهم الجرب كووا السليم ليدفعوا الجرب عن السقيم، فاسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم[3].

وقال ابن السيد: في هذا الفعل خمسة أقوال:

1 ـ أنه من أعمال جهال العرب، كانوا إذا وقع العرفي إبل أحدهم اعترضوا بعيراً صحيحاً منها فكووا مشفره وعضده وفخذه، ويرون أنهم بذلك

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 322.
الرانفة: أسفل الالية إذا كنت قائماً.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 323.

(3) الحيوان ج 1 ص 17.

يبرئون الإبل من العر، كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الأرانب خشية العطب، ويفقئون عين فحل الابل لئلا تصيبها العين، وهذا قول الأحمصي وأبي عمرو وأكثر اللغويين[1].

2 ـ قال يونس: سألت رؤبة بن الحجاج عن هذا، فقال: هذا، وقول الآخر «كالثور يضرب لما عافت البقر» شيء كان قديماً تم تركه الناس.

3 ـ كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق البراء به، لا ليبرأ السقيم، وحكى ذلك ابن دريد. فكان هذا الدواء وقاية لا أكثر.

4 ـ قال أبو عبيدة: هذا لم يكن، وإنما هو مثل لا حقيقة، أي أخذت البريء وتركت المذنب، فكنت كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم لو كان هذا مما يكون. قال: ونحو هذا قولهم: «يشرب عَجْلان ويسكر مَيْسَرَة» ولم يكونا شخصين موجودين.

الوقاية من الوباء

زعم العرب في الجاهلية أن الرجل إذا أراد دخول قرية وخاف من جنها أو وبائها، وقف على مدخلها وعشّر ـ نهق عشراً ـ كما ينهق الحمار، ثم دخلها لم يصبه شيء[2]. وزاد الألوسي: «ثم علق عليه كعب أرنب كان ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن»[3].

ورووا أن عروة بن الورد خرج في رفقة إلى خيبر ليمتاروا، فلما قربوا منها عشروا، واستنكف عروة أن يفعل فعلهم، وقال:

وقالوا احْبُ وانهق لا تضرك خيبر ... وذلك من دين اليهود وَلُوع[4]

لعمري لئن عشَّرْتُ من خشية الردى ... نهاق الحمير إنني لجزوع

ورأى شاعر آخر أن التعشير وغيره لا ينجي من القضاء.

ولا ينفع التعشير في جنب جرمه ... ولا دَعْدَعٌ يغني ولا كَعْبُ أرنب

---

(1) خزانة الأدب ج 2 ص 219.

(2) الحيوان للجاحظ ج 6 ص 358.

(3) بلوغ الارب ج 2 ص 348.

(4) الحيوان للجاحظ ج 6 ص 359 ولوع: كذب. أحب: من حبا يحبو.

ومثله قول الآخر:

لا ينجينك من حمام واقع   كعب تعلقه ولا تعشير[1]

نلاحظ مما سبق أن في كل عصر وفي كل طور نرى فئة من البشر التقدميين المستنيرين يرفضون الباطل مهما طغى عليهم موج الضلالة ولا يصغون الا لصوت ضميرهم الحي وبصيرتهم المستيقظة. وإن هذه الجماعة الرافضة وجودها ضروري ومجد في أي مجتمع. لأنها هي التي توحي للباغين بالعودة إلى ضميرهم والتراجع عن أخطائهم كما تحث الأفراد الآخرين إلى التكتل مع الرافضين ليدعموا بنيانهم ويتركوا قبساً من نور تهدي به أجيال المستقبل.

قال أحدهم:

أكلت من الليث الهصور فؤاده   لاصبح أجرأ منه قلباً واقدما
فادرك مني ثأره بابن أخته   فيا لك ثأراً ما أشد وأعظما

وقال آخر:

إذا لم يكن قلب الفتى غدوة الوغى   أصم فقلب الليث ليس بنافع
وما نفع قلب الليث في حومة الوغى   إذا كان سيف المرء ليس بقاطع[2]

حتى في ذلك العصر وفي عصرنا الحاضر، لا يمكن للوهم أن يسيطر تماماً على جميع الناس، وفي جميع الحالات إذ لا نعدم من فئة من الناس تزن الأمور بميزان دقيق، وتقيس النتائج وتحكها على محك التجربة، ولا تسلم تسليماً خالصاً.

أما البعض الآخر فهو على عكس ما رأينا فالجاهلي دائماً، يعلل القضايا والحوادث تعليلاً خاصاً تسوده السذاجة والحماقة ومن هؤلاء نجد من يقول في:

(1) المصدر نفسه الجرمة: القطعة من النخل. دعدع: كلمة كانوا يقولونها عند العثار.

(2) الهصور من الهصر وهو الكسر والدفع. بلوغ الارب ج 2 ص 323.

الفرس والمهقوع

إن صاحب الفرس المهقوع هو إذا ركبه فعرق تحته اغتلمت امرأته وطمحت إلى غيره[1]. والهقعة دائرة تكون غالباً على كتف الفرس وهي مستقبحة عندهم. فصاحبنا هذا يمكن أن يلتقي مع عاقد الرتم لصون عرضه وشرفه.

تلفت المسافر إلى الوراء

ونجد أيضاً من يعتقد، أنه إذا خرج من بلده قاصداً بلداً آخر فلا ينبغي له أن يتلفت إلى الوراء لأنه إن تلفت رجع لا محالة. إلا العاشق فإنه لا يستطيع البقاء دون التلفت لأنه يريد العودة. قال بعضهم:

دع التلفت يا مسعود وارم بها وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

وقال عاشق:

عيل صبري بالثعلبية لما طال ليلي وملني قزنائي
كلما سارت المطايا بنا ميـ ـلا تنفست والتفت ورائي

كان البعض منهم لا يستفيد من هذه الواسطة فقال أحدهم:

تلفت أرجو رجعة بعد نية فكان التفاتي زائداً في بلائيا[2]
وأرجو رجوعاً بعدما حال بيننا وبينكم حَزْن الفلا والفيافيا

وقال رجل كان قد طلق امرأته وأرادت الرجوع إليه فتلفتت ولم تفلح:

تلفتت ترجو رجعة بعد فرقة وهيهات مما ترتجي أم مازن
ألم تعلمي أني جموح عنانه إذا كان من أهواه غير ملاين

بتر شفة الصبي[3]

ونجد أيضاً في ذلك المجتمع الذي أشرنا إليه، من إذا بثرت شفة ابنه،

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 323.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 326 والحزن ما غلظ من الأرض وهو خلاف السهل. والفلا: أرض لا ماء فيها وكذلك الفيافي.

(3) بلوغ الارب ج 2 ص 328.

حمله منخلاً على رأسه ونادى الطفل بين بيوت الحي: الحلاء، الطعام، فتلقى له النساء كسر الخبز واقطاع التمر واللحم في المنخل، ثم يلقي ذلك للكلاب، فتأكله فيبرأ من المرض فإن أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب ثمرة، أو لقمة، أو لحمة بثرت شفته وانشد لامرأة:

الا حلا في شفة مشقوقة فقد قضى منخلنا حقوقه![1]

عين المطروف[2]

وهناك أيضاً من إذا طرفت عينه بثوب آخر، مسح الطارف عين المطروف سبع مرات. يقول في الأولى باحدى جاءت من المدينة وهكذا... بسبع جئن من المدينة، فتبرأ عين المطروف.

إلى جانب بساطة الرجل نلحظ أيضاً بساطة المرأة الساذجة، التي كانت إذا عسر عليها خاطب النكاح، نشرت جانباً من شعرها، وكحلت إحدى عينيها، مخالفة للشعر المنشور وحجلت على إحدى رجليها ويكون ذلك ليلاً وتقول:

يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح. فيسهل امرها وتتزوج عن قرب.

ولا ندري ما إذا وصلت هذه الطريقة الناجحة إلى عصرنا الحاضر؟ وإذا وصلت فهل تنجح يا ترى؟ قال رجل لصديقه وقد رأى أمه تفعل ذلك:

أما ترى أمك تبغي بعلا قد نشرت من شعرها الا قلا
ولم توف مقلتيها كحلا ترفع رجلا وتحط رجلا
هذا وقد شاب بنوها أصلا وأصبح الأصغر منهم كهلا
خذ القطيع ثم سمها الذلا ضرباً به تترك هذا الفعلا[3]

الضيف الثقيل:

كان إذا حل ضيف ثقيل عند بعض العرب في الجاهلية، ثم رحل وأرادوا أن لا يعود كسروا شيئاً من الأواني خلفه وهذا ما يفعله بعض الناس

---

(1) الحلا: الشفاء - بلوغ الأرب ج 2 ص 328.
(2) بلوغ الارب ج 2 ص 329.
(3) بلوغ الارب ج 2 ص 330.

أيضاً في عصرنا الحاضر إذ يكسرون الابريق إثر رحيل الضيف حتى لا يعود، والبعض يكسر الجرة إذا كان الضيف كثير الثقل وقد لا تفيد! قال بعضهم:

كسرنا القدر بعد أبي سواح   فعاد وقدرنا ذهب ضياعا
فلم تؤثر هذه الطريقة مع أبي   سواح المحظوظ. وقال آخر مفتخرا
ولا نكسر الكيزان في اثر ضيفنا   ولكننا نكفيه زاداً ليرجعا[1]

هذا جانب من جوانب المجتمع الجاهلي البدائي، حيث نرى ذلك الانسان الغريب عنا بأعماله وتصرفاته، فيفسر الأمور على الوجه الذي يريد، ويعلل تفسيراته بتعليلات لا نراها تتفق مع عصرنا الحاضر، لقد جنح به خياله إلى الأفق البعيد، وتاه في فسيح أرجائه، فلم ير منفذاً يتخلص منه، وعمي عن المخرج المناسب السهل، حتى لجأ ساعتئذٍ إلى الأقاويل الباطلة، يعب منها، وإلى الأوهام البعيدة ينسج على غير هدى أو قاعدة. فلا يستطيع الانسان أن يقف صامتاً تجاه المشاكل الحياتية التي يعانيها، فينشط إلى إيجاد الحلول ولو لم يقتنع بها هو نفسه، ويعتمدها تلقائياً في حياته، فليس لديه التفسير الصحيح حتى يرسم طريقة بعد هذا. نرى الانسان العاجز الضعيف يعيش مجتراً أوهامه، ويملأ فراغه بالخرافات والأساطير، فهو لا يستطيع التحكم في تصريف أموره، فيتمسك بحبال من الهواء.

أخذ التراب من تحت قدم الرجل حتى يعود:

فإذا ما عجزت المرأة من الاتصال بمن تحبه لظروف حياتها وحكم بيئتها، تعمد إلى أخذ التراب من موضع قدمه حتى يعود حبيبها وتفرج همها، وقد تصدف أن يعود حبيبها بسرعة لسبب ما، إذ لا يوفق في سفره فتظن أن الذي أسرع في العودة، ما قامت به هي من أخذ التراب، فتشيع الخبر وتجري العادة فيما بعد. قالت امرأة من العرب:

أخذت تراباً من مواطئ رجله   غداة غد كيما يؤوب مسلما[2]

ومن جهة أخرى إلى جانب عجزهم وضعفهم، نلمس أن شدة خوفهم

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 331.
(2) بلوغ الارب ج 2 ص 340.

من بعض الأشياء، وعدم فهمها على حقيقتها، سوّل لهم في نسج الأقاويل عنها، من ذلك نذكر ما سموه (بالغول).

فالغول في نظرهم كائن حقيقي يقوم بأعمال خارقة للغاية، وفوق العقل البشري، وله قصص وحكايات تطول. منها قصة عمرو بن يربوع:

عمرو والغول[1]

يقولون أنها سميت الغول لأنها تتغوّل لهم، أي تتلون وتتشكل بصور شتى، أو لأنها تغتالهم.

وقالوا أن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها البنين، ومكثت عنده دهراً، فكانت تقول له: إذا لاح البرق من جهة بلادي (وتعينها له) فاستره عني. فإني إن لم تستره تركت ولدك عليك وطرت إلى بلاد قومي.

فكان عمرو يعمل بما قالت: كلما برق البرق، غطى وجهها بردائه، فلا تبصره وإلى هذا المعنى أشار ابو العلاء المعري في قوله يذكر الابل وحنينها إلى البرق:

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهناً ما لهن ومالي!
سمت نحوه الابصار حتى كأنها بنارِيه من هنّا وثمّ وصالي
إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمد اليه في صدور عوالي
تمنيت قويقاً والصراة أمامها تراب لها من أنيق وجمال
إذا لاح إيماض سترت وجوهها كأني عمرو والمطيّ سعالي
وكم همّ نضو ان يطير مع الصبا إلى الشام لولا حبسه بعقال[2]

قالوا: فغفل عنها عمرو ليلة، وقد لمع البرق فلم يستر وجهها، فطارت وقالت له وهي تطير:

امسك بنيك عمرو اني ابـ ـرق على أرض السعالي آلق

ومنهم من يقول: ركبت بعيراً وطارت عليه، أي أسرعت فلم يدركها.

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 340.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 340.

وكم هي عجيبة قصص الغول: يقولون عن الغول التي نخوف بها أولادنا الصغار، انها ان ضربت بالسيف ضربة واحدة هلكت، وان ضربت ثانية عاشت، وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

قالت ثن. فقلت لها: رويدا   مكانك انني ثبت الجنان[1]

كما أنه يروي قصة لتأبط شراً عن لقائه مع الغول إذ يصفها بشكلها الغريب. فرأسها دقيق، وعيناها كعيني الهر، ولسانها لسان كلب وثوبها عباءة أو شنان[2] وقال البهراني:

وتزوجت في الشبيه غولا بغزال وصدقتي زق خمر.

قال الجاحظ: أصدقها الخمر لطيب ريحها. والغزال لأنه من مراكب الجن.

ـ وهذه هي طريقة أبي عثمان في السخرية المبطنة.

والبعض يقول: ان الغول ذكر وانثى قال أحدهم:

وغولا فقرة ذكر وانثى   كأن عليهما قطع البجاد[3]

وتأبط شراً من أعز أصدقاء الغيلان، وقد عرف غولاً أنثى فراودها عن نفسها، فامتنعت عليه، فقتلها وإليك هذه القصة الاسطورية الطريفة:

فأصبحت والغول لي جارة   فيا جارة أنت ما أغولا
وطالبتها بضعها فالتوت   فكان من الرأي ان تقتلا[4]
فجللتها مرهفا صارما   ابان المرافق والمفصلا
فطار بقحف ابنة الجن ذو   شقا شق قد أخلق المحملا
فمن يك يسأل عن جارتي   فإن لها باللوى منزلا
غطاءة أرض لها حلتان   من ورق الطلح لم تغزلا[5]
وكنت إذا ما هممت اهتبلت   واحرى إذا قلت ان أفعلا[6]

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 342.
(2) الشنان: القربة الخلقة.
(3) البجاد: كساء مخطط من أكسية العرب ص 344.
(4) البضع: التزوج والمجامعة.
(5) الطلح: شجر.
(6) اهتبل الرجل: كذب ـ واهتبل الصيد: ابتغاه ـ واهتبلت: غفلته.
بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٤.

ان للعرب اموراً تزعمها عن الغول لا حقيقة لها: منها أن الغول تتراءى له في الفلوات، وتتلون لهم وتضلهم عن الطريق، ومنها أن الغول هو جنس من الجن والشياطين، وكل ما اغتال الانسان فأهلكه فهو غول. والتغول التلون ويقال: تغولت المرأة إذا تلونت، والغضب غول الحلم.

وقال قوم: الغول ساحرة الجن وهي تتصور بصور شتى، وأخذوا ذلك من قول كعب بن زهير:

فما تكون على حال تدوم بها كما تلون في أثوابها الغول[1]

وتزعم العرب أنه إذا انفرد الرجل في الصحراء، ظهرت له في خلقة الانسان، فلا يزال يتبعها حتى يضل عن الطريق. فتدنو منه وتتمثل بصور مختلفة، فتهلكه من الخوف. وقالوا: إذا أرادت ان تضل انساناً، أوقدت له ناراً فيقصدها حتى يضيع، وخلقتها خلقة انسان، ورجلاها رجلا حمار. ومن الغيلان السعلاة، وهي أخبث أنواع الغيلان. وقال: أكثر ما توجد السعلاة في الغياض وهي إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفار، وربما اصطادها الذئب بالليل فأكلها، وإذا افترسها ترفع صوتها وتقول: أدركوني فإن الذئب قد أكلني ومعي ألف دينار يأخذها مني. أما الذين يسمعون يعرفون أن الصوت منها فلا يخلصها أحد فيأكلها الذئب[2].

فالغول عندهم اسم وهمي كل شيء مخيف ومرعب وغريب وغير منظور هو جن، وهو غول ولفظة جن مرافقة النون للجيم تعطي معنى التستر والتخفي. فيقال جنه الليل واجنه واجن عليه أي غطاه وستره. وكل شيء استتر عنك فقد جن عنك وبه سمت الجن. ومنها لفظة الجنين لتستره عن النظر. وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جنا لاستتارهم عن العيون. وقد جنح بهم خيالهم بالافتتان بجميع أنواع الاقاصيص والروايات عن الجن منها:

إن عمير بن ضبيعة رأى غلماناً ثلاثة يلعبون نهاراً، فوثب غلام منهم فقام على عاتقي صاحبه، ووثب الآخر فقام على عاتقي الأعلى منهما، فلما رآهم كذلك حمل عليهم فصدهم، فوقعوا على ظهورهم وهم يضحكون.

(1) جمهرة أشعار العرب ص 308.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 349.

فقال عمير بن ضبيعة فما مررت يومئذٍ بشجرة، إلا وسمعت من تحتها ضحكاً، فلما رجع إلى منزله مرض أربعة أشهر.

وحكى الأصمعي عن بعضهم: أنه خرج هو وصاحب له يسيران، فإذا غلام على طريق فقالا له: من أنت؟ قال: أنا مسكين قد قطع بي. فقال أحدهما لصاحبه اردفه خلفك، فاردفه فالتفت الآخر إليه فرأى فمه يتأجج ناراً، فشد عليه بالسيف فذهبت النار، ففعل ذلك مراراً فقال ذلك الغلام: قاتلكما الله ما أجلدكما أو الله ما فعلتها بآدمي إلا وانخلع فؤاده، ثم غاب عنهما فلم يعلما خبره[1] وقد علل المسعودي هذا الوهم تعليلاً حسناً مقبولاً في قوله:

بهذا القدر من التذويق والتعجيب، سمح لصاحبينا خيالهما في إخراج هاتين القصتين. فكل غريب ينسب إلى الجن وكل عجيب هو الغول نفسه. صور مبهمة مجهولة الشكل ومجهولة العمل. فلو وجدت الصحون الطائرة في عصر الجاهلية، ماذا يمكن أن تسمى وبماذا يمكن أن توصف؟

ومن خرافات العرب في الجاهلية وأوهامهم الاجتماعية، كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فيأخذوا روثه ويفتونها على رأسه ويقولون: روثة راثت ثائرك وبذلك يخلصون إلى دار الأمن والسلامة[2].

ومن أعاجيبهم: أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مساً من الجن لأنه قتل حية، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق[3] وملؤوها حنطة أو شعيراً أو تمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب حجر، إلى جهة المغرب، وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا، نظروا إلى تلك الجمال الطين، فإذا رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة، قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا بالدف: قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائي والسَّقَم   احمل إلى الجن جمالات وخم

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 354.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 358.

(3) جوالق: عدل أو كيس توضع به الحبوب ص 359.

فقد فعلت والسقام لم يُرَمْ[1] فبالذي يملك برئي اعتصم

وقد تنازع الناس في الهواتف والجان... وإن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك إنما يعرض لها من التوحد في القفار، والتفرد في الأودية، والسلوك في المهامة الموحشة: "لان الانسان إذا سار في هذه الأماكن روع ووجل وجبن وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة، فصورت له الأصوات، ومثلت له الأشخاص، وأوهمته المحال، كما يعرض لذوي الوساوس... لأن المتفرد المتوحش يستشعر المخاوف، ويتوهم المتالف، ويتوقع الحتف، لقوة الظنون الفاسدة على فكره! وانفراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له»[2].

وذكر غيره أن الجن غضاب عليه، ولا جريرة له، وعجب من طلبهم الدية التي لا حق لهم فيها، وتساءل كيف ينتصف منهم وهم متوارون عنه، ولو أنهم ظاهرون له ما خشيهم:

ألا إن جِنّان النُّوَيرة أصبحوا وهم بين غضبان عليّ وآسف
حملت - ولم اقْتَل - اليهم حمالة تسكن عن قلب من السقم تالف
ولو انطقوا لم يطلبوا غير حقهم ومن لي من أمثالهم بالتناصف؟
تغطوا بثوب الأرض عني ولو بدوا لاصبحت منهم آمناً غير خائف

وقال آخر يتبرم بسقمه، وقد قدم الميرة للجن غير واثق بقدرتها شفائه، ولكنه يمني نفسه ويعللها:

فيا ليت أن الجن جازوا حمالتي وزُحزح عني ما عناني من السُّقم
ويا ليتهم قالوا: انطنا كل ما حوت يمينك في حرب غِماس وفي سَلم
أعلل قلبي بالذي يزعمونه فيا ليتني عوفيت في ذلك الزِّعم[3]

ما قالوا في الغائب إذا لم يقفوا على خبره:

كانوا إذا لم يعرفوا لغائبهم خبراً، جاؤوا إلى بئر عادية مظلمة، بعيدة

(1) لم يرم: لم يصلح: بلوغ الأرب ج 2 ص 359.
(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 1 ص 254.
(3) بلوغ الأرب ج 2 ص 299. انطنا: اعطنا غماس: شديدة.

القعر، قديمة العهد ونادوا فيها: يا فلان، أو يا أبا فلان ثلاث مرات فان سمعوا له صوتاً، توهموا انه حياً. وان لم يسمعوا ظنوا أنه مات ـ قال أحدهم وكان قد توهم انه سمع صوتاً:

ألم تعلمي أني دعوت مجاشعاً   من الحفر والظلماء باد كسورها
فجاوبني حتى ظننت بأنه   سيطلع من جوفاء صعب حدورها
لقد سكنت نفسي وأيقنت أنه   سيقدم والدنيا عجاب أمورها[1]

وقال آخر معلناً حرية رأيه:

غاب فلم أرج له ايابا   والحفر لا يرجع لي جوابا
وما قرأت مذ نأى كتابا   حتى متى استشد الركابا
عنه وكل يمنع الخطابا

وقال آخر:

دعوناه من عادية نضب ماؤها   وهدم جاليها اختلاف عصور
فرد جواباً ما شككت بأنه   قريب الينا بالاياب بصير[2]

وأد البنات

يقال وأد المؤودة دفنها حية والذي يئد وائد.

والبعض يقول: المؤودة من الوأد وهو الثقل وسميت بذلك لأنها تثقل بالتراب حتى تموت. وقيل الوأد مقلوب من الأود. ذكر الهيثم بن عدي أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة حتى جاء الاسلام.

كانت مذاهب العرب مختلفة في وأد أولادهم:

فمنهم: من كان يئد البنات مخافة لحوق العار به من أجلها كبني تميم وكندة وغيرهم. قال الميداني عن سبب الوأد عن بني تميم:

---

(1) بلوغ الأرب ج 3 ص 4 . والكسور: الأرض ذات صعود ونزول.
الجوفاء : شجرة ذات جوف وأراد بها البئر التي صاح فيها. وحدورها: الانحدار اليها.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 4.
سكن: نضب حزوره. ومعنى جاليها: جوانبها.

تمنع بنو تميم عن دفع الاتاوة للملك النعمان فجرد اليهم أخاه الريان مع دَوْسر[1] فاستاق نعمهم وسبى ذراريهم. عندها ذهبت وفود بني تميم إلى النعمان وكلموه في أمر الذراري فحكم الملك بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء فأية امرأة اختارت زوجها ردت اليه. فاختلفن في الخيار وكانت فيهن بنت قيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس ابن عاصم ان يدس كل بنت تولد في التراب فوأد بضع عشرة بنتاً. وبصنيع قيس وإحيائه هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات.

ومنهم: من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو برشاء أو شيماء[2] أو كسحاء تشاؤماً منهم بهذه الصفات.

ومنهم: من كان يقتل أولاده خشية إملاق وخوف الفقر وهم القبائل الفقيرة من العرب وفيهم نزل قوله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا﴾**، فالقرآن الكريم لم يفرق في أمر النهي هذا بين الاناث والذكور مخافة الفقر والفاقة.

وكان الكثير من عقلاء العرب وحكمائهم لا يرتضي هذا الفعل كما فعل صعصعة بن ناجية جد الفرزدق. حيث كان يشتري البنت ممن يريد وأدها خشية الاملاق فاحيا ستاً وتسعون مؤودة إلى زمن النبي ﷺ وفي ذلك يقول الفرزدق:

ومنا الذي اختير الرجال سماحة | وخِيراً إذا هبَّ الرياح الزعازع[3]

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب | وعمرو ومنا حاجب والاقارع

أولئك أجدادي فجئني بمثلهم | إذا جمعتنا يا جرير المجامع

المجتمع الجاهلي بستان واسع، فيه جميع أصناف الأشجار المختلفة الأشكال والأنواع والألوان والطعوم، بستان واسع لكنه ليس كبقية البساتين التي نعهدها في عصرنا الحاضر، فثماره ليست مادية نتغذى بها ونلتذ، وأشجاره عظيمة جداً، إذ لا تبقى على حالة ثابتة، فمرة تعلو فتصبح عالية

---

(1) احدى كتائب الجيش.

(2) الشيماء: السوداء. الكسحاء: العرجاء.

(3) الخير بكسر الخاء: الكرم. الزعازع الريح الشديدة.

باسقة، ومرة تصغر حتى تختفي فلا نراها البتة، ومما يزيد في روعنا ويسحر لبنا، أن البعض من هذه الأشجار يتكلم، والبعض الآخر يضحك، كما حدث لعمير بن ضبيعة وشجرته الضاحكة والتي ذهب ضحيتها بعد مضي أربعة أشهر لشدة خوفه، وانخلاع فؤاده. ثم إن سكان هذا البستان لهم أعمال عجيبة، وأفعال خارقة لا نستطيع استساغتها وقبولها. من هذه الأعمال:

وقد لجأ الجاهلي إلى هذا التصرف، لأنه ينظر إلى البنت انها عضو أشل، لا تجني ولا تعمل، وهي مصدر الذل والعار له، لاسيما أثناء الحروب وما يرافقها من غزو وسبي. هذا بالإضافة إلى المواسم القليلة وشظف العيش وقلة الموارد في بعض السنوات وقد خاطبهم القرآن الكريم متعجباً من عملهم هذا الظالم وتعسفهم دون ذنب أو جرم فقال: «وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت»، ومما يزيد في إعجابنا قتل الصبيان، وهي أسطورة اجتماعية نادرة يذكر الالوسي.

ذبح العاشر من الأولاد:

من العرب من كان ينذر إذا بلغ بنوه العشرة، نحر واحداً منهم[1]. يا للهول أب يذبح ابنه! لماذا ولأي سبب إنه لعمل منكر!، هل له قلب ينبض؟ وقصة عبد المطلب مشهورة في ذلك، واليها أشار النبي ﷺ انا ابن الذبيحين: يعني اباه عبد الله، وجده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

يروي عن عبد المطلب، أنه نذر متى رزق عشرة أولاد ذكوراً، ورآهم بين يديه، رجالاً ينحر أحدهم شكراً لربه، وذلك على باب الكعبة. فلما استكمل ولده العدد، وصاروا رجالاً قال لهم: يا بني كنت نذرت نذراً علمتموه قبل اليوم، فما تقولون؟ قالوا: الأمر لك واليك يا أبي ونحن بين يديك فقال:

لينطلق كل واحد منكم إلى قدحه وليكتب عليه اسمه، ففعلوا وأتوه بالقداح، فأخذها وبدأ يرتجز ويقول:

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 46.

عاهدته وأنا موف عهده والله لا يحمد شيء بعده
إذ كان مولاي وكنت عبده نذرت نذراً لا أحب رده

ولا أحب أن أعيش بعده

ثم دعا بالأمين الذي يضرب بالقداح، فدفع اليه قداحهم وقال، حرّك ولا تعجّل، وكان أحب ولد عبد المطلب اليه، عبد الله، فضرب صاحب القداح السهم على عبد الله، فأخذ عبد المطلب الشفرة، وأتى بعبد الله واضجعه بين الصنمين (اساف ونائلة) وهَمّ بذبحه فوثب اليه ابنه أبو طالب، وكان أخ عبد الله لابيه وأمه، وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه، وأنشأ يقول مرتجزاً:

كلا ورب البيت ذي الانصاب ما ذبح عبد الله بالتلعاب
يا شيب إن الريح ذو عقاب إن لنا مرة في الخطاب

أخوال صدق كأسود غاب[1]

وكان خؤول عبد الله من بني مخزوم، هبوا مسرعين: يا عبد المطلب اننا لا نسلم ابن اختنا للذبح، فعندك ولد غيره، إذبح من شئت منهم، ثم اننا نفديه بكل أموالنا من طارف وتالد وقالوا له:

يا عجباً من فعل عبد المطلب وذبحه ابنا كتمثال الذهب
كلا وبيت الله مستور الحجب ما ذبح عبد الله فينا باللعب

فدون ما يبغي خطوب تضطرب[2]

وبذلك تحرك أقطاب قريش وجاؤوا عبد المطلب قائلين: يا أبا الحرث، إن الذي عزمت عليه أمر خطير، وإذا تم فلا تتهني في حياتك، ورأينا أن نصير معك إلى كاهنة بني سعد، وكما تأمرنا يصير. فقال عبد المطلب لكم ذلك، وكانوا يرون الكهانة حقاً، دخلوا على الكاهنة وكانت في الشام قالت: انصرفوا اليوم وعودوا غداً، وفي اليوم التالي قالت الكاهنة كم دية الرجل عندكم؟ قالوا عشرة من الابل. قالت فارجعوا إلى بلدكم وقدموا هذا الغلام الذي قدمتم على

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 47 ـ أخواله من في مخزوم.
(2) بلوغ الارب ج 3 ص 48.

ذبحه، وقدموا معه عشرة من الابل، ثم اضربوا عليه وعليها القداح فإن خرج القدح على الابل انحروها، وان خرج على صاحبكم زيدوا على الابل عشرة عشرة حتى يرضى ربكم. فانصرف القوم إلى مكة وقالوا: يا أبا الحارث لك أسوة في إبراهيم، فقدم مالك دون ولدك. فلما أصبح عبد المطلب غدا بابنه عبد الله إلى الذبح، وقدم معه الابل، ثم دعا أمين القداح، وبعد إعلان النتيجة خرج قدح عبد الله، فعاود الكرة ثالثة ورابعة.. حتى صار عدد الابل مائة، وضرب فخرج القدح على الابل. عندئذٍ كبر عبد المطلب وكبرت قريش وقالت لقد رضي ربك ونجا ابنك: فقال لا والله حتى أضرب عليه ثلاثاً فضرب القداح الثلاثة من جديد فخرجت كلها على الابل عند ذلك تأكد من رضا ربه وارتجز قائلاً:

دعوت ربي مخلصاً وجهراً	يا رب لا تنحر بني نحرا
وفاد بالمال تجد لي وفرا	أعطيك من كل سوام عشرا
عفواً ولا تشمت عيوناً خزرا	بالواضح الوجه المغشى بدرا
فالحمد لله الأجل شكرا	فلست والبيت المغطى سترا
مبدلاً نعمة ربي كفرا	ما دمت حيا او ازور القبرا[1]

وقربت الابل المائة، فنحرت كلها فداء لعبد الله، وتركت في مواضع لا يرد عنها أحد. وذهبت سنة حتى اليوم دفع الدية مائة من الابل.

فإذا دققنا في تفاصيل هذه القصة، رأينا ما للعادة في الجاهلية الحمقاء من سلطان على النفوس، إذ يتصرف الناس تصرفاً أرعناً بل قل أكثر من أرعن. لقد حاول أب قتل ابنه لأن القدح أشار اليه، وقد عاد من ذبحه ورضي بالفدية ـ مائة من الابل ـ لأن القدح أشار اليه بالعدول. رجل يعقل، ويسمح للقدح أن يتصرف به، ويحكم عليه، ويقرر مصير حياة ابنه عبد الله، وهو أعز أبنائه جميعاً. فاعوذ بالله من شر سلطان العادة، ماذا تعمل في نفوس البشر، وخاصة في عصر الجاهلية وفي أي عصر فيه جهال.

وما تمليه عليهم الكاهنة في أمر البشر، تمليه أيضاً في سائر المخلوقات، فهم يستشيرونها في جميع أمور حياتهم. ومما افتتهم عليه

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 49.

بالاضافة إلى ذبح العاشر من الولد، فقأ عين الفحل إذا بلغ عدد الابل الألف: أما إذا زاد عن الألف، فعليهم أن يفقأوا العين الأخرى، وكان عملهم هذا في سبيل تحصين الابل من الحسد. قال شاعرهم:

فقأت لها عين الفحيل تَعَيُّفاً   وفيهن رعلاء المسامع والحام[1]

وقال آخر:

فكان شكر القوم عند المِنن   كيُّ الصحيحات وفقأ الأعين[2]

فعلامة الشكر والمنن عند الناس هو كي الصحيح من الابل، وفقأ عين الفحل إذا بلغ العدد الألف.

والحقيقة أن المجتمع الجاهلي، مجتمع تسوده العدالة الانسانية، وتحترم فيه حقوق الانسان، وتقدر الشخصية الانسانية حق قدرها، كيف لا وقد قدروا فدية الرجل بمئة بعير؟؟ فإذا ما بلغ عدد الذكور عن نفس الأب والأم عشرة، ذبحوا العاشر أو بالأحرى من أشار إليه القدح وإذا بلغ عدد الابل الألف، فقأوا عين البعير ولم يذبحوه. وقد بالغوا في التمادي بأوهامهم إلى حد بعيد، حتى باتوا يفسرون كل حركة، ويعدونها ويحصونها ويلبسونها معنى لا يخطر على بال.

التعبير:

من هذه الحركات الاسطورية الفارغة حركة التعبير التي ما زالت حتى اليوم. ويحكى عن العرب في التعبير حكايات عجيبة، منها حكاية المهدي إذ يروى أنه رأى رؤيا نسيها فأصبح مغتماً مسود الوجه، إلى أن دخل عليه رجل يحسن الزجر والتعبير ـ لديه اختصاصان ـ وهو حاذق جداً في كليهما واسمه خويلد، فلما دخل عليه أخبره بما لديه قال له: يا أمير المؤمنين صاحب الزجر والتعبير إلى الحركة. فغضب المهدي وقال سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدري ما هو؟ ومسح يديه ووجهه، وضرب بها على فخذه، فقال له: أخبرك

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 407 ـ تعيفا: التكهن وزجر الطير. والرعلاء: طويلة الأذن تشق اذن الناقة ـ وتعلق إلى الوراء لكرمها.

(2) البيان والتبيين ج 3 ص 66.

برؤياك يا أمير المؤمنين قال: هات فأخبره قائلاً: رأيتك أنك صعدت جبلاً، فتعجب المهدي وقال صدقت يا سحار قال: ما أنا بسحار.

ولكني رأيتك مسحت رأسك بيدك، فعلمت أن الرأس ليس فوقه شيء إلا السماء، فأولته بالجبل، ثم نزلت بيدك إلى جبهتك، فتكهنت أنك تنزل أرضاً ملساء، فيها عينان مالحتان، ثم انحدرت إلى سفح الجبل فلقيت رجلاً من قريش وهو قريب لك من فخذك، لأن أمير المؤمنين قد مسح بعد ذلك بيده على فخذه قال أمير المؤمنين صدقت وأمر له بمال[1].

ومثل هذه التفسيرات قصص كثيرة يتلهى بها الناس، وهي عند العامة كما هي عند الخاصة أيضاً. فالمهدي أمير المؤمنين هو كغيره من أبناء مجتمعه يتطير ويتفاءل ويتشاءم ويعتقد بالزجر والتعبير.

والعرب يعتبرون علم الرؤيا من الفراسة، وهي في نظرهم فعل النفس الناطقة، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لايجاد هذه القوة في الانسان فائدة. وهي ضربان:

أ ـ ضرب أضغاث أحلام، وأحاديث النفس بالخواطر الرديئة لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة.

ب ـ وضرب، وهو الأقل، صحيح وهو بدوره قسمان:

1 ـ قسم لا يحتاج إلى تأويل، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة يفرق بين الاضغاث وبين غيرها، وليميز بين الملكات الروحانية والجسمانية.

2 ـ وقسم يحتاج إلى تأويل. وفي هذا من الناس من تصح رؤياه فتلقى إليه الأشياء العظيمة في المنام، ومنهم من لا تصح الرؤيا فلا يرشح له ذلك. ولهذا قال اليونانيون: يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك، وذلك لأن له حظاً من النبوة.

وهذا العلم، الرؤيا والتعبير، لا يحتاج إلى مناسبة بين متحريه، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه، ورب آخر نزر الحظ من الحكمة والعلوم توجد له فيه قوة عجيبة.

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 268.

نظرة العرب في الجاهلية إلى الغيب

العرب في الجاهلية لا ينظرون إلى البعيد، وعالم ما وراء الطبيعة عندهم ليس له قيمة تذكر ولا أهمية تلحظ، فحياتهم بسيطة وخيالهم قريب. وعالم ما وراء الطبيعة عالم مبهم عندهم غير واضح المعالم، مظلم غامض، لا يخترقه نور العقل والمعرفة، فيبقى الانسان في حيرة وقلق لا يستقر على حال معين، ولا يعتمد مبادئ محدودة. ومن الطبيعي آنئذٍ أن يؤول الأمور قدر طاقته العقلية، ويلجأ إلى جمع الأساليب الساذجة، حتى يتعرف على ما يخبئه له المستقبل من مفاجآت وأسرار. والذي يجهل أمراً ما، يتقبل كل ما يدور حول هذا الأمر من صفات وأخبار وروايات. فالكاهن في العصر الجاهلي وهو أعظم رجل عندهم، من أعيان القوم وأشراف القبائل، فكل الناس بحاجة اليه، وكل البشر لا غنى لهم عنه. فان حاربوا وان سافروا وان تحركوا أبسط الحركات، لا بد لهم من كاهن يستشيرونه ويعملون بما تشير عليهم أقداحه.

وقد عظم أمر هذا العلم وتشعب وتفرع حتى شمل حياة العرب في الجاهلية بأكملها، وقد أطال الكلام ابن خلدون في مقدمته عن الكهانة حيث قال: ولكن النفوس مفطورة على النقص والصور. عن الكمال، كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات، ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات، فتنفذ فيها نفوذاً تاماً، في نوم أو يقظة، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها بالمخيلة. وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات، لأن وحيه من وحي الشيطان، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة، ليشغل به عن الحواس ثم يقول: فهو يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً، ولا يكون موثوقاً به، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات تمويهاً على السائلين[1].

عزى سلمة الكاهن:

من أشهر كهان العرب (عزى سلمة الكاهن) وله قصص وأعاجيب منها

(1) المقدمة لابن خلدون ص 113.

أن جماعةً من العرب سعوا إلى سلمة وكانوا قد خبأوا شيئاً وطلبوا منه أن يعرف الشيء المخبؤ، فلما وصلوا قال: ما حاجتكم؟ قالوا قد خبأنا لك خبيئاً، فأنبينا عنه، ثم نخبرك بحاجتنا قال خبأتم لي شيئاً، طار فسطع فتصوب فوقع، في الأرض منه يقع. فقالوا: لاده أي بنية قال: هو شيء طار فاستطار، ذو ذنب جرار، وساق كالمنشار، ورأس كالمسمار. فقالوا: لاده فقال: ان لاده فلاده هو رأس جراده، في خرز مزاده في عنق سوار ذي القلادة. قالوا: صدقت فأخبرنا فيما اجتمعنا اليك فأخبرهم فانتسبوا له. هذا فقضى بينهم ورجعوا إلى منازلهم على حكمه[1].

هذا نموذج بسيط من كلام بعض الكهان وأسلوبهم المسجع المدبج، يفيدنا عن حياة عرب الجاهلية، واعتمادهم على الأقاويل والأوهام في تفسير المغيبات.

الرؤيا والأحلام:

من اختصاصات الكاهن أيضاً تفسير الرؤيا والأحلام، ولنا شخصية عظيمة، لها شأن يذكر في هذا الباب هي:

عفيراء الكاهنة الحميرية:

حيث يذكر لها رواة العرب نوادر طريفة[2] منها ما يروى عن مرثد بن عبد كلال قفل راجعاً من غزوة، جمع بها غنائم عظيمة فوفد اليه زعماء العرب يهنئونه، فاشتد سروره بهم، وبينما هو كذلك إذ نام يوماً، فرأى رؤيا في المنام أخافته كثيراً فاستيقظ مذعوراً، وبعد ذلك نسيها كلها ولم يذكر منها شيئاً وبقي آثار الرعب راسخاً في روعه، فانقلب سروره حزنا، واحتجب عن الناس جميعاً حتى أساءوا به الظن وليس له والحالة هذه إلا الكهان، حيث تشمل صلاحيتهم كل شيء المنظور وغير المنظور، فجعل يخلو بكاهن، قائلاً إلى كل منهم أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي. حتى ذهب في رحلة صيد، فأوغل ثم انفرد عن أصحابه، وكان قد لفحه

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 276 ـ تاريخ العرب ج 5 ص 317.

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 296 ـ تاريخ العرب ج 5 ص 331.

الهجير، فعدل في بيت، فبرزت منه عجوز فقالت: انزل على الرحب والسعة. فنزل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الأرواح نام فلم يستيقظ حتى تصرم الهجير، فجلس يمسح عينيه فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها قواماً ولا جمالاً، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام هل لك في الطعام؟ فخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته، فسقته لبناً صريفاً، فملأت عينه حسناً، وقلبه هوى، فسألها ما اسمك يا جارية؟ قالت عفيراء، قال: أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت أجل أيها الملك إنها رؤيا منام ليست بأضغاث أحلام، قال: أصبت يا عفيراء فما تلك الرؤيا؟ قالت رأيت أعاصير زوابع بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعت فيما أنت سامع، دعاء ذي جرس صادع، هلموا إلى الشارع فروى جارع، وغرق كارع، فقال الملك: فما تأويل هذه الرؤيا يا عفيراء؟ قالت الأعاصير الزوابع: ملوك بتابع، والنهر علم واسع، والداعي: نبي شافعٍ، والجارع ولي تابع، والكارع عدو منازع[1].

فقال الملك يا عفيراء: أسلم هذا النبي أم حرب؟ فقالت أقسم برافع السماء ومنزل الماء من السماء انه لمطل الدماء، ومنطق العقائل نطق الاماء، فقال الملك: إلام يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء إذا ذبح قومه فمن أعضاده؟ قالت: اعضاده غطاريف يمانون، طائرهم به ميمون يغزوهم فيغزون ويدمث بهم الحزون، وإلى نصره يعتزون، فاطرق الملك يؤامر نفسه في خطبتها، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك أن تابعي غيور ولامري صبور، وناكحي مثبور، والكلف بي ثبور، فنهض الملك وجال، في صهوة جواده وانطلق، فبعث اليها بمائة ناقة كوماء!

بعد هذا نستطيع القول أن المجتمع الجاهلي هو مجتمع بدائي محدود المعالم، ضيق الأفق، ينظر إلى عالم ما وراء الطبيعة نظرة سطحية ساذجة،

---

(1) بلوغ الأرب ج 2 ص 297 ـ السيرة ج 2 ص 429 تفسير حلم تفسيراً مادياً لا يرتكز على تعليل منطقي. منطق العقائل: الكرائم من النساء. الأعضاد: الأنصار. الغطاريف: السادة. يدمث: يسهل. يؤامر نفسه: يراد به تعاضد الرأيين المتضادين في النفس. جال في صهوة جواده: وثب. والصهوة: مقعد الفارس من ظهر الفرس والكوماء: الناقة العظيمة السنام.

قاصر في تصريف شؤونه الحياتية، وضعيف في تعليل الوجود الكوني، فهو يعيش في أوهام الماضي وخرافاته، وينظر إلى مستقبل غير مرسوم. وهذا ما سول له أن ينهض مشرئب العنق، مرهف السمع، تواق لكل ما يرى أمامه، متقبل لكل ما يقال له.

وقد حدث لبدوي أن رأى راديو لأول مرة، وهو من سكان البادية، لم يتعرف على الحياة الحضرية إطلاقاً، فذهل أمام ذلك المشهد الغريب، آلة صماء تتحدث وتنطق الحكم، وتقص الأخبار، وتطربنا بغنائها العذب. ولما عاد إلى البادية حدث قومه انه شاهد الشيطان بأم عينه، وقد وصفه لهم وكله رعب وسحر. وحتى اليوم في عصرنا الحاضر، ما زلنا نقع في الكثير الغالب على نماذج عديدة، تنحدر جيلاً بعد جيل، من عصر الجاهلية وتتخلق بأخلاق الجاهليين، وتسير على تقاليدهم وعاداتهم فالمعتصم الخليفة العباسي في عصر النور والمعرفة واستشار الكهان عندما أراد فتح عمورية، والكثير الغالب من رجالاتنا في العصر الحاضر، يستشيرون حبات المسبحة عندما يريدون سفراً أو تجارة أو زواجاً. ولقد خالف المعتصم رأي كهانة وهجم بعد أن أشاروا اليه بالنهي، وزكى قوله أبو تمام في بائيته المشهورة التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أما اليوم فإلى الذين يتمشون على رأي حبات المسبحة أقول: هل جربوا مرة وخالفوا إشارات مسبحتهم؟ وكيف انتهى الأمر بهم؟ عندما يضعف العقل يستغل الشيطان الفرص ويوسوس في صدور الناس، فيضل بهم الطريق، ويمدهم بخرافاته وأساطيره. وكلما قوي العقل ضعف أمر الشيطان وولى الأدبار. فعمله الفذ عند ضعاف العقول، وأرضه الخصبة عند القاصرين. فالعقل أشبه ما يمكن بكأس فيه ماء. فالماء هو العقل، والفراغ هو الشيطان، فإذا ما امتلأ الكأس ماء هزم الشيطان وفر هارباً، حيث لا مجال له للتشويش والبلبلة، وكلما تناقص الماء دخل الشيطان ليجني ثماره. وآمل أن تمتلئ كؤوسنا جميعاً، حتى لا يبقى مجال للشيطان فيخرب ويدمر ويغير وجه الحقيقة، فيحيي الأوهام الباطلة في نفوس الناس الخائرة. وحتى نقوى على الطبيعة ونسخرها لمصالحنا وتحسين أوضاعنا ونثق أن ليس فيها ما يخيف،

وليس فيها ما يرعب. فنعيش معتبرين بماضينا، متفهمين حاضرنا، مخططين لمستقبلنا الزاهر، باذن الله.

تحكيم أول داخل:

ولنا جولة أخرى في متحف المجتمع الجاهلي، لنقف على بعض أعمال الجاهليين، وأحوال معيشتهم من خلال أساطيرهم وأوهامهم، وهم يحلون قضاياهم بطرق ساذجة لا تحكيم للعقل فيها، ونذكر حادثة أشار فيها حكيم الجاهلية أبو أمية بن المغيرة[1] بن مخزوم وكان عامئذٍ أسن قريش كلها، قال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا والخلاف كان على وضع حجر الكعبة الشريفة. ولحسن الحظ كان أول داخل النبي ﷺ فأخبروه الخبر قال: هاتوا إلي ثوباً، فأخذوا الركن ووضعه بيده، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا. هذا التحكيم والاتفاق البدائي يذكرنا بحكايات الشعوب البدائية العديدة. وأخواننا ما يدريهم من هو الداخل الأول؟ قد يكون ولداً أو رجلاً بسيطاً أو مجنوناً أو معتوهاً. . . هذا من الناحية الاجتماعية أما من الناحية السياسية، فنجد ما يماثل ألا وهو الحكم الملكي الوراثي، فكيفما أتى الابن يتسلم منصب والده.

إن الحياة سلسلة متصلة متشابهة الحلقات فليس من الممكن أن تصل أمة إلى القمة اجتماعياً، وتكون في الحضيض سياسياً أو اقتصادياً. في مجتمع وصفه كما ذكرنا، يكون القصاص بالتخويف المرعب، والعذاب الجسدي، فإذا أراد الحاكم أن ينهي عن أكل مال اليتيم وصف لهم أكله أموال اليتامى قال، ثم رأيت رجالاً لهم مشافر[2] كمشافر الابل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار[3] يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً.

قيل أعذب الشعر أكذبه، وقد رأيت في روايات الجاهليين وأخبارهم،

---

(1) السيرة ج 1 ص 197.

(2) مشفر الابل شفته.

(3) الأفهار جمع فهر وهو حجر ملء الكف ـ السيرة ج 1 ص 406.

أن أغرب الأخبار أكذبها، وأغرب ما سمعت ما رواه ابن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزام أنه حدث: أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن التامر تحت دفن منها قاعداً، واضعاً يده على ضربة في رأسه، ممسكاً بيده عليها، فإذا أخرت يده عنها تنبعث دماً، وإذا أرسلت به ردها عليها، فأمسكت دمها وفي يده خاتم مكتوب فيه «ربي الله» فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره، فكتب اليهم عمر أن اقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذي كان عليه، ففعلوا.

أما آن لذلك الدم أن ينضب ثم كيف مات الرجل وما زال الدم ينبعث من رأسه؟ فصاحبنا هذا لم يتقن صنعه أسطورية وان وجد له المفسرون بعض المعاذير: إذ استندوا إلى قوله تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾**[1].

هؤلاء الشهداء لهم قصص غريبة عند أهل الجاهلية، فهم في نظرهم محترمون مقدرون لهم أعلى المراتب وأسعد الأوقات ومن له مثلهم الرغد والهناء لهم حور العين، وهل تدري ما حور العين[2]؟ ملكات جمال الجنة؟

من هؤلاء يذكرون الأسود الراعي، في حديث خبير يروي عنه انه أسلم على يد النبي ﷺ إسلاماً صحيحاً فتقدم مع المسلمين المحاربين في حصن خيبر، وجاهد حتى أبلى بلاء حسناً، فأصابه حجر فقتله، فأتى به رسول الله فالتفت اليه ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه فقالوا: لما أعرضت عنه يا رسول الله؟ قال: أن معه زوجتيه من حور العين. قال ابن اسحاق وأخبرني عبد الله بن أبي نجيح أنه ذكر له. إن الشهيد إذا ما أصيب تدلت له زوجتاه من الحور العين عليه، تنفضان التراب عن وجهه، وتقولان: ترب الله وجه من تربك وقتل من قتلك[3].

لقد كان يصعب على العرب في الجاهلية تصور البعث، ونظرتهم إلى عالم ما وراء الطبيعة نظرة ضعيفة جداً، فكيف سهل عليهم تصور حور العين؟

---

(1) السيرة ج 1 ص 36.
(2) حور العين. جمع أحور وحوراء والعين جمع أعين وعيناء افعل تفعيل.
(3) السيرة ج 2 ـ ص 245.

وهان الأمر عليهم. ولماذا تصوروا زوجتين ألا يكفيهم حورية واحدة؟ إن كل ما يحب الانسان يسهل عليه تصوره، وكل ما هو محروم منه يرغب دائماً في الوصول اليه ولو لم يتأكد من حسن النهاية.

كل هذه الروايات والأخبار المبالغ فيها تهون عند حديث ابن فهيرة بعد مقتله، وقد تحول الحديث فيما بعد إلى اسطورة غريبة قال ابن إسحاق[1] حدثني هشام بن عروة، عن أبيه. ان عامر بن الطفيل كان يقول: لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض، وحتى رأيت السماء من دونه، قالوا هو عامر بن فهيرة. ولا ندري من هو عامر هذا، هل هو من عداد الشهداء الذين مر ذكرهم يصعد اليهم من الأرض إلى السماء قاصداً حور العين؟ ومن جملة هؤلاء الأبطال القديسين الاسطوريين النجاشي.

النور المنبعث من قبر النجاشي:

الملك الصلب في دينه، والعادل في حكمه. يروى عنه ابن اسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما مات النجاشي، كان يتحدث انه لا يزال يرى على قبره نور[2]. وهذه عندهم علامة التقى والايمان. وفي عصرنا الحاضر، حادثة مشابهة عن بطلين قديسين من قريتي. البطل الأول، رجل ورع تقي يحب مساعدة الآخرين لينال الأجر والثواب في الآخرة، فهو رجل خير بلا شر، لكنه ليس من ذوي المناصب السياسية الرفيعة. توفي بعد أن أدرك السبعين تقريباً، ويروى عن أغلب أهل القرية انهم كانوا يرون النور على قبره أكثر من مرة. نور خاطف الأبصار يهبط على القبر لحظة، ثم يصعد الى السماء بعد فترة وجيزة توفي بعده رجل من طراز معاكس لما وصفنا تماماً، يحب أذى الناس ويتعشق النميمة والكذب، والسرقة من أبرز صفاته. ولم ير أحد نوراً على قبره، لذلك قلق ذووه وأرادوا أن يثبتوا للناس أن الرجل الذي مات قبيل والدهم، ليس بأتقى منه. لذلك عمدوا الى إضاءة قنديل ثم وضعوه على القبر ليلاً. فشاع الخبر في البلدة، أن فلاناً هو من المظلومين عند الناس: كيف كنا نظن به سوءاً وهو كمثل القديس الراحل

---

(1) السيرة ج 2 ص 186.

(2) السيرة ج 1 ص 240.

رأوا النور على قبره؟ وأخيراً لم يرضوا جماعة القديس الحقيقي، أن يقال عن رجل شقي، أنه يشبه والدهم، فذهبوا إلى قبر القديس التقليدي، فرأوا قنديلاً مضاء على قبره، فأخذوه وعمموا الخبر اليقين. ولا ندري ما إذا كان النجاشي له أنصار وأعوان أحبوا أن يظهروه ويميزوه عن سواه فأشعلوا له قنديلاً، أو أنه قديس حقيقي والنور المنبعث من قبره نور طبيعي؟ والله أعلم.

كان النور علامة الرحمة والايمان، والظلام علامة الكفر والبهتان. منذ الزمن البعيد. أما النار فلها عندهم قصص وأخبار. فهي امتحان يعرف بها المذنب من البريء، والمخطىء من المصيب. وقد عمد إلى هذه الطريقة، رجل يدعى تبان، دعا قومه إلى النصرانية، وحكم النار بينه وبينهم، قال ابن إسحاق[1]. وخرج منها متوجهاً إلى اليمن ومن معه من جنوده، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه، فأبوا عليه حتى حاكموه إلى النار التي كانت باليمن. ابن اسحق يروي عن أبي مالك بن ثعلبة بن ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث: أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك، وقالوا لا تدخلها علينا، وقد فارقت ديننا، فدعاهم إلى دينه وقال: انه خير من دينكم فقالوا فحاكمنا إلى النار قال: نعم - قال: وكانت باليمن - فيما يزعم أهلها. نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم. فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحبران ومصاحفهما في أعناقهما متقلديهما. حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار، اليهم، فلما أقبلت نحوهم، حادوا عنها وهابوا فذمرهم[2] من حضرهم من الناس أمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباهما لم تضرهما فأصفقت[3] عند ذلك حمير على دينه فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن[4].

فهل لنا نحن اليوم، من نار تأكل الظالم ولا تضر بالمظلوم؟ أو أن جميع الناس باتوا من الظالمين، حتى أصبحت النار تؤثر في الجميع من البشر على

(1) السيرة ج 1 ص 26.
(2) فذمرهم شجعهم وحضهم.
(3) اصفقوا على الأمر، إذ اجتمعوا عليه.
(4) السيرة ج 1 ص 27.

حد سواء؟ إن الايمان ركن أساسي من أركان نجاح الانسان في أي معركة حياتية يخوضها، والايمان عنصر مهم من العناصر التي يتوقف عليها سر نجاح الأمم في تقرير مصيرها، وعن طريق الايمان يتضاعف جهود المحارب، وتزكو همة المناضل، وتتنافس الشعوب في إحراز النصر. ولكن الايمان لا يكفي وحده في تحقيق الأهداف، وعن طريق الايمان فقط لا نستطيع الفوز والنجاح. فالايمان (أولاً والعمل ثانياً)، أن نؤمن وأن نعمل، أن نؤمن ثم ننشط ونجاهد، فلا نؤمن كما آمن أهل اليمن بالنار، واستنظروا حتى تحرق أعداءهم وهم يسلمون لأنهم مؤمنين، بل ان نعمل لدفع النار عنا ولتحرق غيرنا بارادتنا وسعينا وعزيمتنا، فالدين إيمان وعمل. والدين المعاملة الحسنة، والدين قول وعمل. وكم هو جميل أن يتحد القول بالعمل وكم هو مفيد اتحادهما. عندما يتحد القول بالعمل ينجبان طفلاً يسميانه الصدق وعندما يتحد القول بالعمل يرزقان طفلة يسميانها الوفاء ويلعب الجميع لعبة أظنها الحرية[1].

(1) انظر كتاب «لأنك حبيبتي» للدكتور أسعد علي.

الباب الثالث

الأساطير الدينية

الفصل الأول

العبادات المختلفة للعرب في الجاهلية

العرب قبل الاسلام كغيرهم من الشعوب البدائية الأخرى، فكروا في وجود قوى مسيطرة لها عليهم سلطان قاهر وحكم نافذ، فحاولوا التقرب منها والتودد اليها لاسترضائها بمختلف الوسائل والطرق. وقد سموا هذه القوى آلهة فعبدوها لأنهم يتوهمون أنها ترد عنهم كل أذى وضيم، وتجلب لهم كل خير ومنفعة فلا سبيل للعيش إلا بواسطة الاله عندهم، فيه يصلون إلى ما يحبون ويرغبون، ومنه يستقون الخير العميم. ثم ارتقوا فاعتقدوا بحلول هذه القوى في الأشجار والكهوف والينابيع والحجارة العراض على الخصوص.

«ومن طريق الشعائر الدينية التي تؤلف التضحية نواتها ارتبطت الآلهة برباط دموي مع القبائل المقدسة لها، وأصبحت بمثابة الحامي الذي تلوذ به القبيلة، بل بمثابة جدها وسيدها الأعلى، وكانت كل قبيلة تتعبد لالهها الخاص، ولكنها تعترف بسلطان آلهة القبائل الأخرى في مناطقها الخاصة ولقد كان بعض العشائر تتخذ أحياناً آلهة غير التي تدين لها القبيلة، كما كانت بعض القبائل تشترك أحياناً في عبادة اله واحد.

وقد جرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة مقام الهها مرة أو مرتين في العام أيام الأعياد... وكان السلام الالهي يخيم على الصحراء في الأعياد الدينية (المواسم) فيكف الناس عن القتال والحرب، والواقع أن الأسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية، ومن هنا كانت مجالاً لتبادل النتاج الروحي بالاضافة إلى البضائع والعروض المادية»[1].

---

(1) بروكلمان العرب والامبراطورية العربية 25 ـ 26.

فالدين هو إيمان بكائنات تكون فوق الطبيعة البشرية، وهو استمالة واسترضاء لتلك القوى التي تدير سير الطبيعة وتدبر حياة الانسان. وقد يختلف معنى الدين باختلاف وجهة نظر الانسان إلى الحياة، فالشعوب البدائية نظرت إلى الدين غير ما نظرت اليه الشعوب المتقدمة. ومهما قيل في تعريف الدين، فلا بد من أن تظهر شعائره على أهله، فتميزهم عن اتباع الديانات الأخرى في جميع النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. فعن طريقة العبادة نستطيع أن نميز بين أديان الأمم والقبائل والشعوب. فالعبادة تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص، وقد نجد مفارقات بين عدة قبائل في طرق العبادة وأنواع المعبودات، إذ نقف على عدد كبير من الآلهة المختلفة الأسماء والأنواع، حتى في القبيلة الواحدة. ونستند في ذلك إلى عدة عوامل: سياسية واجتماعية واقتصادية وجغرافية، يبدو أثر جميع هذه العناصر واضحاً في نمو الأفكار الدينية وطرق العبادة العديدة المتبعة عندهم.

دخول الأصنام الى الجزيرة العربية:

يقول ابن الكلبي في رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين: عن طريقة دخول الأصنام إلى الجزيرة العربية فكان أول من غير دين اسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان، وسيب السائبة ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية عمر بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة[1].

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة، فلما بلغ عمر بن لحي نازعه في الولاية وقاتل جرهما ببني اسماعيل فظفر بهم، وأجلاهم عن الكعبة ويداهم عن بلاد مكة، وتولى حجابة البيت بعدهم. ثم انه مرض مرضاً شديداً فقيل له: ان بالبلقاء من الشام، حمة ان أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه؟ فقالوا: نستشقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[2] ثم أخذ عمر بن لحي في توزيع الأصنام على القبائل، وبذلك

(1) الأصنام لابن الكلبي ص 6 وما بعدها.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 200 وما بعدها.

شاعت عبادة الأصنام بين الناس وقد وردت الرواية نفسها عند الألوسي في بلوغ الارب.

المحيط الجغرافي هو الذي يفرض على جماعة معينة، اتباع طرق تعبدية معينة، واتخاذ آلهة منبثقة من وحي ذلك المحيط، وقد تظهر عبادة الشمس والقمر من أثر الطبيعة في النفوس حيث يشاهد البدوي جلال القمر وروعته، في الليالي المقمرة العليلة، بعد حر شديد، وتعب مرهق، يهد جسمه في النهار، والنجوم التي يتخذها، (البوصلة) يهتدي بها إذا ما غاب القمر في أسفاره البعيدة الشاقة. ولا بد له إزاء هذه الأسفار، من أن يصادف الحيوانات المفترسة، فعمد إلى مصادقتها حسب اعتقاده المزعوم وألفتها عن طريق التسمية بأسمائها! حتى يكسب قوتها، فيتجنب أذاها وضررها، ثم ان طبيعة الصحراء اللاهبة، التي تحتاج إلى مطر في كل أوقات السنة، جعلت البدوي يتوق بكليته إلى الغيث، ويقوم بالحروب والمعارك، من أجل المطر والكلأ، فأخذ يصلي للاستسقاء واستدرار عطف الآلهة، لكي تبرد قلبه. وتثلج صدره، وذلك ليسعد في حياته عن طريق الدعاء والصلاة فقط.

نستنتج من كل هذا أن البدوي في الجاهلية عبد كل ما يخاف من شره، ويفزع من ويلاته، كما انه عبد كل ما ينفعه ويفيده فأخذ يتودد اليه ويسترضيه، بشتى الطرق والوسائل التي يتوهمها.

المؤثرات في طرق العبادة:

ثم إن شكل المجتمع له أثره كذلك في طرق العبادة وأحكامها. فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في طرق تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة، أو على الرعي في واد واسعة. وكذلك الناحية السياسية أيضاً، تغير في مجرى الطرق التعبدية وقد يكون الحاكم كاهناً مثلاً، يصرف شؤون قبيلته حسبما يوحي له تابعه أو رئيه. ولطالما أدى قهر قبيلة أو مدينة إلى قهر آلهتها معها وموتها، فتعبد آنذاك آلهة المتغلبين لأنها أقوى من آلهة المغلوبين، فالاله هو الذي يشارك شعبه في النصر، والاله هو الذي يتحمل خسارة الهزيمة. وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة الشعب الغالب، فيزداد بذلك العدد، وتتعدد الآلهة، وتتداخل الأوهام، وتختلط الأساطير.

كما وأن للحالات النفسية أثرها أيضاً في طرق العبادة وفي تصور الإله. . . فكل شعب، وكل قبيلة، كان يتصور الاله الذي يريد، وفق مزاجه وأخلاقه، فالعرب صوروا آلهتهم على شاكلتهم، وقد يعظم أمر الاله ويصغر حسب عظمة القبيلة أو ضعفها. وقد يتغير الاله أو يهمل أو يكسر، أو يحرق، أو يؤكل في بعض الأحيان، إذا كان من تمر مثلاً. كل ذلك سببه البيئة الجاهلية التي فيها الحياة الاجتماعية الجاهلية.

ونذكر في هذا المجال رأي العالم والأديب العقاد، في نشوء العقيدة الدينية وأسبابها. (يرى كثير من الناس أن الأساطير هي أصل الدين بين الهمج[1] وهذا الرأي لا يمكننا أن نتقبله بكل ما فيه، كما لا يمكننا رفضه مع ما فيه من الصحة.

الأطوار التي مرت بها الشعوب البدائية:

من المعروف أن الأطوار التي مرت بها الشعوب البدائية ـ كما حددها علماء الأديان في اعتقادهم بالآلهة والأرباب، هي: دور التعدد ـ ودور التمييز والترجيح ـ ودور الوحدانية ـ (بوليتييسم) و(اموتييسم) و(مونوتييسم)[2] وقد أشار كابريللي في الفصل الأول إلى هذه التقسيمات نفسها[3].

ففي دور التعدد كانت القبائل تتخذ لها أرباباً عديدة، فكان لكل أسرة كبيرة رب تعبده، وتقدم له الصلوات والقرابين، أما في الدور الثاني، فتبقى الآلهة على كثرتها ويؤخذ رب منها، فيبرز ويرجح على سائر الأرباب لأنهم يعتقدون أنه يحقق لهم أعظم مطالبهم التي تعجز بقية الارباب عن تنفيذها.

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة. ويحدث في هذا الدوران تفرض القبيلة المسيطرة عبادتها على سائر القبائل الأخرى التي تقل عنها عدداً

(1) كتاب الله (عباس محمود العقاد) ص 10.

(2) عباس محمود العقاد كتاب الله صفح 19.

(3) فرانسيسكو كابرييلي الفصل الأول ص 25.

وسطوة، كما تفرض أيضاً سيادة تاجها وصاحب عرشها ولنا في قبيلة قريش مثل واضح على ذلك.

عبادة الأشخاص:

لم يتفق العرب في الجاهلية على مبدأ موحد في العبادات، فاختلفوا في اتخاذ آلهتهم كما اختلفوا في طرق عبادتها فالبعض منهم اتخذ البعض الآخر آلهة وعبدوهم، وبعضهم عبد الجن، وبعضهم عبد الملائكة، وبعضهم عبد الظواهر الطبيعية، فأتى النبي ﷺ يدعوهم إلى دعوة منصفة لا يعلو بعضهم على بعض انها دعوة إلى عبادة الله وحده، لا يشركون به شيئاً لا بشراً ولا حجراً، فلا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾**[1].

لقد تحول العرب من عبادة الاصنام إلى عبادة الأشخاص. كانوا يؤمنون بالنبي إيماناً غير مبني على تعقل وإدراك، فالنبي هو كل شيء في نظرهم وهو مصدر خيرهم وحاميهم من المصائب، ومدبر شؤونهم في السراء والضراء. فكانوا يظنون أنه إذا مات، ماتت معه الرسالة ومات معه كل أمل في الحياة. وكان تصورهم للآخرة تصوراً ضعيفاً وهذا ما جعلهم اتكاليين يعتقدون أن النصر من عند الله وحده، وأن الهزيمة من عند الله وحده، فلا علاقة للانسان ولا قيمة لعمله، مهما بذل من قوة ونشاط. وكذلك نظرتهم إلى النبي فالنصر بيده ان حاربوا أو قعدوا. وان مات فلا حياة لهم ولا أمل **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**[2]**؟﴾** واننا لنجد رداً على البدع المسيحية في ذلك الوقت في الآية **﴿وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾**[3] ويظهر واضحاً أنها فرية كبيرة لا يقذف بها بشر عادي، ان يدعي الالوهية وهو يعلم أنه عبد فكيف

---

(1) سورة آل عمران الآية 64.

(2) سورة آل عمران الآية 144.

(3) سورة المائدة الآية 116.

برسول كريم أسلف له الله هذه النعم واصطفاه بالرسالة؟ ولكنها فرية المنافقين الذين يؤولون الكلام، وينسجون الأباطيل التي يوهمون بها الناس، من أجل ذلك نفى عنه سيدنا عيسى هذا الجواب وأوضح صلته بربه، وبين الحقيقة المشرقة.

عبادة الجن:

في تلك الصحراء الرحبة الجديبة المليئة بالقيعان والوهاد والنجاد والتلال عاش العرب الجاهليون، فعندما يرخي الليل سدوله ويغمر الظلام والوحشة كل شيء ويسيطر السكون تتسلط الأوهام على أفقه الضيق ذلك الجاهلي وتتجسم المخاوف والاحلام على مخيلته المحدودة، فيدعي عندئذٍ أنه رأى الجن، وخالطها وقد يكون ذلك تثبيتاً لشجاعته وبرهاناً على شدة بأسه؛ ومنهم من يذهب أبعد من هذا فيقول أنه صادق الجن وخاصمها ونسل منها. ونخلص إلى القول:

وقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلاً حسناً بقوله:

ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به، ومد لهم فيه، انهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم، والا غبياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق والشك... واما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، فالراوية عندهم كلما كان الاعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثة أكثر، فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها»[1].

وقد عرف العرب في الجاهلية أن هناك كائنات شريرة تشبه فكرة الشياطين، فخافوا هذه الكائنات سواء كانت أرواحاً شريرة أو ذوات شريرة، وقدموا لها القرابين استرضاء لها واتقاء لشرها، ثم عبدوها. وهذا شأن جميع الوثنيات التي وجدت في العصور القديمة، حيث وجدت معها التصورات الفاسدة في صورة عبادة الجن، واتخاذها شركاء لله وقد اختلقوا لله البنين فاليهود اختلقوا العزير، والنصارى ربوبية المسيح، والمشركون العرب في

---

(1) الحيوان 6/ 79.

الجاهلية البنات. وقد زعموا أن الملائكة أناث **﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحان وتعالى عما يشركون﴾**[1].

فعبادة الجن عرفت عند العرب في الجاهلية، فكان فريق منهم يوجه اليها اما بالعبادة أو الاستعانة **﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾**[2].

لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة الأخرى في مخيلتهم، فنسبوا اليها أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقربوا اليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة. كانوا يظنون أنها عناصر مخيفة راعبة، تؤذي من يؤذيها وتلحق به الأمراض، ولذلك كان استرضاؤها لازماً من تلك الآفات. وهذه العقيدة عندهم جعلتهم يتصورون أن الجن في الواقع آلهة. بل أكثر سلطة ونفوذاً منها، وأصبح عمل الآلهة بسيطاً سهلاً اتجاه العمل الذي يقوم به الجن. وفي القرآن الكريم أيضاً أن قريشاً جعلت بين الآلهة وبين الجن نسباً **﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون﴾**[3].

ومن آثار العقائد الجاهلية في الجن، أن البقر إذا أوردت ولم ترد، ضربوا الثور ليقتحم الماء، فتقتحم البقر بعده. ويتوهمون أن الجن تصد البقر عن الماء، وان الجن يركب قرني الثور. يشير إلى ذلك الأعشى في قوله:

لكا الثور والجني يضرب وجهه وما ذنبه ان عافت الماء باقر[4]

تشكل الجن:

وقعنا على روايات كثيرة من الأقاصيص عن تشكل الجن لهم بصور شتى، منها أن عبيد بن الأبرص سافر في ركب من بني أسد، فبينما هم يسيرون إذا هم بشجاع يتمعك على الرمضاء فاتحاً فاه من العطش، وكانت مع عبيد فضلة من ماء، فنزل فسقى الشجاع حتى ارتوى، ومن ثم انساب في

---

(1) سورة الأنعام الآية 100.

(2) سورة سبأ الآية 41.

(3) سورة الصافات الآية 158.

(4) بلوغ الارب ج 2 ص 303.

الرمل واختفى، فلما كان الليل ونام القوم ندت رواحلهم، فقام كل واحد يطلب راحلته فتفرقوا، فبينا عبيد كذلك، وقد أحس فعلاً بالهلكة والموت، إذا هو بهاتف يهتف به:

يا أيها الساري المضل مذهبه دونك هذا البكر منا فاركبه
وبكرك الشارد أيضاً فاجنبه حتى إذا الليل تجنى غيهبه
فحط عنه رحله وسيبه

فقال له عبيد: يا هذا المخاطب، نشدتك الله ألا أخبرتني من أنت؟ فانشأ يقول:

أنا الشجاع الذي ألغيته رمضا في قفرة بين أحجار وأعقاد
فجدت بالماء لما ضن حامله وزدت فيه ولم تبخل بايحاد
الخير يبقى وان طال الزمان به والشر أخبث أوعيت من زاد

فركب البكر، وجنب بكره، فبلغ أهله مع الصبح، فنزل عنه وحل رحله وخلاه فغاب عن عينه، ثم جاء إخوانه الذين سلموا بعد ثلاث ليال[1].

إن مثل هذا الخبر وغيره من الاخبار بين الافتعال والوضع، وأرى أن الغرض منه على ما يبدو، الترغيب في عمل الخير. وقد نقله أبو الفرج عن ابن الكلبي عن أبيه وقال: «وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه».

ومن شدة خوفهم من الجان وكثرة تعلقهم بهم، أصبحوا يتوهمون أن كل شيء سري وخفي، وكل شيء متستر لا تفهم حقيقته، يقولون هو من صنع الجن. حتى انهم اتهموا النبي الكريم أن به جنة. واستغلوا تفرد القرآن وتمييزه عن قول البشر المعهود. فقالوا: أن فريقاً من الجن يوصلون اليه الكلام من عالم غير منظور. فكانوا يستغلون هذه الرواسب في التمويه على الناس بأن الذي يقوله محمداً إنما يقوله عن جنة به، وهذا الغريب العجيب من القول الذي يأتي به هو قول رجل مجنون. ويعتقد البعض من اللغويين أن هناك لفظة لها صلة بموضوع الجن وهي كلمة «الحن» ويعتقد البعض الآخر أن

---

(1) الأغاني 19/ 89 أعقاد: كثبان رمل.

الحن هي شر أنواع الجن وسفلتهم. ولما لا يكون للجن سفلة وأشرار، وللانسان سفلة وأشرار[1]؟

كما يعتقد العرب في الجاهية أن أهم مواطن الجن هي المواضع الموحشة، والأماكن التي لا تطأها رجل غالباً، والمحلات غير الصحية. كما يعتقد البعض في عصرنا الاعتقاد نفسه. فالأماكن المهجورة لا يجرأون المرور بقربها أثناء الليل لأنها مسكونة بالجن، ظناً منهم أن الجن لا تظهر إلا في الليل حيث الظلام الدامس، فإذا انبلج الصبح، ولت واختفت، وكذلك المقابر هي الأرض الخصبة المأهولة بالجن. وليس هذا غريباً، فهي مواطن الموتى، وأرواح الموتى تطوف ليلاً على القبور، والهامة ترفرف على قبر القتيل، والموت نفسه شيء مخيف، والجن أيضاً شيء مخيف، فهل يوجد موضع انسب من هذا الموضع لسكن الجن[2]؟

هذه هي المواطن المعروفة غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة، فهي يمكن أن تسكن في كل مكان، حتى بيوت الناس لا تخلو منها. ولا نعجب من الجاهلية والجاهليين بل من أهل القرن العشرين. فجارنا، أبو قاسم غير بيته الذي بناه بعرق جبينه وكد يمينه، وليس عنده سواه، لأنه موطن الجن، وقد استدل على وجود الجن من جراء الكوارث التي حلت به منذ أنشأ ذلك البيت. وقد حرق البخور الكثير وقام بالعديد من النذورات، ولم يقدر على طرد الجن، فغير البيت وباعه بأرخص الأثمان لرجل غشيم بهذا العلم، علم الجن وأعماله الخارقة والمؤذية.

والذين عبدوا الجن من العرب هم من أهل البوادي، قد حكى الله تعالى عنهم بقوله **﴿وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾**[3] فاضلوهم حتى استعاذوا بهم، فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال (أعوذ بسيد هذا الوادي) أما اليوم فلا مجال لكل هذه الأقاويل في المناطق الراقية وعند الجيل المثقف الذي يدرك ويعقل أكثر من الجن، وبدل أن يطرده

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 351.

(2) تاريخ العرب ج 5 ص 43.

(3) سورة الجن الآية 72.

الجن فهو يطرد الجن من أمكنته ويسكن مكانه. فكم من الأماكن المهجورة حولتها يد الانسان إلى جنائن غناء، وبساتين زاهرة دون أن يكون للجن أي أثر أو سلطان.

وقد حكى القرآن الكريم عن الذين عبدوها بقوله: **﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سبحانك، أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾** (سبأ الآية 41).

عبادة الملائكة:

لم يقف العرب عند الحد الذي وصلنا من العبادات، بل امتد اعتقادهم إلى ما فوق الطبيعة، فعبدوا الملائكة ولم أعثر في الشعر الجاهلي على هذه العبادة عند الجاهليين. ولكن عدم ورودها لا يكون حجة للادعاء انها غير عربية أما المعري فيقول في أن أصل كلمة ملك من مألك وإنما أخذ من الألوكة وهي الرسالة. يقول الشاعر: فلست لانسي ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب[1].

وقال الأعشى: أبلغ يزيد بني شيبان مألكة أبا تبيت أما تنفك تأتكل.

والمألكة الرسالة وتأتكل من ائتكل الرجل إذا غضب وهاج وقيل معناه تأكل لحومنا وتفتك بنا.

ويظهر من القرآن الكريم أن القائلين بعبادة الملائكة كانوا يرون أنها بنات الله وأنها اناث (ولهم البنين) **﴿أم خلقنا الملائكة أناثاً وهم شاهدون[2]﴾**.

إنهم يعبدون الله ويعترفون أنه هو خالق السموات والأرض، ولكن يعبدون بنات الله ويضعون لها التماثيل زلفى وقربى لله، لكي تشفع لهم عنده وتقربهم منه، وهو انحراف عن بساطة الفكرة، وانجراف وراء أوهام الاسطورة الخادعة **﴿الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من هو كذاب كفار﴾**[3].

---

(1) رسالة الملائكة للمعري ص 5 و6.

(2) سورة الصافات الآية 149 و150 ثم الاسراء الآية 40.

(3) سورة الزمر الآية 3.

ثم يرد ذكر الملائكة حيث يتعجب الله من عبيده، ويستخففهم كيف يعبدون جزءاً من عباده. ﴿**وجعلوا له من عباده جزءاً ان الانسان لكفور مبين**﴾[1].

وقد تظهر فريتهم حيث لا مجال لهم في إخفاء أباطيلهم ﴿**يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون**﴾[2] وحتى يتبين الرشد من ألغي واضحاً لا يشوبه شائب فتتبين معه التبعة، فمن كان السبب في الضلالة فهل الملائكة سعت في ضلال الناس. أم أنهم هم ضلوا السبيل حتى يتحملوا مسؤولية كذبهم وادعائهم؟. ﴿**ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول: أنتم ضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل**﴾[3].

ولا شك أن الملائكة هي مخلوقات أوجدها الله وسخرها لمشيئته ولكن لا لتكون معبودة كما يتوهم الجاهليون وهي طوائف مختلفة الاعمال والمهمات يذكرها الله في كتابه العزيز ويفصل طوائفها.

﴿**والصافات صفاً فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً إن آلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق**﴾[4].

فالصافات هي الطائفة المصفوفة المتأهبة للاندفاع عند الاشارة منه عزّ وجلّ. والزاجرات لمن يستحق الزجر من العصاة في أثناء قبض أرواحهم، وعند الحشر والسوق إلى جهنم، والتاليات الذكر القرآن أو غيره من كتب الله. هذه الطوائف من الملائكة المختلفة المهمات، مناسبة القسم بها هو الرد على تلك الاسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب، من نسبه الملائكة إلى الله واتخاذهم آلهة بزعمهم بنات الله، وقد حدا بهم الظن إلى زعمهم ان هناك قرابة بين الله وبين الجن. وتستطرد تلك الاسطورة فتزعم أنه من الزواج بين الله والجنة ولدت الملائكة[5].

ويجدر بنا في هذا المجال ذكر: عبادة الروح وتصور الجاهليين لها.

---

(1) سورة الزخرف الآية 15.

(2) سورة سبأ الآية 40.

(3) سورة الفرقان الآية 17.

(4) سورة الصافات الآية 1 و2 و4.

(5) سورة الصافات الآية 8 و9 و10.

عبادة الروح:

لقد خلص علماء الاجتماع إلى القول. إن الإيمان بالأرواح شائع في جميع الامم البدائية، وان الامم التي جاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة، لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبادة الكواكب على الخصوص، وفي طليعتها الشمس والقمر وبعض الكواكب المعروفة. أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار.

والايمان بالأرواح كان شائعاً جداً وأمر بديهي عند الانسان في مبدأ هدايته للتدين والاعتقاد.

ولا مانع من تعليل اهتدائه إلى الروح بالعلة التي شرحها (سبنسر وتايلور) وهي الاحلام واستحياء الجمال. إذ لم يكن باستطاعته أن يفهم الروح فهماً أصح من هذا الفهم في ظلمات الجاهلية[1].

فالإنسان البدائي كان ينام ويرى أنه كان يعدو ويرقص ويأكل ويشرب ويقاتل في منامه، ثم يستيقظ فإذا هو في مكانه، فيقع في حدسه انه فعل ذلك بالروح الذي يسكن جسده، ويتركه أو يعود اليه حين يريد. وراقب الموتى فرآهم يفقدون النفس حين يموتون، فظن أن النفس هي الروح المفارق للاجساد في حالة الموت، فهي شيء في لطف الهواء الخفي يحتجب عن الانظار. ولا شك في أن ارتباط الروح بالهواء في بديهة الأولين. والكلمات العربية التي تطلق عليها تدل على ذلك وهي الروح والنفس. كما أن كلمة بسيش (Psyche) (اليونانية) معناها النفس... وفي ذلك دلالة واضحة على أصلها الأول عن بداهة الانسان.

أما نحن اليوم فإننا نفهم الظل الذي يلازمنا، والصورة التي تتراءى لنا حين ننظر في الماء، ولكن الانسان البدائي، هل كان يفهم هذه الظلال وهذه الصور؟ أو انه كان يحسبها نسخاً حية منه، يصاب من جهتها بالسحر والطلاسم؟ ولا نستغرب منه أن يلبس تلك الظلال والاشباح ثوب الحياة، والكثير الغالب في عصرنا الحاضر من الراشدين المثقفين يخاطبون الجماد بالزجر كما يخاطبون الاحياء.

---

(1) كتاب (الله) للعقاد ص 24.

والمهم أن الانسان الأول قد اهتدى إلى فكرة الروح من نواحيه التي تلائمه، فتسنى له بذلك أن يفتح لعقله منفذاً إلى ما وراء المادة.

وقد امتزجت عبادة الروح مع غيرها من العبادات، فعبادة الاسلاف القدماء لا تخطر على بال ما لم تخطر معها فكرة بقاء الأرواح. فالبدائي الذي يجهل أسرار التناسل لا يستبعد ان يتخذ له جداً معبوداً يتمثله في شبح الأسد، أو الكلب أو العقاب، أما البدائي المتحضر الذي استطلع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع، فقد جعل أباه روحاً تتجلى في الشمس. كما زعم الكهنة في مصر ان هذا الفرعون أو ذاك هو من الفراعين ابن الشمس أو ابن اوزيريس، متناسين حقه بالميراث وجلوسه على عرش أبيه[1].

عبادة الشمس:

هذا الجرم السماوي الهائل لا يقل أهمية عن بقية الاجرام السماوية الاخرى، سيما وهو الاله الذي يستبد بالمساء نهاراً فتختفي بقية الاجرام، بالاضافة إلى أنه طاقة حرارية كبرى فيه سر الحياة. وكانوا يسجدون لها إذا أشرقت، وإذا توسطت السماء، وإذا غربت، ولذا نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في هذه الأوقات. وقد عبدتها ثمود، ثم تميم، يقول بروكلمن: «حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد كبير من أتباعها إلى أنسبائها من قبيلة تميم، الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غيرهم من العرب، فهم يؤلهون الشمس على الخصوص»[2].

والظاهر أن عبادة الشمس كانت منتشرة عند العرب وخاصة عند أهل سبأ الذي منه (عبد شمس) ونستدل على ذلك من حديث سليمان والهدهد الذي جاء له بنبأ لم يحظ به في الآيات ، وتفقد الطير فقال: مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟ لاعذبنه عذاباً شديدا أو لاذبحنه، أو ليأتني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴿**وجدتها وقومها**

---

(1) العرب والامبراطورية العربية ص 27.

(2) كتاب (الله) للعقاد ص 25 و26.

يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله﴾[1].

وفي كتب التفاسير يؤولون هذه الآيات بأخبار تتعلق باتصال النبي سليمان والملكة بلقيس.

ولم يتفرد العرب وحدهم في عبادة الشمس، بل هناك الكثير من الشعوب البدائية تعظم القوى الطبيعية التي لها تأثير، أو يظن بأن لها تأثيراً في حياتهم، وليس غريباً أن يعبدوا الشمس وهي سيدة القوى، ومانحة غلال الأرض من الحبوب والثمار والخيرات؟ ولا بد من الاشارة إلى الاله (بعل) الذي عرف في المناطق الزراعية العالية التي تحتاج إلى مطر في أكثر أيام السنة، ومنها الأرض البعل وهي العالية التي لا تصل اليها المياه الجرى، فالشمس هي البعل وبعلبك مدينة الشمس، لعلوها وارتفاعها الشاهق.

والخلاصة أن العرب رأوا في الشمس قوة خارقة غير منظورة، فعبدوها وصنعوا لها التماثيل، وقدموا لها القرابين. وهي عبادة فيها بعض التطور إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الانسان للاحجار والنباتات وأشار العقاد قال: أن عبادة الشمس كانت معدومة تقريباً في أطوار الديانات القديمة، لكنها لم تنتشر في تلك الاطوار لأنها تستلزم درجة من الثقافة يتصف بها الانسان البدائي الجاهلي.

وتستدعي ديانة الشمس، أن يرتفع العقل البشري بفكرة الخلق، من أفق الأرض إلى الآفاق العليا في السموات. فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح. لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة، وإذا ما دخلت هي في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله بحاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب... ولنا مثل مطابق قصة ابراهيم، في القرآن الكريم، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال: هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً، قال: هذا ربي، فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي هذا أكبر قال: فلما أفلت، قال يا قوم اني بريء مما تشركون، إني وجهت

---

(1) سورة النمل من الآية 20 ـ 25.

وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين وحاجة قومه قال: **﴿اتحاجوني في الله وقد هداني. ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾**[1].

كما أشار المستشرق فرانسيسكو كابريللي، إلى عبادة العرب الجاهليين للكواكب عامة وللشمس خاصة[2] وتفضيلها عن سائر الكواكب. وتقديس الشمس معروف منذ القديم، وخاصة عند قبيلة ثمود، وقد روى لنا الدكتور (البرفن دون برندن) في تاريخ ثمود قال: والشمس قديس مؤنث، عرفت في شمال الجزيرة العربية أما تعاليمها، فمنتشرة في جميع أنحائها وخاصة عند اللحيانيين والصفويين. وقد عرفتها تميم وعبدتها. أما في الجنوب، (فشمس) كانت معبودة موقرة عند قبيلة سبأ أيضاً، يهدون لها الهدايا ويطلبون منها ما يشتهون، ويشعرون قربها بالفرح العظيم.

أما أسماء العلم التي سميت بها فإنها تدل على الرفعة والعلو والسيادة[3] والجمال وما زلنا حتى اليوم نستعمل التشبيه نفسه إذ يقولون: هي كالشمس جمالاً. كما سميت الشمس بالغزالة لارتفاعها وجمالها.

عبادة القمر:

لا بد وأن يكون القمر الهاً رئيسياً ـ كما كانت الشمس ـ وهو الذي يحل محلها أثناء الليل، ينير للبدوي مضارب أقدامه في الصحاري الموحشة وخاصة في حالة اكتماله (عندما يكون بدراً)؛ ذلك البدوي الذي كانت السماء وما زالت مكشوفة له، بكل ما فيها من أجرام سماوية في حله وترحاله. والقمر في وسط السماء، يرمي بأشعته الفضية الرمال البيضاء فتحي في نفس البدوي الطمأنينة والهدوء، وهو يحدو ابله ليلاً.

وقد خشي الرسول ﷺ أن يتشبه المسلمون بالمشركين، فتعزى صلاتهم في هذه الأوقات إلى تعظيم الشمس كما يعظمها الجاهليون، فنهى عن الصلاة

(1) عباس محمود العقاد (كتاب الله صفحة 28). وسورة الأنعام الآية 80.

(2) العرب ـ فرنسيسكو كابريللي الفصل الأول ص 26.

(3) تاريخ ثمود للدكتور ألبرفن برندن ص 114.

عند طلوع الشمس. ومن آياته: **﴿الليل والنهار والشمس والقمر ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجد والله الذي خلقهن ان كنتهم اياه تعبدون﴾**[1].

وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، واليه تدبير هذا العالم السفلي، ومن شريعة عبادتهم، انهم اتخذوا له صنماً على شكل عجل، وبيد الصنم جوهرة، يعبدونه ويسجدون له، ويصومون له أياماً معلومة من كل شهر، ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور. فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء، وأصوات المعازف بين يديه[2] لذلك اتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر. ويرجح أن يكون السبب شكل قرنيه اللذين يشبهان الهلال تقديساً له وتيمناً به، سميت قبائل عربية باسمه. مثل عبد قمر وعبد قمير.

وقد أشار الدكتور (برندن) في تاريخ ثمود قال: السين، يعني القمر. وهو قديس سماوي يحترمه جميع الثموديين ومن أسماء العلم يعتقد أنه يحب ويبغض، ومن بعض تعاليمه أنه يستعان به حتى يبيد العدو[3]. وهو مصدر البهاء وينبوع الجمال وقد درج العرب على هذه التشبيهات فقال بشار في وصف جمال المرأة:

وذات دل كـأن الـبـدر صـورتـهـا   باتت تغني عميد القلب سكرانا

عبادة النار:

للنار عند العرب شأن يذكر، يحملنا على القول: بأنه كان لبعض الجاهليين رأي ديني فيها، وكان ذلك قد سرى اليهم من الفرس والمجوس. وعبادة النار كانت في الأرض من عهد قابيل. تروي بعض الأساطير انه لما قتل هابيل قابيل هرب من أبيه آدم، فأتاه ابليس وقال له: ان هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار. فهو أول من نصب النار وعبدها[4].

وعباد النار يفضلونها على التراب فيعظمونها، وقد رمى بشار بن برد بهذا المذهب.

---

(1) سورة فصلت الآية 37.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 216.

(3) تاريخ ثمود الفصل الأخير ص 107.

(4) بلوغ الارب ج 2 ص 234.

الأرض سـافـلـة سـوداء مـظـلـمـة والـنـار مـعـبـودة مـذ كـانـت الـنـار

وقد كان مذهب احراق الموتى بالنار وما زال حتى الآن عند بعض الشعوب امتداداً للمذهب القديم الذي كان يتقرب إلى النار بالنفس والولد. كما يحدث في بلاد الهند.

وأبو نواس يوازن بين آدم وابليس، فيرى أن آدم من تراب وابليس من نار، والطين لا يسمو سمو النار.

إبـلـيـس مـن نـار وآدم طـيـنـة والـطـيـن لا يـسـمـو سـمـو الـنـار

والنار أنواع عند العرب فمنها نار التحالف، ونار المهول، إن اختصموا في شيء واتفقوا على اليمين، حالفوا على النار، ونار الضيافة.

وقد تمثلت عبادة النار بمظاهر عديدة نذكر منها:

1 ـ حلفوا بها، فكان لهم نار باليمن لها سدنة فإذا تفاقم امر بين قوم فحلفوا بها انقطع ما بينهم من تعاد، وسموها المهولة، وكانْ سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها، وكان لها قيم يطرح فيها الملح والكبريت، فإذا وقع فيها استشاطت وتنفضت، فيقول له هذه النار قد تهددتك فإن كان مذنباً نكل، وإن كان بريئاً حلف[1].

وقال الطبري «وكان باليمن فيما زعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم»[2].

قال أوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه «كما صد عن نار المهول حالف»[3]

وقال آخر حلفت بالملح والجمع شهَّدُ «وبالنار واللات التي هي أعظم»[4]

2 ـ وتحالفوا على النار كما تحالفوا على غيرها مما سبق في الحياة الاجتماعية (الحلف والجوار) فكانوا يذكرون عند المحالفة منافع النار، ويدعون الله عزّ وجلّ بالحرمان والمنع من هذه المنافع للذي ينقض الحلف

---

(1) الحيوان ج 4 ص 471.
(2) تاريخ الطبري ج 2 ص 96.
(3) البيان والتبيين ج 3 ص 6.
(4) المرجع نفسه ج 3 ص 7.

ويخون بالعهد، ويقولون في الحلف: الدم الدم، الهدم الهدم، (أي ما هدم لكم من بناء أو شأن فقد هدم لنا، وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا) لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً، وطول الليالي إلا مداً، وما بل البحر صوفه، وما أقام رضوى في مكانه ـ إن كان جبلهم رضوى ـ وكل قوم يذكرون جبلهم أو المشهور من جبالهم، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم[1].

وربما سرى اليهم ذلك من المجوسية الفارسية القائمة على عبادة النار وابن عبد ربه يفسر قول الأعشى في مدح المحلف:

رضيعَيْ لبان ثدي أم تحالفا   باسحَمَ داج عَوْضُ لا نتفرق

بانهما تحالفا على الرماد كما يفعل الفرس. وإذا كان التحالف على الرماد من تأثير الفرس، فالتحالف على النار نفسها أحق بأن يكون من تأثيرهم.

والاسحم: دم المحلف.

فإن كان بريئاً لم تؤثر فيه، وان كان مذنباً آذته. ثم هناك نار الغدر، وتوقد بمنى أيام الحج على جبلي ابي قبيس والأحمر. فإذا استعرت، صاح موقدها: هذه غدرة فلان، ليحذر منه الناس، وليعلموا أنه قد غدر بجاره مثلاً، والغدر من أقبح الرذائل عند العرب، ومنها نار السليم وهي التي توقد للملدوغ وللمجروح حتى يشفى. ونذكر أخيراً نار الاستمطار التي يسعرونها في أذناب البقر لينزل الغيث[2]. ومما يروى عن عمرو بن العاص: أن من عادات الجاهليين حمل النار مع الجنازة تصطحبها أصحاب النائحة لها.

ولا بد أن يكون للظى النيران أثره في الجزيرة العربية، جعل بعضهم يتقرب اليها بالعبادة، لأثرها في الأرض والانسان والحيوان.

3 ـ استمطروا بها: كانوا إذا انقطع خير السماء فاجدبوا استمطروا بربط السلع والعشر بأذناب البقر، واضرموا فيها النار.

ويذكر الجاحظ: إنهم كانوا يجمعون ما يقدرون عليه من البقر، ثم يعقدون في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم يصعدون بها في جبل

---

(1) الحيوان للجاحظ ج 4 ص 150.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 162 ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج 5 ص 284.

وعر، ويشعلون فيها النيران، ويضجون بالدعاء والتضرع، ويرون ان ذلك من أسباب السقيا[1].

ويتابعه الألوسي فيقول انهم كانوا يدعون الله ويستسقونه[2].

ولكن نرى أن لا علاقة بين إحراق البقر على هذه الصورة وبين دعائهم الله تعالى، فهل لهذا العمل علاقة بعبادة النار؟ ما أظن هذا، إذ لو ان له بها صلة لاشعلوا ناراً ودعوا حولها مثلاً وعلل بعضهم ذلك بأن الهند تعبد البقر ولها عندهم حرمة، ولهم بها تبرك، فربما حذا العرب حذوهم[3].

ولكني لا أرى ذلك صحيحاً لأن بعض الهنود يعبدون البقر ويحرصون على سلامتها، وشتان بين هذا واحراق العرب لها في استمطارهم.

والذي اعتقده انهم كانوا يتفاءلون بالنار طلباً للبرق، أو انهم كانوا يحاكون عبادة قديمة تقرب الابقار قرباناً للآلهة.

وقد سخر اعرابي بهذا العمل، وذكر أن المطر بيد الله نزله متى شاء:

شفعنا بَيْقُور إلى هاطل الحيا ... فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا
فعدنا إلى رب الحيا فاجارنا ... وصيَّر جدب الأرض من عنده خصبا[4]

وعجب الوردل الطائي من الذين يستمطرون بهذه الابقار المحروقة، ويجعلونها وسيلة بينهم وبين الله تعالى:

لا دَرَّ در رجال خاب سعيهم ... يستمطرون لدى الازمات بالعُشر
أجاعل انت بيقوراً مُسلَّعة ... ذريعة لك بين الله والمطر[5]

والثنوية طائفة من الزنادقة، قال ابن قتيبة إنهم أخذوا الزندقة من الحيرة، وهم المعتقدون بالثنوية، أو القائلون بإله النور وإله الظلام، وهما إله الخير والشر، وكانت هذه العقيدة في تميم، ومنهم زرارة بن عُدس وابنه حاجب،

---

(1) الحيوان ج 4 ص 15 السلع شجر مر أو نوع من الصبر. العشر: شجر لم يقتدح الناس في أجود ومنه.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 323.

(3) المصدر نفسه.

(4) بيقور البقر بلوغ الارب ج 2 ص 302.

(5) الحيوان ج 4 ص 150.

وزعموا أن حاجباً تزوج بنته ثم ندم، ومنهم الاقرس ابن حابس الذي أسلم وحسن اسلامه[1].

عبادة الاشجار:

يصف القرآن الكريم شجرة الزقوم. فيقول: انها طعام الاثيم كالزيت المغلي وهو المهل يغلي في البطون كغلي الجحيم. ويروي عن هذه الشجرة انها منيت الشياطين، يخرج من غصونها شياطين مختلفة الأنواع والأشكال. **﴿إن شجرة الزقوم طعام الاثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم[2]﴾** وقال ابن إسحاق. وحدثني ابن شهاب الزهري، عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي، ان الحارث بن مالك، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى حنين، فقال: وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً. قال فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة عظيمة خضراء، قال: فتنادينا من جنبات الطريق «يا رسول الله» أجل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال لهم رسول الله ﷺ الله أكبر والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى لموسى «اجعل لنا آلهاً كما لهم آلهة، قال انكم قوم تجعلون» إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم[3].

فالرسول الكريم كان يخاف على العرب من السنن والعادات، فإذا ما اعتادوا على أمر يصعب كثيراً التخلي عنه. فالتعود على عبادة ذات أنواط كما تعود غيرهم، يصبح عادة مألوفة عندهم. فشجرة الزقوم السحرية، مخبأ الشياطين، كانوا يخافونها، وشجرة ذات أنواط هي شجرة مقدسة يحبونها ويقدسونها، وشجرة السدر هي أيضاً مقدسة عندهم، يجلونها ويحترمونها، فيضعون منها على الموتى لتطهيرهم. وحتى اليوم البعض من المسلمين يضعون زهور السدر مع الماء لغسل الميت.

---

(1) المعارف لابن قتيبة.

(2) سورة الدخان الآية 43 و44 و45 و46.

(3) السيرة ج 2 ص 442.

وقد عبد بعض العرب في الجاهلية الشجر وهم في هذا يعتقدون ان قوة آلهية حلت في المعبود، كما اعتقد قدماء المصريين في العجل ابيس، فكان الإله عشتر يعبد في الأصل لا بوصفه إله الزهرة بل بوصفه إلهاً أرضياً، إله سقي النخل وجني الثمار والخصب والنتاج، وهذا ظاهر مما ورد في النقوش المعينة من ألقاب ونعوت كان يوصف بها، فمن ذلك انه كان يدعى واهب الماء، وجاني الثمار، وجامع الحصاد، فهو من أقدم الآلهة التي عبدت في جزيرة العرب، وقد انتقلت عبادته إلى جميع انحاء العالم السامي»[1].

ثم عبدت الإله عشتر في صورة مؤنث على انها إلهة لا إله، فكانت عشتر آلهة الخصب والنتاج ممثلة في النخل والماء، وقد وردت بهذا المعنى في النقوش المعينية، وكانت تدعى في البابلية منتجة الخضرة والنبات، وقد قرنت بعبادة النخل والاشجار عند الساميين منذ قديم الزمان حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من الخشب. وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عن الأغصان، وكان الساميون يعتقدون أن هذه الآلهة وما شاكلها تسكن جذع الاشجار، وان أرواحها قادرة على البطش والانتقام، وقد ظل هذا الاعتقاد حتى ظهور الاسلام[2].

عبادة الكواكب

في الليل عندما يغيب القمر، يستبدلونه بغيره من الكواكب السماوية. فهم يهتدون بها أثناء سفرهم الطويل، ويستدلون بواسطتها على معرفة الجهات، ومواقيت اليوم، وطالت صداقتهم لهذه النجوم، فأحبوها وعبدوها.

أحبت تميم (الدبران) من النجوم فعبدتها. وفي زعمهم ان (العيوق) عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرا، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً، فهو يتبعها ابداً، خاطباً لها، ولذلك سموا هذه النجوم (القلاص) وعنها قال الشاعر:

اما ابن طوق فقد أوفى بذمته ... كما وفي (بقلاص النجم) حاديها[3]

(1) النظم السياسية والاجتماعية ص 125.

(2) النظم السياسية والاجتماعية ص 132 ـ 135.

وأما قبيلة لخم وخزاعة وقريش أيضاً، فقد عبدوا (الشعري العبور) وقد أشرت إلى قصة الشعري العبور والشعري الغميصاء وسهيل، في باب الأساطير الاجتماعية. وأول من سن لهم ذلك هو أبو كبشة، وقد خالف المسلمين عندما ظهر الرسول في عبادة الشعري، وهي التي عناها الله تعالى بقوله (وانه هو رب الشعرى) خصصها ليل مخالفة أبي كبشة في عبادتها. والبعض من بني طيء، عبدوا الثرياء وهي عدة كواكب مجتمعة[1] والفئة التي اشتهرت بعبادة الكواكب، هم الصابئة، وهؤلاء يعتقدون في الانواء كما يعتقد المنجمون في السيارات فلا يتحرك منهم مسافر ولا يقدم على عمل، الا بنوء من الأنواء. وقد ورد ذكر هؤلاء في القرآن الكريم: **﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[2]. وقد ورد ذكر هؤلاء الجماعة عبدة الكواكب في سورتي البقرة والحج.

تقويم العبادات:

نلاحظ مما سبق انه كلما ارتقى الشعب في الجاهلية في حضارته كلما ارتقى في اختيار الاله الذي يريد، فالشعب المتحضر يبتعد عن المعبودات الارضية المحسوسة، ويسمو بتفكيره إلى اعتناق العبادات السماوية، كعبادة الكواكب، والاجرام السماوية التي تدل على عبادة أرفع وأسمى. فالشعب الجاهلي البدائي ليس عنده فكرة مجردة عن الاله، فهو يريد إله ملموساً محسوساً. يقول الغزالي: إذا المرأة الهرمة اعتقدت أن الله في السماء هذا يكفي.

من بين الشعوب القديمة نعرف الشعب الفينيقي الذي جرد فكرة الله. فخصه بإله واحد هو (بعل) السيد العالي السامي المرتفع. فالشعب الفينيقي هو من الشعوب الراقية في هذا المضمار. والآلهة عند العرب في الجاهلية كثيرة ومتنوعة لذلك عمدت قريش إلى مقاومة الرسول ﷺ، لأنه دعاهم إلى عبادة

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 239 ـ حاديها هو الدبران.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 240 ـ النوء وهو النجم مال للغروب.

(3) سورة المائدة الآية 69 ـ ثم سورة البقرة الآية 62 ـ ثم سورة الحج الآية 17.

إله واحد، فكانت هذه الدعوى شديدة الوطأة عليهم. كيف عوض عن جميع تلك الاصنام بصنم واحد، وجعل الآلهة إله واحداً، إن هذا لشيء عجاب.

وهذه الاصنام العديدة: منها ما هو أصيل عند العرب، نشأ وأينع في الجزيرة العربية، ومنها ما هو دخيل أي دخل إلى العرب من الخارج، وخاصة من الشعوب السامية. وليست عبادة الاصنام خاصة بالعرب دون سواهم من الشعوب، بل هي عبادة معروفة عند غيرهم من الامم القديمة، كما انها لا تزال قائمة حتى الآن.

والصنم في نظرهم يمثل قوة خارقة تفوق القوة البشرية، ويصنع من أشياء بحسب درجة تفكيرهم وتأثرهم بالظواهر الطبيعية التي تحيط بهم ويمكن أن تؤخذ من الشجر مثلاً وقد يمهر صانعها فيحاول أن يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة، أو انها تمثل صوراً مقدسة قد تمثل رجالاً مقدسين كان لهم شأن يذكر في تاريخهم القديم، فرمزا لهم حفظوا صورهم كما كان العرب في الجاهلية منقسمين في دينهم طرائق قددا، شأن الشعوب البدائية، فاعتقدوا أن الطبيعة ملأى بقوى أعظم من قوة الانسان، يتوسل اليها في كسب الخير ودفع الشر، ثم ارتقوا فيما بعد فاعتقدوا بحلول تلك القوى في الأشجار والحجارة العراض على الخصوص ويفيدنا عن ذلك بروكلمن حيث يقول:

«ومن طريق الشعائر الدينية التي تؤلف التضحية نواتها ارتبطت الآلهة برباط دموي مع القبائل المقدسة لها، وأصبحت بمثابة الحامي الذي تلوذ به القبيلة، بل بمثابة جدها وسيدها الأعلى، وكانت كل قبيلة تتعبد لالهها الخاص، ولكنها تعترف بسلطان آلهة القبائل تشترك أحياناً في عبادة إله واحد. وقد جرت العادة ان تزور القبيلة المرتحلة مقام الهها مرة أو مرتين في العام أيام الاعياد.. وكان السلام الالهي يخيم على الصحراء في الاعياد الدينية، ومن هنا كانت مجالاً لتبادل النتاج الروحي بالاضافة إلى البضائع والعروض المادية»[1].

(1) بروكلمن العب والامبراطورية العربية 25 ـ 26.

الفصل الثاني

عبادة الاصنام

الصنم هو كل ما اتخذ من دون الله، ولا ترد هذه اللفظة في القرآن الكريم، إلا على صيغة الجمع في آيات نذكرها تباعاً[1] والصنم في تعريف ابن الكلبي. هو ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان[2] أو إذا كان من حجارة على غير صورة فهو نصب. وكثيراً ما خلطوا بين الصنم والوثن. في التاج يقول الزبيدي. سمى وثن لانتصابه وثباته على حالة واحدة، من وثن بالمكان، ما أقام به فهو واثن، وذكر ان الوثن ما لا صورة له[3] ومهما كان اسم الاله ونوعه لم يستطع العرب أن يبقوا بدونه. ويعلل الالوسي بعض الاسباب التي دفعت الجاهليين إلى اتخاذ الاصنام أرباباً لهم يقول: تلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الاصنام، كل قوم على قدر عقولهم، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوروا تلك الاصنام على صورهم كما يروى عن ابن هشام عن أبيه، انه قال. كان ود وسواع ويغوث، ويعوق ونسر، قوماً صالحين، فماتوا في شهر فجزع عليهم أقاربهم فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم ان اعمل لكم خمسة اصنام على صورهم؟ غير اني لا أقدر ان اجعل منها ارواحاً، قالوا: نعم فنحت لهم خمسة اصنام على صورهم، ونصبها لهم فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه، فيعظمه ويسعى

---

(1) ابراهيم الآية 35 ـ الأنبياء الآية 57 ـ والأنعام الآية 74 ـ والشعراء الآية 71.

(2) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص 53.

(3) تاريخ العروس ج 8 ص 371.

حوله[1] ذهب ذلك القرن الأول، ولما كان القرن الثاني عظموهم أشد من تعظيم القرن الأول.

ولا بد من الاشارة هنا إلى أن تلك الاصنام، كانت تدافع عن قبائلها، تذب عنها، وتحامي عن افرادها في الحرب، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته، وهي على رتب ومنازل فالكبير منها يحفظ الصغير ويرعاه، كما حدث لابراهيم مع الآلهة المتعددة ذلك عندما خرج جميع القوم إلى أعمالهم تاركين الهتهم في الكعبة الشريفة، جاء ابراهيم الكعبة وحول الآلهة إلى قطع صغيرة من الحجارة والاخشاب المحطمة وترك كبير الاصنام. ولما عادوا ورأوا صنيع ابراهيم سألوه. كيف وقعت الواقعة وأنت حاضر لم تدفع عن صغار الآلهة؟ قال لهم ابراهيم اسألوا هذا كبيرها لماذا لم يدفع هو عنها[2].

القسم بها:

لقد أقسم العرب في الجاهلية بالاصنام كما يقسم العباد بالارباب: وجاء هذا القسم على السنة كثير من الشعراء، وان لم يتسموا بنزعة دينية. أقسم طرفه بالنصب في قوله:

فاقسمت عند النصب اني لهالك
بمتلفة ليست بغبط ولا خفض[3]

واقسم المتلمس بالانصاب وباللات في قوله يهجو عمرو بن المنذر:

أطردتني حذر الهجاء، ولا ‏ ‏ ‏ واللات والانصاب لا تئل[4]

واقسم عبد العزى المزني بن وديعة المزني بمناة:

إني حلفت يمين صدق تبرة ‏ ‏ ‏ بمناة عند محل آل الخزرج[5]

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 212.

(2) راجع سورة الأنبياء الآيات 59 ـ 60 ـ 61 ـ 62 ـ 63.

(3) ديوان طرفة 49 غبط: أرض مستوية يرتفع طرفاها.

(4) الأصنام ص 16.

(5) الأصنام ص 14.

وحلف طرفة أيضاً بالانصاب التي يذبحون القرابين عليها في اعتذاره لعمرو بن هند:

إنـي وجـدتـك مـا هـجـوتـك والـ انـصـاب يـسـفـح بـيـنـهـن دم[1]

وحلف اوس بن حجر باللات والعزى وبالله معاً:

وبـاللات والـعـزى ومـن دان ديـنـهـا وبـالله. ان الله مـنـهـن أكـبـر[2]

وكانت قريش قد حمت للعزى شعبا من شعاب وادي حراض يقال له سُقام، يضاهون به حرم الكعبة، فذاك قول أبي جندب الهذلي في مرأة كان يهواها:

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة بـفـرع الـتـي أصـمـت فـروع سـقـام
لئن أنت لم ترسل ثيابي فانطلق أبـاديـك اخـرى عـيـشـنـا بـكـلام
يـعـز عـلـيـه صـرم أم حـويـرث فـأمـسـى يـروم الأمـر كـل مـرام

وحلف الشنفري الازدي بأثواب الا قيصر في قوله:

وإن أمـراً أجـار عـمـراً ورهـطـه علـى ـ وأثواب الا قيصر ـ يعنف

واقسم زيد الخير (زيد الخيل) الطائي بعائم:

تـخـبر مـن لاقيت ان قـد هـزمـتـهـم ولم تدر ما سيماهم، لا، وعائم[3]

وكانوا أحياناً يتحالفون على النار، ويأخذون العهد المؤكد واليمين الغموس، وأحياناً يضعون فيها الملح للتهويل، قال الشاعر:

حلفت لـهـم بـالـمـلـح والقوم شـهـد وبـالـنـار والـلات الـتـي هـي أعـظـم

إخلاصهم للاصنام:

الاصنام عند العرب في الجاهلية كثيرة، وهم يعبدونها مخلصين، ويعظمونها تعظيمهم للحرم حتى ان كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة[4].

(1) الأصنام ص 14.
(2) الأصنام ص 17.
(3) الأصنام ص 4.
(4) الأصنام ص 6.

كما يروى أن السبب في حمل هذا الحجر عقيدة العربي الجاهلي في أن الحجر فيه روح الاله، فهو يحمله معه تيمناً به[1] ولكني أرى أن الحق بجانب هشام الكلبي، لأن الظاعن من مكة لم يغادر جزيرة العرب التي تسري فيها كلها روح الاله، فاله مكة هو اله الطائف واليمامة والحجر ـ الخ ثم لماذا يحدث هذا من سكان مكة وحدهم؟

وبلغ من تعلقهم بأصنامهم أن يتخوف أبو أحيحة ـ كما مر معنا ـ ألا تعبد العزى من بعده. وذلك لما مرض مرضه الأخير، ودخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ امن الموت تبكي ولا بد منه؟ قال: لا، ولكن أخاف ألا تعبد العزى بعدي. قال أبو لهب: والله ما عبدت حياتك لاجلك ولا تترك عبادتها لموتك. فقال أبو أحيحة: الآن علمت أن لي خليفة[2]. والظاهر انه كان معجباً بذلك الجواب المريح؟!

وقاتل بعض العرب لحماية أصنامهم من التدمير، كما حدث لما فتح رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت العرب، ووفدت عليه وفودها، وكان في القادمين جرير بن عبد الله الذي جاء مسلماً، فقال له النبي ﷺ: يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى! فوجهه اليه، فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه، فقاتلته خثعم وباهلة دونه، فقتل من سدنته من باهلة يومئذٍ مائة رجل، وأكثر القتل في خثعم، وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم، فظفر بهم وهزمهم، وصدم بنيان ذي الخلصة، واضرم فيه النار فاحترق، فقالت امرأة من خثعم:

وبنو أمامة بالولية صرعوا	ثملا يعالج كلها أنبوبا
جاءا لبيضتهم فلاقوا دونها	أسداً تقب لدى السيوف قبيبا
قسم المذلة بين نسوة خثعم	فتيان احمس قسمة تشعيبا[3]

ولا سبيل إلى الادعاء ان هؤلاء وأمثالهم كانوا يحمون استقلالهم ممثلاً

---

(1) النظم السياسية والاجتماعية ص 140.

(2) الأصنام ص 23.

(3) الأصنام ص 36 الولية، موضع ثملا: جمع نملة وهي الحب والسويق. أنبوب: رمح ثقب: تصخب وتقوقع أنيابها.

في حماية الصنم، فقد حدثت حروب بسبب الاصنام أيضاً لم تكن فيها فطنة الذود عن استقلال، حدثت بين بعض قبائل اليمن لاقتناء يغوث، منها موقعه رزم بين الحارث وهمدان سلانة الصنم وبين مراد[1].

وإلى هذه الموقعة يشير الشاعر بقوله:

وسار بنا يغوث إلى مراد فاجزناهم حتى الصباح[2]

وقد سبق أن ملكاً عربياً ذهب إلى الملك أسر حدون في نينوى ومعه هدايا، وجثا امامه وقبل قدمه طالباً أن يعبد اليه تماثيل آلهته، فرق له قلب أسرحدون وأعادها إليه بعد أن أمر بإصلاحها[3].

وذكر ابن هشام والأزرقي أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم فتح مكة، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى ابراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام؟ «وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً» ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست[4].

وروي في موضع آخر أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح على راحلته طاف بها، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الاصنام ويقول: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾ فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسعد الخزاعي في ذلك:

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا[5]

فالوهم والخرافة عطل عقول الجاهلين عن التفكير السليم والمنطق

---

(1) معجم البلدان ج 2 ص 776 رزم: موضع بديار مراد.
(2) الأصنام ص 10.
(3) حضارة العرب ص 123.
(4) سيرة ابن هشام 4/ 32 وأخبار مكة للأزرقي 1/ 150.
(5) سيرة ابن هشام 4/ 37.

الحكيم، والتقليد الأعمى غل أفكارهم. ومن الملاحظ أنه كان لهم عدة أصنام مختلفة الحجم والعزم.

ثم يخاطبهم القرآن الكريم ويسخر منهم فيقول: كيف تنادون هذه الأصنام الجامدة وهي لا تعي ولا تسمع؟ ولا تستجيب لدعائكم ثم ان هي سمعت دعاءكم، فلا تقدر على رد الأذى عنكم، أو جلب الخير لكم. أما ما يدعوه الرسول فيسمع منه ويستجاب له. وهذا هو الفرق بين آلهة المشركين وإله محمد الواحد الصمد.

﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾[1] وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة وأعداء الآلهة هم خصوم، وبذلك كان نبذ الفرد للآلهة معناه نبذه لقبيلته، وتغيير الاله لا يعود إلى إرادة شخص واحد، بل هو إرادة الجماعة بأسرها. فالقبيلة إذا لم يرق لها شكل الاله أو نوعه، يمكنها تغييره باله آخر يتوافق مع ذوقها وإرادتها، وعند ذلك يغير الأفراد عبادتهم. فتغير الاله هو كتغير الجنسية في عصرنا الحاضر.

اهتمامهم بالاصنام

ويتبين لنا من غربلة الروايات العديدة، ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً، حتى كان لكل دار اله فإذا أراد رجل منهم السفر، أخذ الهه، ربه، معه فيتمسح به، ويتبارك حتى يرضى عنه. ومما شق أمره على الجاهليين هو تغيير هذه الآلهة باله واحد ان هذا لشيء عجاب **﴿وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب اجعل الآلهة إله واحداً، ان هذا لشيء عجاب﴾**[2]. وانطلق الملاء منهم ان امشوا واصبروا على الهتكم ان هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق.

ويفهم من هذا ان قريشاً وهي أكبر القبائل آنذاك إنما عجبت وقاومت الرسول لدعوته إياهم إلى عبادة إله واحد، بدلاً من آلهة متعددة. لقد كانت

---

(1) سورة فاطر الآية 14.

(2) سورة ص الآية 4 وما بعدها.

دعوة التوحيد شديدة الوطأة عليهم، ولم تكن الأصنام في نظرهم إلا وسائل تقربهم إلى الآلهة وتشفع لهم عندها، وان هذه الرموز لهي صور تذكر الآلهة بهم، فتنفعهم وتؤيدهم، كما انها تضرهم وتصيبهم بالسوء إذا ابتعدوا عنها، وغضوا النظر عن تقديسها.

قال العقاد عن عبادة الاصنام: كان كفار العرب قبل البعثة المحمدية يدين أناس منهم بالمسيحية، وأناس باليهودية، ويذكرون الله على ألسنتهم، ويسمون أبناءهم بعبد الله وتيم الله[1] ويعبدون مع ذلك أسلافهم فيقولون ان أصنام الكعبة تماثيل قوم صالحين، كانوا يطعمون الطعام ويصلحون بين الخصوم. فماتوا فحزن أبناؤهم وأخوانهم عليهم. فصنعوا تلك الأصنام على مثالهم، وعبدوهم عن فرط الحب والذكرى، ولكنهم لم يعبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى[2].

وأشار ابن الكلبي قائلاً: واشتهرت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم؛ وأقام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافة بالبيت فكان الرجل، إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره وإذا ارتحل تركه، فإذ نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عندها كلها، ويتقربون اليها يدل هذا الكلام على مبلغ انتشار عبادة الاحجار بين الجاهليين، وخاصة الاعراب منهم. وكما أشرنا إلى تسمية الحجارة المنصوبة بالانصاب، يقول أبو أسامة معاوية بن زهير بن قيس: البيت (15).

فاقسم بالذي قد كان ربي وانصاب لدى الجمرات مغر[3]

كما يقول المتلمس في هجائه عمرو بن المنذر.

أطردتني حذر الهجاء، ولا واللات والانصاب لا تئل[4]

---

(1) كتاب الله للعقاد ص 22.

(2) الأصنام لابن الكلبي ص 33.

(3) السيرة ج 2 ص 35. فالأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها. والجمرات موضع الجمار التي يرمون بها. و(مغر جمع أمغر) وهو الأحمر ويريد انها مطلية بالدم.

(4) الأصنام لابن الكلبي ص 16.

وقد أعيد ذكر الأنصاب أيضاً، عند حسان بن ثابت في بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وتشير نفسها الاشارة السابقة.

وقد وقعنا على كلمة نصب في الآية **﴿يوم يخرجون من الأجداث شراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾**[1] وكيفما كانت الأسباب التي دعت العرب إلى عبادة الأصنام، وكيفما أتت الروايات في أسباب دخولها إلى الجزيرة العربية، ونقصد بالذات مكة المكرمة، علينا أن نستعرض أهم تلك الأصنام التي شاعت بين العرب في الجاهلية، وكان لها شأن يذكر في حياتهم الاجتماعية والدينية.

ويرى بروكلمان ان مناة «الهة القضاء والقدر التي تقابل الهة الحظ المخلص Tyche Soteira عند الاغريق وكانت معروفة في مكة، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة»[2].

مناة

يعد الصنم مناة، أقدم الاصنام في نظر الاخباريين. وهو من الاصنام المذكورة في القرآن الكريم. **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾**[3] وكان الصنم مناة منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل، بين مكة والمدينة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج. فكانوا إذا نفروا أتوه. فحلقوا رؤوسهم عنده ولا يرون حجهم تاماً إلا بذلك. فلا عظام الاوس والخزرج يقول عبد العزى بن وديعة المزني.

إني حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج[4]

ولم يشرح ابن الكلبي السبب الذي دعا الناس إلى نصب هذا الصنم، في هذا الموضع على ساحل البحر بعيداً، كما يقول ان هيأته هي على شكل صخرة. فهل كان هذا الصنم رمزاً لاله البحر، أو انه أتى على شكل حيوان

---

(1) سورة المعارج الآية 43.

(2) العرب والامبراطورية العربية ص 27.

(3) النجم الآية 19 - بلوغ الارب ج 2 ص 202 - تاريخ العرب ج 5 ص 69.

(4) الأصنام ص 14.

بحري غريب؟ وكان هذا الصنم معظماً من جميع القبائل العربية ومنها قريش[1] وقد كان سدنته يجنون الربح الوافر، من الهدايا التي كانت تقدم له، وذلك إلى أن كان عام الفتح، حيث بعث الرسول علياً اليه، فهدمه وأخذ ما كان له، وهما سيفان أحدهما مخذم، والثاني رسوب، سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره قال:

مظاهر سربالي حديد عليهما عقيلا سيوف مخذم ورسوب[2]

ويقال ان سيف علي ذا الفقار أحدهما. وقد انتشرت عبادة هذا الصنم انتشاراً سريعاً وسمى العرب به عبد مناة وزيد مناة وسعد مناة وأوس مناة.

وقد روى لنا الدكتور البرفن دن برندن[3] في تاريخ ثمود قال: وتفيد مناة الحظ وهي اله الثروة العميمة. وكانوا يعتقدون أنها بنت الله، ولها مذبح خاص في وادي قديد، بين المدينة ومكة، حيث كانت تنتصب على هيئة حجر كبير، يقصده عبادها الخاصة بها.

وكانت مناة لا تقل شأناً عن هبل في نظر العرب وهي بذلك قديسة سماوية، وقد كانت منتشرة عند جميع عرب الشمال. ووجد لها تمثالاً في تدمر (Palmyre) وهي جالسة تحمل صولجاناً بيدها اليسرى.

أما أسماء العلم التي سمت بها فهي أكثر من أن تعد أو تحصى وهم خدامها وسدنتها منها عبد مناة وزيد مناة وفي نظرهم انها هي (سيدة السلام) والعطف والحياة.

ويرى بروكلمن أن مناة آلهة القضاء والقدر «آلهة القضاء والقدر التي تقابل آلهة الحظ المخلص Tyche Soteira عند الاغريق وكانت معروفة في مكة، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة.

ويزيد الالوسي عن مناة فيقول:

وكان عمر بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة، وكان قد اتخذ في

(1) الأصنام ص 13 ـ 15.

(2) الأصنام ص 15 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 202.

(3) تاريخ ثمود للدكتور البرفن دن برندن ص 103.

داره صنماً من خشب يقال له مناة. فلما أسلم فتيان بني سلمة، أخذوا يولجون بالليل على صنم عمرو، فيحملونه ويطرحونه في بعض خفر بني سلمة ـ وفيها أوساخ الناس. فإذا أصبح عمرو قال: «ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ ثم يغدو فيغسله ويطهره ويقول: والله لو أعلم من فعل بك هذا لاخذته» وفي الليلة التالية أعادوا الكرة فربطوا الاله مناة بالحبل، وقرنوا معه كلباً ميتاً ثم ألقوه في بئر. فلما غدا عمرو ووجده على هذه الحالة وكان قد قال[1]:

والله لو كنت آلهاً لما تكن   أنت وكلب وسط بئر في قرن
اف لملقاك الـه مستدن   الآن فتشناك عن سوء الغبن

اللات

وأما الصنم اللات، فإنه من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وهو عندهم الاله الرئيس ويدل ذلك على عبادته التي كانت منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة وخاصة في النواحي الشمالية، وبه تسمى زيد اللات وتيم اللات ووهب اللات ابن الملكة الزباء ملكة تدمر. كان معبد اللات الشهير في مدينة الطائف، وهي أحدث من مناة وكانت صخرة.... مربعة. وكان يهودي يلت عندها السويق. وسدنتها من ثقيف وقريش، وجميع القبائل تعظمها[2] وهي التي ذكرها الله في القرآن الكريم. (أفرأيتم اللات والعزى)[3] ولها يقول عمرو بن الجعيد:

فإني وتركي وصل كأس لكا الذي   تبرأ من لات، وكان يدينها

وله يقول المتلمس في هجائه عمرو بن المنذر ثم يقسم:

اطردتني حذر الهجاء ولا   واللات والانصاب لا تئل

وقد حيرت هذه الصخرة الناس، فوضعوا عنها العديد من القصص إذ كانوا يسمعون صوتاً من داخلها، ويظنون أن روحاً حلت بها، فأخذوا يعبدون تلك الروح الحالة بها وبقيت اللات تعبد، حتى أرسل لها النبي ﷺ المغيرة بن

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 209 ـ مستدن ـ من السدانة وهي خدمة البيت والغبن ـ تسفيه الرأي.
(2) الأصنام ص 16 ـ لابن الكلبي.
(3) سورة النجم الآية 19.

شعبة، فأحرقها بالناس وذكر الطبري ان اللات مشتقة من الله، ألحقت فيه التاء فأُنثت، كما قيل عمرو والانثى عمرة[1]. وقد يستهترون في قدسية أصنامهم ويسلبونها القلائد والنذور على حد قول كعب بن مالك الأنصاري[2].

ونـنـسـى الـلات والـعـزى وودا ونـسـلـبـهـا الـقـلائـد والـشـنـوفـا

وقد أشار العالم فرنسيسكو كبريللي[3] في كتابه (العرب) إلى وصف شبيه لما مر معنا أما الدكتور برندن فيقول عن اللات يقول: (ركمنس)[4] ان اصل هذه التسمية لات التي سقطت منها (الـ) التعريف. أما التسمية التي عرفها العرب فهي (اللات)، القديسة السماوية وأسماء العلم للثموديين تحمل اسمها (عبد اللات). ومن صفاتها انها تغضب فتضرب وتؤنب. وأما صورتها فكان يرمز اليها بصورة الغزالة.

ويرى بروكلمن أن اللات هي الآلهة التي كانت تعرف في الطائف بالربة أي السيدة، والتي شبهها هيرودوتس بآلهة الفلك Rania وهي تقابل الام الكبرى للآلهة عشتروت عند الساميين الشماليين.

العزى:

والعزى صنم أنثى، وهي أحدث عهداً في نظر ابن الكلبي من اللات ومناة. وطريقته في معرفة القديم من الاصنام، هو معرفة الرجال الحاملين أسماء الاصنام، فمن سمي باسم صنم وكان أقدم عهداً من بقية الأشخاص، كان الصنم الذي سمي الشخص به، أقدم الاصنام في عهده[5].

وتسمية هذا الاسم مشتقة من اسم الله تعالى العزيز أو هو مؤنث الأعز كما ذهب النيسابوري. سيرة ابن هشام 4/ 64 وقد سمت العرب به عبد العزى. وأقدم من سمى هو عبد العزي بن كعب. وكانت أعظم الأصنام عند

---

(1) الطبري ج 27 ص 34.

(2) الاصنام ص 17 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 203 ـ السيرة ج 1 ص 78.

(3) كتاب العرب للعالم كبريللي ص 26.

(4) تاريخ ثمود ص 91 ـ للدكتور برندن.

(5) الأصنام للكلبي ص 17 وما بعدها.

قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبائح. وقريش كانت تطوف بالكعبة وتقول:

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فانهن الغرانيق العلى[1]

وإن شفاعتهن لترجى

وزعموا أنها بنات الله وشفعاؤه اليه، قال تعالى: **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذا قسمه ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾**.

وقد هدد حسان بن ثابت، بالقتل من قبل صفوان بن المعطل في قصيدته التي قال فيها:

أما قريش فاني لن أسالمهم حتى ينيبوا من الغيات للرشد
ويتركوا اللات والعزى بمعزلة ويسجدوا كلهم للواحد الصمد

وكان صفوان قد ضربه وأذاه[2].

فمن الواضح أن قريشاً كانت تعظم هذا الصنم وتجله، حتى ان أبا أحيحة، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، لما مرض مرضه الذي مات فيه، كان من أهم ما شغل باله وهو في مرضه الشديد، الذي أسلمه إلى الموت، قضية عبادة العزى، وخشيته ان لا تعبد من بعده، فلما أجابه أبو لهب مهوناً عليه الموضوع (والله ما عبدت حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها بعد موتك) سره الجواب وافرج عنه فقال. (الآن علمت أن لي خليفة)[3] ومن المعروف أنهم لم يكونوا على علم واضح من العزى وأمرها، ففي رواية من رواياتهم أن العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان. وفي رواية أخرى أن العزى شيطانة، تأتي ثلاث سمرات ببطن نخله[4] وبقي صنم العزى إلى أيام الرسول ﷺ حيث أرسل إليه خالد بن الوليد فهدمه، وأحرق السمرات وهو يقول:

---

(1) الأصنام للكلبي ص 19 والغرانيق الذكور من الطير وهنا معناها الأصنام.

(2) السيرة لابن هشام ج 2 ص 305 ثم السيرة ج 1 ص 108.

(3) الأصنام للكلبي ص 23.

(4) بلوغ الارب ج 2 ص 204 ـ والسمر شجر صغير الورق.

يا عز كفرانك لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك

وعبد العزى اسم أبي لهب، وإنما كناه الله عز وجلّ لأن اسمه محال ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ ومما يظهر ان من مذاهب العرب تقديس بعض الأشجار، كما أشرت سابقاً، لأن أرواحاً حالة فيها هي أرواح الآلهة. وهذه العقيدة هي التي حملتهم على عبادة الأشجار، وهي تتمثل في قصة الخناسة التي ظهرت من الشجرة الثالثة، بعد قطع خالد بن الوليد للشجرتين المتقدمتين فظهرت الخناسة نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، فضربها خالد على رأسها فقتلها فإذا هي حممه[1].

والحقيقة أن الآراء مختلفة حول العزى: أكانت صنماً كما ذكر ابن الكلبي؟ أم كوكباً كما ذكر بروكلمان؟ أم شجرات؟ أم حجراً أبيض؟ أم بيتاً كما ذكر الطبري؟ وكما ذكر ابن هشام انها بيت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها[2].

هبل:

إن أصنام قريش في جوف الكعبة وحولها عديدة. يقول ابن الكلبي: إن أعظمها هو هبل نصبه على حد قوله، خزيمة بن مدركة، ولذلك عرف بهبل خزيمة، وكان في جوف الكعبة قدامة سبعة أقداح، مكتوب في أولها. صريح والآخر ملصق. فإذا شكوا في مولود، أهدوا اليه هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح، ألحقوه وان خرج ملصق دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح. . . وان اختصموا أو أرادوا سفراً، أتوه فاستقسموا عنده، فلما خرج عملوا به وانتهوا اليه. وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[3] ويقول ابن الكلبي أيضاً: كان هبل من عقيق أحمر، على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، حتى أدركته قريش، فجعلت له يداً من ذهب. وهبل هو الصنم الذي قال له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد: أعل هبل أي علا دينك، فقال الرسول ﷺ الله أعلى وأجل ولا بد أن يكون لاستنجاده بهبل من

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 204 ـ 205.

(2) انظر تفسير الطبري 27/ 34 وسيرة ابن هشام 4/ 64.

(3) الأصنام للكلبي ص 28 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 205.

غير سائر أصنام الكعبة دلالة على أهميته وتقدمه على سائر الأصنام عند قريش.

وقد حدثنا العالم كبريللي[1] في الفصل الأول من كتابه (العرب)... قال: إن عبادة هذا الصنم هو من بين الأصنام البارزة التي عبدها العرب في الجاهلية.

..... أما الدكتور برندن فقد روى لنا في تاريخ ثمود، عن الصنم هبل[2] فقال:

تفيد هذه التسمية (المسن، المعمر) يقول ستاركي (Starcky) وهو من بين الأصنام المعروفة في الكعبة في مكة، وهو على صورة البشر، يستشيرونه عن علم المغيبات بواسطة الازلام السبعة، وهو اله قريش المعظم. وقد عرف عند ثمود باسمين: ابن هبل، وهبل الخصي.

اساف ونائلة:

قرن اسم أساف مع نائلة لحبه لها وهيامه بها، وللاخباريين قصص فيهما تفوق قصص (جميل بثينة وروميو وجوليت) وهما في زعم بعضهم انسانان، عملا عملاً قبيحاً في الكعبة، فمسخا حجرين وضعا في موضعهما، فعبدتهما خزاعة وقريش. ويروي ابن الكلبي: لما مسخا حجرين، وضعا عند الكعبة، ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الاصنام، عبدا معها. وكان أحدهما يلصق الكعبة، والآخر في موضع زمزم. فنقلت قريش الذي في نصف الكعبة إلى الآخر فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما[3]. ولما ظهر الرسول يوم فتح مكة دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة، فجعل يطعنها في عيونها ويقول:

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

---

(1) كتاب العرب للعالم كبريللي ص 26.

(2) تاريخ ثمود للدكتور برندن ص 97.

(3) الأصنام ص 29 ـ تاج العروس ج 6 ص 40. وما بعدها ـ بلوغ الارب ج 2 ص 205 وما بعدها.

وقد ورد اسم هذين الصنمين في السيرة النبوية في قصة حفر بئر زمزم قال:

محمد بن إسحق المطلبي[1] بينما عبد المطلب بن هاشم نائم في الحجر، إذ أتى فأمر بحفر بئر زمزم، وهي دفن، بين صنمي قريش اساف ونائلة، عند منحر قريش. وقريش تعظمهما ولهما يقول ابو طالب:

أحضرت عند البيت رهطي ومعشري وأمسكت من أثوابه بالوصائل
وحيث ينيخ الاشعرون ركابهم بمفضى السوء من أساف ونائل[2]

ويروي ابن الكلبي انه كان لكل دار من مكة صنم يعهدونه، فإذا أراد أحدهم السفر، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً.

... ثم يزيد واشتهرت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره ثم طاف به كطوافه بالبيت[3].

من هنا نستخلص إلى عدد الأصنام الهائل، وإلى أنواع تلك الأصنام التي تتناسب مع القبيلة، والرجل والدار فكلما كبرت القبيلة وعظمت كبر معها الهها وعظم.

والخلاصة ان اساف ونائلة تمثالان حجريان، حاول العرب خلق تعليل لوجودهما، وقد برز العشق موضوعاً لحبك العلاقات بينهما. حتى كان منهما ما حصل. الخرافة تمسخهما حجرين في ذلك المكان الرهيب موعظة للناس وعبرة...

نلاحظ أن في هذا الدور قد بزغ فيه فجر العقيدة واستنارت البصائر. فاستشار الأصنام، على أن الاستشارة نوع من تزويد النفس بالثقة فحسب، لا على أنها حكم لا نقض فيه، فإذا لم توافق المشورة هوى صاحبها، رفضها باستخفاف وازدراء.

---

(1) السيرة ج 1 ص 110.
(2) الأصنام ص 29 ـ الوصائل ـ البرود.
(3) الأصنام للكلبي ص 33.

ذو الخلصة:

أما ذو الخلصة فقد كان صنم خثعم وبجيله وباهلة ومن قاربهم من بطون العرب، وصفته انه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيأة التاج[1] وكان بتبالة نبين مكة واليمن، وله بيت يحج اليه على أربع مراحل من: مكة، وكانت تعظمه وتهدي له خثعم ودوس. وبقي قائماً حتى جاء الاسلام، فهدمه جرير بن عبد الله البجلي بأمر الرسول ﷺ ولما خرج مع قومه لهدمه، قاتلته خثعم وباهلة، فقتل من سدنته من باهلة مئة رجل فانهزموا وهدم بنيان ذي الخلصة واضرم فيه النار فاحترق. وذكر ابن الكلبي أيضاً أن موضعه عتبة في باب مسجد تبالة وفي ذي الخلصة قال رجل منهم:

لو كنت يا ذا الخَلَصَة الموتورا   مثلي، وكان شيخك المقبوراً

لم تنه عن قتل العداة زورا

ويروي انه قال هذه الأبيات لأنه قتل أبوه، وأراد أن يأخذ بالثأر فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، ومن الناس من ينحلها أمرأ القيس بن حجر الكندي[2] وهناك روايات جعلت ذا الخلصة كعبة اليمامة ـ وهو صنم تعبدت له عدة قبائل تحج اليه وتنذر له.

سعد:

وسعد صنم بساحل جده، لبني مالك ابن كنانة، وكان صخرة طويلة. وذهب ابن اسحق إلى انه في موضع قفر[3]. وقد أورد الاخباريون عنه هذه القصة (أقبل رجل منهم بابل له ليقفها عليه، فيتبرك بذلك فيها. فلما أدناها منه نفرت، وكان يهرق عليه الدماء[4] فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه، واسف فتناول حجراً فرماه به وقال: «لا بارك الله فيك الهاً انفرت علي ابلي» ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول:

---

(1) الأصنام للكلبي ص 34 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 207.

(2) سيرة ابن هشام 1/ 91.

(3) الأصنام ص 36.

(4) زيادة عن الألوسي.

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعي لغي ولا رشد[1]

ولعل هذه الأبيات التي رواها الاخباريون، هي التي حفظت لنا اسم هذا الصنم.

ذو الكفين:

وهناك صنم عرف عند الاخباريين بذي الكفين، وكان لدوس، وقد ظل قائماً إلى أيام الرسول ﷺ فازيل مع الكثير من الأصنام، وكما يظهر من الاسم ان هذا الاله لا ينتسب إلى صخرة أو مكان، وإنما ينتسب إلى عضو في جسم الانسان. ويظهر انه كان مصنوعاً من الخشب لقول ينسب إلى الطفيل بن عمر الدوسي:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
إني حشوت النار في فؤادكا[2]

أقيصر:

هو صنم قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان، وكان في مشارف الشام، ويروي ابن الكلبي انهم كانوا يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه، ألقى مع كل شعره قره (قبضة) من دقيق. فكانت هوازن تنتابهم في ذلك، فإن أدركه قبل أن يلقي القرة مع الشعر قال:

أعطينه فاني من هوازن ضارع

وقد أشار بالجاحظ في كتاب البخلاء ص 237 فقال: قال ابن الكلبي عيرت هوازن وأسد باكل القرة، وهو سوق القمل. وكان ناس من الفقراء البائسين وفيهم من قيس وأسد، يأخذون ذلك الشعر بدقيقه، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق،

---

(1) الأصنام ص 37 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 208 ـ تاج العروس ج 2 ص 378. (لا تدعو بدل لا يدعي).

(2) الأصنام ص 37 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 209 ـ السيرة ج 1 ص 385.

وأنشد لمعاوية الجرمي في هجائهم:

ألم تر جرماً انجدت وابن بجرة   مع الشعر في قص الملبد شارع؟
إذا قرة جاءت يقول. أصب بها   سوى القمل، إني من هوازن ضارع[1]

نلاحظ أن جميع هذه الآلهة على اختلافها ورتبها، كانوا يقدمون لها الذبائح والهدايا.

ذو الشرى:

وذو الشرى هذا إله لبني الحارث بن يشكر بن مبشر. وله يقول أحد الشعراء:

إذن لحللنا حول ما دون ذي الشرى   وشبح الصدى منا خميس عرمرم[2]

وقد ورد لهذا الصنم ذكر في السيرة، وهو مكان تقديس واعظام، لما له من ثقة في قلوب الجاهليين، وعلى الأخص عند الطفيل بن عمرو الدويسي. قال ابن اسحق: ثم اتتني صاحبتي، فقلت اليك عني، فلست منك ولست مني، قالت لم بابي أنت وأمي، قد فرق بيني وبينك الاسلام، قالت فديني دينك، قال. فاذهبي إلى حمى ذو الشرى فتطهري منه. قال. وكان ذي الشرى صنماً لدوس وكان الحمى حمى به (وشل)[3] من ماء يهبط من الجبل. قال فقلت بابي انت وأمي أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ قال: لا، أنا ضامن لذلك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الاسلام فاسلمت.

وقد ورد هذا الصنم مع جملة الاصنام التي حدثنا عنها برندن في تاريخ ثمود[4] فقال عن ذي الشرى: وهي في الأصل شرى وهي مرتفع جبلي في جنوب البتراء، وهي اله النبطيين وقد اتخذه الصفويين أيضاً إله السماء ونعلم أن صنم شرى موجود في البتراء على شكل حجر مربع أسود، تذبح عليه الضحايا والعتائر، ولهذا المعبود مذبح آخر، في دومة الجندل.

---

(1) ابن الكلبي ص 48 ـ البخلاء للجاحظ ص 237.

(2) ابن الكلبي ص 37 ـ السيرة ج 1 ص 384.

(3) الوشل. الماء القليل.

(4) تاريخ ثمود للعالم برندن ص 95.

أما الصفويون فقد مثلوه على شكل رجل له لحية طويلة وعلى رأسه قبعة. وكذلك هو شأن النبطيين فقد عبدوه وقدسوه وسموا عبيداً له وهو عندهم اله السلام.

ان عبيد العادات لا ينظرون نظرة صائبة إلى نتيجة أعمالهم، ولا يفكرون تفكيراً سليماً لما يرمون اليه، وان فكروا فهم لا يحسنون الخروج من تلك الحلقة الضيقة المحدودة التي يجولون داخلها. حتى قبيل الاسلام، وأول دخولهم في الاسلام، ما زالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم القديمة، فطفيل بن عمرو الدوسي لم يرض دخول زوجته في الاسلام الا أن تذهب إلى الصنم ذي الشرى وتغتسل بمائه، حتى تتطهر من أدران الجاهلية وأوهامها. وطفيل هذا لا يدري انه يبعد كل البعد عن الاسلام، الحق الواضح المشرق الذي يهدي من أراد بكل رضى وطواعية. ولكنها الحماقة الجاهلية التي جعلت عرب الجاهلية يضيعون في أوهامهم، ويجترون عظمة ماضيهم من ثأر دام وحروب طاحنة.

نهم:

وأما صنم مزينة، فهو نهم، كان سادنه خزاعي بن عبد نهم من مزينة، فلما سمع بالنبي ﷺ أعلن إسلامه وهجم إلى الصنم فكسره وأنشأ يقول:

ذهبت إلى نهم لاذبح عنده ... عتيرة نسك، كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها: ... أهذا اله أيكم ليس يعقل؟
أبيت، فديني اليوم دين محمد ... إله السماء الماجد المتفضل[1]

وله يقول أمية بن الاسكر:

إذا لقيت راعيين في غنم ... استدين يحلفان بنهم
بينهما اشلاء لحم مقتسم، ... فامض، ولا يأخذك باللحم القرم[2]

وقد سمي بنهم عدة رجال عرفوا باسم عبد نهم.

(1) ابن الكلبي ص 39 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 210.

(2) يحلفان. الأصح يحلقان. والقرم الميل الشديد للأكل.

رئام:

وكان لحمير أيضاً بيت بصنعاء، يقال له رئام، يعظمونه ويذبحون عنده الذبائح. وكانوا فيما يتوهمون يتكلمون منه. هذا وقد قال (الجاحظ في كتاب الحيوان الجزء السادس وفي بعض الرواية انهم كانوا يسمعون، في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة، وان خالد حين هدم العزى، رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الاعراب من العوام. وما اشك انه كان للسدنة حيل والطاف لمكان التكسب.

ان هذه المخاريق، لم ترق للجاحظ المفكر العاقل المنطقي، فقد وصفها انها أشبه بالحيل يتصنعها السدنة قصد كسب العيش، وهي فتنة تسري عند العوام من الناس. وقد كانت العرب تعظم هذا البيت وتنحر عنده، ولنا خير دليل على ذلك ما ورد في السيرة النبوية. قال ابن اسحق. وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه[1] وينحرون عنده ويكلمون منه اذ كانوا على شركهم.

فقال الحبران لتبع انما هو شيطان يفتنهم، بذلك فخل بيننا وبينه، قال: فشأنكما به، فاستخرجا منه، فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبحاه، ثم هدما ذلك البيت.

وهناك خمسة أصنام ورد ذكرها في القرآن الكريم كان يعبدها قوم نوح وهي: ود ـ وسواع ـ يغوث ـ يعوق ـ ونسر. فأخذت كل قبيلة الهاً يروق لها شكله ومعناه. فاتخذت كلب . . . ودا بدومة الجندل. واتخذت مذحج. يغوث وقال الشاعر:

حياك ود فانا لا يحل لنا   لهو النساء وان الدين قد زعما

وقال آخر:

وسار بنا يغوث إلى مراد   فناجزناهم قبل الصباح

واتخذت جثوان يعوق. فكان بقرية لهم يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة.

(1) السيرة ج 1 ص 27 ـ ورئام مأخوذ من رأم الأنثى ولدها، وذلك إذا عطفت عليه فهو بيت الرحمة التي كانوا يلتمسونها. الأصنام للكلبي ص 11، ريام.

واتخذت حمير نسراً. فعبدوه بأرض يقال لها بخلع. ولم يسمع ابن الكلبي ان حمير قد سمت به أحداً أو أن أحداً قال فيه شعراً، واما سواع فقد اتخذوه بأرض لهم تدعى ينبع وهي عرض من أعراض المدينة وسدنته بنو لحيان.

هذه الأصنام الخمسة ذكرها الله عز وجل في كتابه، فيما أنزل على نبيه نوح... **﴿رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد اضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين الا ضلالا﴾**[1].

عميانس:

هو صنم خولان موضعه في أرض خولان[2]، كانت تقدم له في كل عام، نصيبه من الانعام والحروث وذكر ابن الكلبي ان الذين تعبدوا له، هم بطن منهم يقال لهم (آدوم) وهم (الاسوم) وفيهم نزلت الآية... **﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً﴾**، فقالوا: (هذا لله، بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون)[3] كانوا يقسمون له من مواشيهم حتى تبارك ومن زروعهم وأشجارهم حتى تزيد، وتعطي عطاء مباركاً، ولكنهم لم يحسنوا القَسمة، إذ كانوا يجورون على حصة الاله، فيأخذون ما ليس لهم. ثم يزيد ابن الكلبي، انه وقع في السيرة على عبارة هذا نصها... عم انس.

أضلهم صنمهم عم انس كانوا إذا ما الغيث عنهم احتبس
توسلوا اليه بالذبائح ان يمطروا واعظم القبائح
إذ جعلوا له ولله نصيب من مالهم. وان تغيب النصيب
أعطي للصنم حظ الاله وما له لم يعط للاله

كان لكل قبيلة اله، ومن واجبها تعظيمه والحفاظ عليه، وعلى الأخص

(1) سورة نوح الآية 23 ثم كتاب الأصنام ص 55 وما بعدها. وص 10 ـ 11.
(2) الأصنام ص 43 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 211.
(3) تاريخ العرب ج 5 ص 88.

أثناء الحرب، إذ لما يخطف الاله تسقط هيبة القبيلة وتهدر كرامتها، ثم تعمد إلى إيجاد اله جديد، تستعين به في شؤونها الدنيوية. كما حدث لجديلة طيء في صنمها، إذ أخذته منهم بنو أسد، فاستبدلوه بصنم جديد يقال له (اليعبوب)، وقد ورد ذكره في شعر لعبيد...

فتبدلوا اليعبوب بعد الههم صنماً فقروا يا جديل واعذبوا[1]

عوض:

... فالأعشى يقسم بعوض معتبراً انه الدهر[2] وعوض هذا هو صنم من أصنام بكر بن وائل، وقد ذكر مع الصنم سعير في بيت شعر نسب للاعشى يقول:

حلفت بمائرات حول عوض وانصاب تركن لدى السعير

سعير:

وسعير هذا هو صنم عنزة[3] كان الناس يحجون اليه، ويطوفون حوله ويعترون العتائر له. وقد ورد في شعر لجعفر بن الخلاس (الكلبي، وكان راكباً ناقة له فنفرت لكثرة العتائر التي كانت قد صرعت حول الصنم) فقال...

نفرت قلوصي من عتائر صرعت حول السعير تزوره ابنا يقدم

وجموع يذكر مهطعين جنابه ما ان يحير اليهم بتكلم

وبين أسماء الرجال أناس عرفوا بـ (سعير)

عائم:

وكان لازد السراة صنم يقال له عائم. وله يقول زيد الخيل، وهو زيد الخيل الطائي.

تخبر من لاقيت ان قد هزمتهم ولم تدر ما سيماهم، لا، وعائم[4]

(1) الأصنام ص 63 ـ بلوغ الارب ص 211 أعذبوا أي لا تأكلوا ولا تشربوا.
(2) المجاني الحديثة ص 243 ـ بيت 50 ـ الأعشى الأكبر ـ الأصنام ص 110.
(3) الأصنام ص 41 ـ بلوغ الارب ج 2 ص 210.
(4) الأصنام ص 40.

. . . . والأصنام عند العرب أكثر من أن تحصى وتعد، فقد ذكرت أهمها وسوف نأتي على بعض منها سراعاً ذاكرين. . .

(كثرى) وهي من الأصنام المنسوبة إلى طسم وجديس وقد ظل باقياً إلى أيام الرسول ﷺ حتى كسره نهشل بن عرعرة[1] ولحق بالنبي،

(المدان) واما المدان، فصنم من أصنام أهل الحجاز وبه سمي جملة رجال عرفوا بـ (عبد المدان)[2].

(مرحب) هو من أصنام حضرموت، وبه سمي ذو مرحب سادن هذا الصنم وحافظه.

(يا ليل) اسم صنم كذلك أضيف اليه فقيل عبد يا ليل، كما قيل عبد يغوث، ويستدل من بعض الاسماء المركبة ان هناك بعض الأصنام لم يأت ابن الكلبي على ذكرها: من عبد الثريا وعبد نجم فمن الممكن أن الثريا والنجم كانا صنمين معبودين في الجاهلية. كما اننا نستنتج من الآية **﴿وانه هو رب الشعرى﴾**[3] ان الجاهليين عبدوا الشعرى وهي من جملة أصنامهم، حتى أتى القرآن الكريم وأراد افهامهم ان الشعري ليست ربا، وإنما هي جرم مخلوق، وان الله هو رب الشعرى، ورب جميع المخلوقات.

والعرب في الجاهلية لم تستطع ان تبقى بلا رب يتباركون منه، ويتقربون اليه زلفى. وعن أبي رجاء العطاري قال: لما بعث النبي ﷺ فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب، فلحقنا بالنار وقال: وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه، نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به.

وقال أيضاً: كنا نعمد إلى الرمل، فنجمعه ونحلب عليه فنعبده، وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه. وقد يضيع معبودهم فتهتز أعصاب القبيلة، ويبدأ السعي الحثيث لايجاد إله جديد. كما يروي عن ابي عثمان النهدي يقول: «كنا في الجاهلية نعبد حجراً، فسمعنا منادياً ينادي. . .

---

(1) الأصنام ص 110 وكثرى مثل سكرى.

(2) الأصنام ص 11 - تاج العروس ج 9 ص 342 وما بعدها.

(3) سورة النجم الآية 49.

يا أهل الرجال، إن ربكم قد هلك، فالتمسوا رباً قال: فخرجنا كل صعب وذلول، فبينا نحن كذلك نطلبه، إذ نحن بمناد ينادي، انا قد وجدنا ربكم أو شبهه.

وإذا حجر فنحرنا عليه الجزور[1].

مما يظهر أن ذلك النصب الذي سموه ربا، كان حجراً عادياً غير مميز، حتى أضاعوه، وقد اختل نظام الأمن، ودبت الفوضى في ربوعهم، وساد القلق جميع النفوس حتى وجدوا حجراً مشابهاً في الصحراء، فعبدوه وساد الأمن والهدوء.

... فكأن الرب عند الجاهلية، بمثابة الرمز عند الدولة في عصرنا الحاضر. فلا يجوز لأي قبيلة أن تعيش بلا رب أو رمز معين، يميزها عن سائر القبائل الأخرى، ومن أوجب واجباتها الذود عن عنوانها (الرب أو الصنم) ومجدها وجبروتها فتذبح له العتائر، وتحمي له الحمى، وتقدم له الهدايا والنذور، وتضع تحت خدمته السدنة، وتجعل له نصيباً في حرثها ومواشيها.

وما أهمله ابن الكلبي من ذكر الاصنام، نجده في تاريخ ثمود للعالم (برندن) وسوف نذكره تباعاً:

أبو علي...[2]

وهو اسم قديس قديم جداً. ولكن قدسيته ما عتمت ان ذابت ابان التاريخ الكتابي، وان هذا الاسم نلمس له بقايا أثر في أسماء العلم حتى اليوم.

أم علي...[3]

يفيد هذا الاسم عن قديسة قديمة جداً، اتخذت من إحدى الكواكب، وقد اختفت من بين أسماء المعبودات، ولا نجدها إلا في أسماء العلم، ونعلم

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 211.
(2) تاريخ ثمود ص 89.
(3) تاريخ ثمود ص 94.

أيضاً أن بعض الفئات الشيعية اتخذت من الخليفة (علي) (رب العرب) فهم يعتبرونه إله الرعد. ففي قبيلة ثمود كما في الجنوب العربي أسماء العلم (أم علي وعلي) هي التي بقيت لتدلنا على الماضي البعيد.

أيلا . . .(1)

وهو اله يطلب منه القوة والشجاعة في الحرب، كما انه يبعث الفرح والسرور في قلوب عابديه. وهذا القديس يشترك فيه اليهود والنصارى والمسلمون. فالدين واحد، والله للجميع وقد وصفه القرآن الكريم: برب العالمين.

أوام. . . .(2)

وهي تفيد العطش ومن اسمها لا يمكننا فهم خصائصها الالهية، وقد وجد مرة واحدة في ثمود، ولا ندري إن كان إسم في الأصل، أم اسم اله يعبد.

أحور . . .(3)

وهو اسم كوكب يشبه (جوبتر) وقد عرف في ثمود (عبر احور)

اله الاباء . . .(4)

في الانجيل وجد اسم هذا الاله، وقد عرف في كثير من الكتب الدينية، تحت الاسم المختصر (Sadday).

ام عثت. . .(5)

(أو ام عتر) انتشر هذا الاسم في جنوب الجزيرة، وهي اله سماوي، ومنها الالهة المعبودة بمنبج اسمها عتر غتيس.

---

(1) تاريخ ثمود ص 91.
(2) تاريخ ثمود ص 93.
(3) تاريخ ثمود ص 93.
(4) تاريخ ثمود ص 93.
(5) تاريخ ثمود ص 94.

البرق...[1]

يفيد هذا المعبود، الصاعقة، فهي بذلك اله سماوي، أما في ثمود فقد عرف باسمين علمين هما. البراق وذو البرق.

جد (حظ)...[2]

وقد ظهر في ثمود، في أسماء العلم التي تشير إلى وجوده.

دائن...[3]

يقرب هذا الاسم من اسم معبود عند العبرانيين (dsn القوى) وما عرف بين أفراد قبيلة ثمود، أشخاص سموا باسمه وله ميزات عديدة، إذ يطلب منه الهبات والخصب والفرح ثم شقاء وإبادة العدو. كما اختص أيضاً بصفة الملك. وقد انتشر اسمه في وسط الجزيرة العربية.

الهادي...[4]

واسمه يدل عليه، أي أنه يهدي الناس. وقد منح صفة الاله السماوي، واختص باللمعان والبريق.

ود...[5]

ويعني المحبة والصداقة وهو معروف عند جميع القبائل العربية، كما عرف أن العرب اختصوه بمذبح في دومة الجندل، ويعرف عندهم بالرجل السعيد. ورمزوا اليه بصورة انسان يحمل سيفاً وقوساً. وقد عرفته ثمود وسمت به، وهو عندها مصدر الغيث والأولاد.

حجر...[6]

وهو اله عرفته ثمود وسمت باسمه (ابن الحجر)

---

(1) تاريخ ثمود ص 94.
(2) تاريخ ثمود ص 95.
(3) تاريخ ثمود ص 95.
(4) تاريخ ثمود ص 97.
(5) تاريخ ثمود ص 98.
(6) تاريخ ثمود ص 99.

حول. . .[1]

إله سماوي عرفته سبأ، وهو شبيه باله (Sîn القمر).

حليم. . .[2]

يفيد معنى الحسن (الجيد) عبدته قبيلة باقل، كما سمت به ثمود عبد الحليم.

الطنف. . .[3]

ويفيد كل شيء ظاهر، وهو قسم بارز من جبل، وقد حول إلى حجر بارز يطلب منه الغزارة والخير العميم.

يهوى. . .[4]

وهو الاله المعروف عند اليهود، وقد سمى به اللحيانيون وعرفته ثمود باسم (السيد).

يغوث. . .[5]

وهو الذي يساعد، عرفه العرب وقدموا له الذبائح في مكانه المعروف في شمال اليمن رمز اليه بصورة أسد.

ولا ندري ما ان كنا اليوم نضع تمثالاً له فوق الباب الخارجي من بيوتنا، ليحرسنا في الليل ويساعدنا في درء العدو، أم لهيبته وصورته الجميلة؟

ملك. . .[6]

يقول: ستاركي: ان اسمه يقرب إلى أصل التسمية وهي الملك المقاتل منها إلى كلمة إله. ولا نبعد عن الحقيقة إذا قارناه مع العرب (مالوش) اله

---

(1) تاريخ ثمود ص 99.
(2) تاريخ ثمود ص 99.
(3) تاريخ ثمود ص 100.
(4) تاريخ ثمود ص 100.
(5) تاريخ ثمود ص 100.
(6) تاريخ ثمود ص 102.

الكنعانيين. كانت ثمود تطلب منه الهدوء والدفاع والمساعدة. ويمكننا بعد ذلك ان نعتبره إلهاً سماوياً.

منضح(1)

وهو اله الري، وهذا يعود إلى أصل تسميته، إذ أن الناضح هي الناقة التي تجبر الحبل من البئر عند سقاية المواشي. ومنضح هذا يرمز اليه الدفاع، أو بالأحرى هو الاله المدافع، وهي صفة ترافق كل قديس.

مناف...(2)

وتفيد عن مرتفع عال، وهي إحدى قديسات مكة، أما النساء في حالة الحيض، فلا تستطعن الاقراب منها، ونجد اسمها عند قبائل الصفويين واللحيانيين، وفي حوران نعثر على فندق سمي باسمها، وقد جمع ثروة كبيرة بفضل اسمها الخير، وهي على صورة امرأة جفونها طويلة، وفي رقبتها عقد معروف عند النساء السوريات. وهي أشبه بالآلهة السماوية وقد عرفتها ثمود اله الثروة والمساعدة.

نهى...(3)

ويفيد هذا القديس (العقل) وهو اله معروف في قبيلة ثمود. يستعينون به وقت الضيق ويصفونه بالعظمة والمعرفة والابوة وقد كتبوا عليه: صداقة - عطف - مساعدة - وتقع تحت حماه المواشي والقرى والقبائل والبلاد بكاملها كما كانوا يستدرون منه القوة والشجاعة والدفاع والغنى والصبر والغذاء والمطر والراحة والمحبة والرحمة والسلام والسعادة والهناء فقط. ويعتبره نلسن (Nelsen) اله سماوياً.

ستار...(4)

يفيد هذا القديس انه يستر ويحفظ، وبالرغم من عدم وروده في الاصنام

---

(1) تاريخ ثمود ص 102.
(2) تاريخ ثمود ص 103.
(3) تاريخ ثمود ص 104.
(4) تاريخ ثمود ص 107.

لابن الكلبي، هو من عداد الاصنام التي قدسها العرب، كما انه يوجد هذا الاسم لاسماء العلم في لبنان وغيره من الاقطار العربية كما سمت به ثمود أيضاً. وله عبيد تسموا باسمه: عبد الستار.

عطر...[1]

واسمه يدل عليه، وهو القديس الذي يحب الرائحة الطيبة.

عم...[2]

قديس سماوي عند ثمود، كبير وذكي. من صفاته انه يعطف على عابديه، فينقذ ويعطي ويعلم ويشفي وهو من جملة الآلهة السماوية.

عس...[3]

وهو الذي يدور في الليل. عبدته ثمود وسمت به، وهو إله سماوي، والعس هو حارس الليل. كما يقال عس الذئب أي طاف في الليل ليشم رائحة فريسته. وهذا الاسم مختص بالليل قال تعالى: **﴿والليل إذا عسعس﴾**.

قين...[4]

ويعني الحداد الماهر، وهو شبيه باله البابليين (Quênu)

رحيم...[5]

وهو الذي يرحم وقد لقب بالحلو ويرادفه حليم. اشتهر بعبادته حنيفة وباقل، وسمت به ثمود. واننا نلمس أثراً له بقي منذ الزمن البعيد عند الحمدانيين في حلب.

راعت...[6]

ويعني اللطف والجمال، وقد اشتهرت بعبادته سبأ، وهو في نظرهم

---

(1) تاريخ ثمود ص 108.
(2) تاريخ ثمود ص 108.
(3) تاريخ ثمود ص 109.
(4) تاريخ ثمود ص 111.
(5) تاريخ ثمود ص 111.
(6) تاريخ ثمود ص 212.

يحدث الخوف، واسمه يدل عليه وقد وجد عند ثمود راعت هو الرب والذي يختص براعت (وشبيه براعت) (رضا وتعني الجلال).

وقد دخل هذا القديس البلاد العربية، كما دخل ناهي على يد الملك سنحاريب. وبقي هذا القديس حتى ظهور الاسلام فكان النبطيون يعتبرونه مذكراً، أما الثموديون فهو في نظرهم مؤنثاً، وقد رمزوا اليه بصورة امرأة عارية، تمسك بيديها شعرها الطويل، بشكل هلال فوق رأسها، وعلى كتفها الايمن، تحمل لوحة مستديرة مسننة رمز الشمس. وأكثر العلماء يعتبرونها اله سماوياً، وقد اختلف في جنسها ودار الجدل حولها.

يظهر لنا من دراسة أسماء الاصنام التي مرت ان البعض منها أسماء أجرام سماوية مثل شمس وقمر والشعري، والبعض الآخر ذو معان مجردة، مثل:

ودومناة وما شابه ذلك، والبعض أسماء حيوانات مثل نسر وأسد... والبعض أسماء أصنام منسوبة إلى مواضع، مثل ذي الشرى وذي الخلصة، وقسم منها يمثل بعض أجزاء انسان مثل ذي الكفين.

وقد نجد بعض اسماء أصنام مشتركة. عند جميع الشعوب. فالشعوب السامية كانت تعبد إلهاً واحداً هو ايل، الذي تحرف اسمه فصار (يهوى) (ويهوه) عند العبرانيين (اللات) و(الله) وإله عند العرب والاصل عند الجميع هو الاله (ايل).

تصور الناس للإله:

وقد تختلف نظرة البشر إلى الخلق وإلى تصور الاله، باختلاف التطور الاجتماعي والنمو العقلي، فهي عند الشعوب البدائية في شكل يختلف عنه عند الشعوب المتحضرة، كما وان للاقليم الجغرافي تأثيره الواضح في طرق التفكير، وأساليب التعبير عن الذخائر الفكرية.

فالطبيعة الجغرافية للعرب في الجاهلية، حيث الرمال الواسعة والمياه القليلة، كان لها الأثر البارز في نفسية العرب آنذاك. فكم من المعارك والحروب كانت تحصل بسبب التزاحم على المياه والكلاء، والأشجار المثمرة والظليلة كانت حلم البدوي الذي ما بعده حلم، أما الجبال الشاهقة، والقمم

الباسقة، والأودية الخضراء، والهضاب الزاهرة، لم تكن من نصيب الجاهليين، ولم يذخر بها خيالهم المبدع وقريحتهم الخلاقة. وأما البحر وما يوحي للانسان من تصورات حالمة، وأفكار هادئة، وتخيلات موحية تفيض بالمتعة والاطمئنان، كذلك أيضاً لم نجد لها أثراً في التراث الأدبي الجاهلي. وأما الأنهار المتدفقة، المتحركة، التي توحي للانسان إيحاء حياً جميلاً، والرياض الغناء مأوى البلابل المغردة، كلها مصادر إلهام للخير والعطاء، لم نجد لها ظلاً في دواوين الشعراء الجاهليين.

إن ما ذكرنا من هبات طبيعية، لم نجد مثلها في الطبيعة الجاهلية. وهذا لا يعني أن الجاهلي إذا لم يحصل على تلك الهبات التي ذكرها، لا يستطيع أن يعطي أو انه يجمد خياله عن العطاء، ولكنه يعطي بما يحس ويشعر من المحيط الذي يعيش فيه. فالانسان هو ابن البيئة التي يعيشها، وان لها تأثيراً واضحاً في جميع انتاجه الفكري، فهي كالمرآة، تعكس صورة صادقة عما يجول في داخل ساكنيها.

فالأرض السهل المنبسطة التي تخلو من الجبال الصعبة والمسالك الضيقة الوعرة، يسهل على الانسان قطعها، وبالتالي يسهل عليه قطع حياته الصعبة، وحل مشاكله بهدوء وسلام فيها.

أما الاقليم الجبلي الذي تكلله الصخور الراسية، والجبال التي تشده وتثبته من أعماق الوادي إلى القمم الشامخة، والهواء الجليدي الصحي، والمياه العذبة الباردة طبيعياً، والطرق الصعبة الحرجة، والبيوت المبنية من الحجارة الغليظة والطين الصفيق. فهذا النوع من البيئة لا يقدر أن يعيش فيها ساكن الاقليم السهلي: حتى ان الحيوانات السهلية لا تتمكن من العيش في المناطق الجبلية. فلا يتمكن (مركب الصحراء) أن يتسلق الجبال الوعرة، كما انه لا يقدر النسر أو الأسد من البقاء في السهل الواسع المكشوف. أما الانسان الذي يتعود على السكنى في منطقة معينة من الأرض، يألف طبيعة هذه الأرض، فلا يقدر بعد ذلك أن يعيش في أرض مختلفة في مناخها، ومتباينة في تضاريسها وطبيعتها. فالجبلي لو هبط المدينة لما استطاع أن يخفف من أوتاره الصوتية العالية والمشبعة من الهواء البارد، والطبيعة القاسية ثم انه سرعان ما يضجر ويمل من الجلوس في مكان محدود، ولو كان ناعماً

ومريحاً. فهو يتوق إلى الأفق البعيد يمتع نظره، وهو يفضل الجو الطلق ليتكلم بأعلى صوته، ويميل إلى الجلوس تحت شجرة، أو على صخرة، أكثر بكثير من (الكراسي الهزازة، والفوتايات المخملية الناعمة). كما يروى أن أميراً حضرياً، أحب فتاة بدوية، وتزوج منها وبينما هما في جنينة القصر الزاهرة، جالسين على الأرائك المريحة، نظر الأمير إلى زوجته. فرآها ضائعة في خيالها الشريد، وكأنها تسترجع صور الماضي البعيد، فعجب للأمر وسألها، فتأوهت وأبدت آهات خفيفة، يكمن وراءها شبح الضجر واليأس، ثم ركزت بنظرها في مكان معين، وكأنها تنسج بنات أفكارها بخيوط ماضيها الحبيب وأجابت: تخطر لي الليالي الماضية، وتتوق نفسي إلى الأيام التي قضيتها بين أهلي، حيث نفترش الأرض بالجلود الصوفية أيام الشتاء البارد، حول المدخنة المتأججة بجمرات الحطب المؤنسة، ونتناول (النقل الطيب المشوي) فلم يفهم الأمير الحضري عن النقل القروي، حتى استقرت نفسه أخيراً بعد أن شرحت له الزوجة عن شجرة البلوط، وثمرها الشهي، الذي يفضل الكستناء ويزيده طعماً ونكهة في نظر (الست).

إن اختلاف طرق العيش، يقودنا إلى اختلاف طرق التفكير، لأن الحياة تترك رسوماً في نفس الانسان، وتطبعه طابعها الخاص المميز. والفرد يتأقلم مع الطبيعة التي تؤثر في نشأته، كما تؤثر في أخلاقه وتفكيره وعطائه. وقد قال علماء الاجتماع، إن أكثر سكان المناطق الحارة هم أقل تفكيراً وديناميكية من المناطق المتوسطة المعتدلة، كما أن الأرض المختلفة المناطق والتضاريس، والتي تحوي جبالاً وسهولاً ووديانا وبحاراً وهضاباً كما وصفنا، يختلف سكانها عن المناطق المتشابهة الصفات. وقد نجد في البيئة المتغيرة أشخاصاً يتحلون بمواهب مختلفة، وعادات مختلفة. أما البيئة المتشابهة فغالباً ما يكون سكانها متشابهين في أمزجتهم وأخلاقهم وطرق تفكيرهم[1].

تأثير البيئة على تفكير الانسان

والبيئة الجاهلية الصحراوية المتشابهة في أكثر مناطقها، أعطت على يد

---

(1) راجع للمؤلف علم الاجتماع الأدبي الفصل الأول.

مفكريها وأدبائها، نتاجاً أدبياً متشابه المواضيع. إذ أننا نجد الشاعر الجاهلي، يقف على المواضيع نفسها التي درج عليها غيره من الشعراء، سواء أكان من حيث الشكل، أو من حيث المحتوى.

والبيئة الجاهلية اليونانية التي تحوي الجبال الشاهقة، والبحار الواسعة، والأراضي الخصبة، ولدت مفكرين يتميزون عن سكان الصحراء في كل شيء، في تفكيرهم وخيالهم ومواهبهم وعاداتهم وأمزجتهم وجميع تصوراتهم.

لقد تصور العرب الله على غير تصور اليونانيين له، فآلهة العرب قوة عظيمة، يتوسلون اليها بشتى الطرق لارضائها، أما اليونانيون، فقد خلعوا على معبوداتهم الصفات البشرية، فالهم يحب ويكره، ويعطف ويأسى، ويرضى ويغضب، والالهة عندهم مصنفة تصنيفاً يشير إلى اختصاص كل فئة منها، بأعمال وصفات تختلف بها عن غيرها من الفئات الأخرى. فإله الخير غير إله الشر، وهذا غير إله الجمال والحب.

وسوف نسرد بإيجاز بعض العبادات عند الجاهليين، مرجحين الاسباب التي دعتهم إلى ذلك، بما للمحيط الجغرافي من تأثير واضح في توجيه تلك العبادات.

إذا نظرنا إلى البيئة الجاهلية بدقة، وإلى حياة العرب فيها، نرى أن حياتهم تلك غير مستقرة على حال، وغير منظمة ومنسقة في أكثر بقعها. ولنا أن نسأل عن أسباب هذه الفوضى وهذا التغيير المفاجئ في أحوالهم، الذي عبر عنه أحد الشعراء بقوله:

ما بين غمضة عين وانطباقتها يغير الله من حال إلى حال

فالمناخ عندهم غير مستقر على حال معين، والفصول الأربعة ليست كما عندنا نحن تبدأ وتنتهي بأوقات معينة دقيقة.

والعنصر المهم في حياتهم هو الماء، الذي سموه بأسماء شتى لحبهم له وشوقهم اليه. فلا يهطل في أوقات معينة، فيمكن أن تمطر السماء كل شهرين أو كل ستة أشهر أو كل عشرين شهراً أو أكثر. ودليلنا على ذلك ما يروى عن

الخليفة عمر ابن الخطاب انه تزوج فتاة عمرها سبعة أعوام، وان ام منظور ابن زبان حبلت به أربعة أعوام[1].

فاختلال مواعيد المطر، ومفاجأة الأنواء، قاد العرب في الجاهلية إلى زراعة غير مستقرة في الجزيرة العربية. لذلك انصرفوا إلى رعاية مواشيهم. فحياتهم متعلقة بحياة الحيوان، وحياة الحيوان متعلقة بالمطر والكلأ. وبعد ذلك لا يمكن أن نصل إلى معادلة نظامية في العصر الجاهلي. من هنا استعاراتهم المنتزعة من صميم الاقليم والمناخ. إذ قالوا: أثلج الله صدرك، سقاك ورعاك، برد مضجعك، أقر عينك.

وابن الرومي ما زال يذكر القديم ويتناول بعض تعابيره عملاً بوحي العادة. فيقول في رثاء ابنه:

علـيـك سـلام الله مـنـي تـحـيـة ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وقد اشتقوا اليُمْنَ من اليَمَن، والشؤمَ من الشام، لأن ريح اليمن ندى ومطر وريح الشام جاف ناشف.

بعد هذا نخلص إلى القول ان الاقليم الجغرافي يطبع المواطنين بطابع خاص مميز ويصبغ حياتهم بألوانه وصفاته، لأن الانسان يفكر بوحي من البيئة التي يعيش فيها، متأثراً بالعوامل الطبيعية الخاصة.

تقديس الظواهر الطبيعية

اهتم العرب في الجاهلية، بعبادة الظواهر الطبيعية وعلى الأخص البرق، مصدر الغيث. فعندما يمتنع المطر يسوقون العتائر إلى اله البرق، فيذبحونها على قدميه إرضاء له، ليرسل لهم المطر مدراراً، ثم يصلون صلاة الاستسقاء، علها تشفى غليلهم وتروي صدورهم وأراضيهم، فتخرج النبات والزروع حيث تكمن حياتهم وبقاؤهم.

ويروي الألوسي وكانت العرب إذا أجدبت أرضهم، وأمسكت السماء

(1) كان العام عند الجاهليين يبدأ بنزول المطر ويستمر حتى نزول المطر مرة ثانية وقد يطول هطول المطر عشرين شهراً أو ثلاثين. فيكون العام عامين أو عامين ونصف. . .

عنهم، وأرادوا أن يستمطروا، عمدوا إلى السلع والعشر، فحزموها وعقدوها في أذناب البقر، وأضرموا فيها النار، واتبعوها يدعون الله تعالى، ويستسقونه. وإنما يضرمون النيرات في أذناب البقر، تفاؤلاً للبرق[1].

وقد قال شاعر يعيب العرب فعلهم هذا.

لا درّ درُّ أناس خاب سعيهم   يستمطرون لدى الاعسار بالعُشَر
أجاعلٌ أنت بَيقوراً مسلَّعَةً   ذريعةً لك بين الله والمطر[2]

هذا، ولا يعجب الانسان أن يكون للمطر ـ وهو سر حياتهم ـ إله جدير العبادة.

فكرة تقديس الانسان:

كان للانسان في المجتمع الجاهلي تأثير واضح في العبادة والتقديس، فالرجل العظيم عندهم، ينظر اليه بعين الاعتبار والتقدير، حتى انهم يبالغون في إجلاله وتكريمه حتى العبادة. ومجتمع القربى عندهم هو أصل المجتمع الديني، والعصبية القبلية هي شيء مقدس، ورباط ديني وثيق. ولعل في قصة الأصنام الخمسة ـ ود ـ سواع ـ يغوث ـ يعوق ـ نسر، خير إشارة إلى هذا المعتقد إذ كانوا قوماً صالحين يقومون بكل أعمال البر والتقوى، فنحتوا لهم صورهم، وعبدوهم. ولنا أيضاً في حديث عامر بن الطفيل، برهان آخر على تعظيم الموتى عند عرب الجاهلية. قال أبو عبيدة (لما مات عامر بن طفيل بعد منصرفه عن النبي ﷺ نصبت عليه بنو عامر انصاباً ميلا في ميل حمى على قبره لا ينشر فيه ماشية، ولا يرعى لا يسلكه راكب أو ماش).

وكان رجل منهم غائباً يقال له حيان بن سلمى، فلما قدم قال (ما هذه الانصاب؟ قالوا: نصبناها حمى لقبر عامر الطفيل. فقال: ضيقتم على أبي علي. ان أبا علي بان من الناس بثلاث. كان لا يعطش حتى يعطش الجمل، ولا يضل حتى يضل النجم، ولا يجبن حتى يجبن السيل[3].

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 301. كان العرب في الجاهلية يصلون صلاة الاستسقاء لاله الخصب «صنم».

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 302 والذريعة: الوسيلة. والمسلعة: ثيران وحش علق عليها السلع.

(3) الأغاني ج 15 ص 139. بلوغ الارب ج 2 ص 131.

فالعرب عظموا ملوكهم تعظيم العبادة، ولا عجب فهم غير مرتبطين باله واحد، ولا يجمعهم دين واحد، والذي يحل محل كل هذا، هو أواصر القبيلة التي كانت مثال العروة الوثقى بينهم. ولماذا لا يعظمون سيد القبيلة ويرفعوه إلى مكان العبادة؟

وتجدر بنا الاشارة إلى عمرو بن لحي، وإلى ابتداعاته الدينية في الجاهلية، وصداها في قلوب العرب، فقد كان قوله فيهم، ديناً متبعاً، وذهب شرفه عندهم كل مذهب، حتى انه لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعمهم ويكسوهم في الموسم، ولا عجب من بدوي ليس عنده ديناً يربطه، أن يمتثل لمثل عمرو بن لحي. وبالاضافة إلى هذه الاسباب كان عمرو يتمتع بصفات خارقة، إذ كان له رئي من الجن، يأتيه بأخبار الغيب، يكنى أبا تمامة. وهو الذي قال له: (ايت ضف جدة، تجد فيها أصناماً معدة، فاوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب)[1].

ولا ننسى ما كان للكهنة من دور هام في السيطرة على أفكار الشعوب البدائية، واعتماد الجاهليين خاصة عليهم في جميع أمورهم المجهولة. فكان البدوي ينظر إلى الكاهن، نظرة تقديس وتعظيم حتى العبادة.

فكرة تقديس الحيوان:

ومن جملة مبتدعات هذا الكاهن الذي أشرنا اليه، عدا نصبه الأوثان، انه كان أول من بحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي. وقد أتينا على ذكر هذه الحيوانات في باب الأساطير الاجتماعية، وسوف أعيد تفسيرها بايجاز.

فالبحيرة ابنة السائبة والسائبة هي الناقة إذا تابعت بين عشر أناث ليس بينهن ذكر، سيبت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولا يشرب لبنها الا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى، شقت أذنها، ثم خلي سبيلها لاشعار آخر.

والوصيلة الشاة إذا اتأمت عشر أناث متتابعات، في خمسة أبطن، ليس

---

(1) الأصنام للكلبي ص 54.

بينهن ذكر، جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون أناثهم.

والحامي الفحل إذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمي ظهره فلم يركب ولم يجز وبره، وخلي في ابله يضرب فيها، لا ينتفع فيه غير ذلك[1].

إن هذه الحيوانات التي ذكرناها، لا يجوز أكلها أو شرب لبنها، أو جز صوفها، أو الانتفاع بها، بل هي حيوانات مقدسة وقد تلحق بهذه الحيوانات ماشية أخرى مقدسة، وهي التي ضلت الطريق، فالتجأت إلى حمى إله من الآلهة العديدة وفي سورة الانعام وردت آية تشير إلى هذه الحيوانات المقدسة عند عرب الجاهلية.

﴿وقالوا هذه انعام وحرف حجر لا يطعمها إلا من شاء، بزعمهم، وانعام حرمت ظهورها، وانعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾[2].

ولا ندري إذا كانت حيوانات العرب المقدسة في الجاهلية قد ارتفعت إلى مكانة عجل بني اسرائيل الذي ورد ذكره في القرآن **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار...﴾**[3].

وأكثر القبائل العربية سمت بأسماء الحيوانات حباً وتقديساً لها.

أما العقاد فيزيدنا علماً عن فكرة تقديس الحيوان فيقول: لقد ظن بعض علماء الانسان أن الطواطم هي طلائع الأديان بين الشعوب البدائية. ويزيد العقاد قول: وقد تحقق ان شعائر الطواطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية في اوستراليا، وافريقيا، والاميركتين، وبعض أقطار القارة الافريقية وجزائرها. فلا تزال في هذه القارة قبائل صغيرة وكبيرة تتخذ لها على الأكثر حيواناً، تجعله طوطما وتزعم انه اباً لها، وان اباها الأعلى قد حل فيه، وقد يكون

---

(1) السيرة ج 1 ص 89.

(2) سورة الأنعام الآية 138 ـ حجر : حرام. حرمت ظهورها: السوائب والبحائر والحوامي. وهم لا يذكرون اسم الله عليها في الذبح وإنما يذكرون اسماء الأصنام.

(3) الأعراف الآية 138.

الطوطم في بعض الحالات نباتاً أو حجراً يقدسونه كتقديس الانصاب عند العرب في الجاهلية.

وإذا اتخذت القبيلة طوطماً لها، حرمت قتله وأكله، وحرمت الزواج بين الذكور والاناث الذين ينتمون إلى ذلك الطوطم. وقد يكون للقبيلة الكبرى بطون متفرقة، تتعدد طواطمها، ويجوز الزواج بين المنتمين اليها، ولكنهم يحرمونه في الطوطم الكبير.

وقد وجد طائفة أخرى تخالف هذا الرأي، فترجح أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية، لأنها تنشأ بعد اتساع القبائل واعترافها بأنظمة الزواج وآداب المعاملات. وليست هذه المرحلة أولى المراحل في تطور الاعتقاد.

نستنتج من هذا، أن الناس قد عرفوا شيئاً يسمى الروح، يحل في جسد الحيوان، أو يتلبس به قبل أن يعرفوا الطوطمية. وارجح أن العرب من بين هؤلاء القبائل التي عرفت تقديس الاسلاف قبل معرفتها الطوطمية. وأظن أن الطوطمية لم تكن عند العرب في الجاهلية، وإنما دخلت عليهم في زمن متأخر، وليسوا هم أصحابها وان عرفوا تقديس الانسان والحيوان والنبات والاحجار.

فكرة تقديس النبات:

وليس بعيداً أن ينشأ في بلاد العرب تعظيم الأشجار، وأغلب بلادهم عقيم أجرد، قليل المياه، صحراوي المناخ. فالشجرة الخضراء تحميهم من لهيب الحر، وتغذيهم بثمرها الشهي، ونذكر على الأخص شجرة النخيل، التي تؤلف قواماً اقتصادياً هاماً من مقومات حياتهم، ولذلك قدست وعبدت. ولا بد من الاشارة إلى شجرة قريش العظيمة المقدسة. يقول ابن اسحق: (خرجنا مع رسول الله) ﷺ ونحن حديثو عهد بالجاهلية وكان كفار قريش لهم شجرة عظيمة (ذات أنواط): فتنادينا وقلنا للرسول اجعل لنا ذات أنواط مثلهم. فقال: انها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم[1] ولا شك أن ما خافه الرسول على المسلمين قد حدث فعلاً، إذ أن اتباع السنن أصبح فيما بعد من صلب

(1) السيرة ج 2 ص 442.

الدين تحت تأثير العادة. ولنا دليل آخر يرشدنا إلى اهتمام العرب بالاشجار وعبادتها للخليفة ابن الخطاب (رضي الله عنه) في شأن شجرة الحديبية. فلقد بلغه ان الناس يقصدون تلك الشجرة ويزورونها للتبرك منها. فخشي ان تعبد كما عبدت اللات والعزى، فأمر بقطعها، ولم يعد لها أثر ويرجح انها هي المعنية بالآية **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة﴾**[1].

والعزى كانت تعبد بشجرة مقدسة، يقول ابن الكلبي: فلما كان عام الفتح، دعا النبيﷺ خالد بن الوليد فقال: انطلق إلى شجرة ببطن نخلة، فاعضدها) فانطلق فأخذ دبيه فقتله، وكان سادنها[2] ومما يروى أيضاً أن هذه الشجرة تسكنها الشياطين، إذ كانوا يسمعون من داخلها صوت مغنية عذب، ومن الخطورة أن يقطع غصن واحد منها. لذلك كانوا يقدمون لها الضحايا ويعلقون اللحوم عليها حتى ترضى عنهم، وينام تحتها المرضى منهم، حتى تعيد لهم صحتهم وتشفيهم من مرضهم مهما كان صعباً[3].

وعلى ما يظهر ان تقديس الاشجار قد استمر شيء منه في بلاد العرب حتى أيامنا هذه، فشجرة السدر، والكافور يضعون بعضاً منها مع الماء المعد لغسل الميت، حتى تزيد في تطهيره وتكريمه.

وقد أشار المستشرق الكبير (فرنسيسكو كبريللي) في كتابه العرب[4]، عن فكرة تقديس العرب للنبات ص (50).

عبد العرب الظواهر الطبيعية، لما تلقى في نفوسهم من الرهبة والخوف، كالرعد والبرق، ولحاجتهم الماسة إلى البعض منها كالمطر، محي النفوس ومصدر الحياة. وعبدوا الانسان حباً به، لأنه يبعد عنهم الشر ويجلب لهم الخير، وخوفاً منه لأنه هو السيد المطاع الآمر الناهي، لا يستهان بحكمه ولا يرد له أمر. وعبدوا الحيوان مصدر حياتهم وأساس معيشتهم، فكرموا المنتج منه، وعظموه وعبدوه لحاجتهم إلى خيره، كالشاة والناقة... أما الحيوانات

---

(1) سورة الفتح الآية 18.

(2) الأصنام للكلبي ص 24.

(3) الأصنام للكلبي ص 25.

(4) العرب للعالم كبريللي ص 26.

المفترسة الضارة كالأسد والحية. . فعذرهم واضح في تقديسها إذ اتقوا شرها عن طريق العبادة، وسموا بها تكرماً لها وخوفاً منها، ظناً منهم أن المسمى باسم الحيوان المقصود يكسب قوته ويتمتع بسلطته. وعبدوا النبات وعلى الأخص الاشجار منها لحاجتهم الماسة إلى ظلها وأثمارها وخضرتها.

ثم عبروا عن كل هذه المعبودات اما بها خاصة، واما بأشباهها ونظائرها من تماثيل وأصنام. فالأصنام يعبرون بها عن الهتهم الخاصة العديدة، التي يتقربون اليها ويتوددون لها عن أي طريق، وبأية وسيلة. ويظهر جلياً، ان الغاية القصوى من عباداتها، يكمن وراء هدفين على الغالب: فقد عبدوا حباً بمنفعة من جهة، وخوفاً ورهبة من جهة اخرى فكل ما يفيد يجب أن يعبد، وكل ما هو مخيف كذلك توجب عبادته حسب ما تمليه عليهم تصوراتهم العقيمة، وأوهامهم الضالة.

فعبادتهم هذه هي بلا ريب عبادة غير صحيحة مزيفة، تبتعد كل البعد بجوهرها عن العبادات السماوية القويمة. ذلك أن العبادة الصحيحة هي التي لا تستند إلى منفعة تسدى، أو إلى عقوبة تطبق، إنما هي إيمان واعتقاد شريفين. هي التي عرف عنها الامام علي بن أبي طالب (ع) «ربي ما عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك، بل إنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

فعباد المنفعة هم تجار، وعباد الرهبة هم العبيد. وعلى حد قوله أيضاً «ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وان قوماً عبدوا الله محبة فتلك عبادة الاحرار» وهل من شك ان عبادة الاحرار هي العبادة الحق!

وإن ما ذكرنا من العبادات عند العرب في الجاهلية، وعن طرق عبادتها، لا يختص بالعرب دون سواهم، وإنما تشترك به جميع الشعوب البدائية، في أدوارها الحياتية الطفولية.

فالعرب عندهم من الجاهلية، والامم الأخرى عندها أيضاً من تلك الجاهلية نفسها.

ولكن الفرق يكمن في سرعة التخلص من أدران كل جاهلية، ومن تصوراتها العقيمة وأوهامها الباطلة. وما زالت خيوط تلك الجاهلية مستمرة

عند بعض الشعوب حتى عصرنا الحاضر، فهي إذن شيء نسبي بين مختلف الامم وليست محصورة بعصر معين وزمن محدود. وتظهر بوادرها بوضوح في عصرنا الحاضر حيث لم يبق لون من ألوان الجهل إلا سمعنا به وعشناه في أيامنا الصعبة هذه. عجل الله الفرج انه العزيز الجبار. إن هذه الجاهلية الحديثة هي أدهى وأخطر بكثير من الجاهلية القديمة.

الخاتمة

يتعثر الطفل أول نشأته، فيكبو عندما يحاول الانتصاب والوقوف، ويزل به القدم في محاولاته العديدة أول الأمر. أما طاقته الفكرية فتكون في دور وهمي تقليدي بدائي، إذ يتقبل الطفل كل ما يقال له، ويقلد جميع الناس في حركاتهم وأعمالهم، فيسير وراء غيره مترسماً خطاهم، عاملاً بايحاءاتهم ومن ثم يتعود على ما يحيط به، وتؤثر العادة في نفسه فلا يتمكن من تركها أو معاكستها فتصبح جزءاً من نفسه ويصبح هو بدوره عبداً لها.

وممن كسب الطفل عاداته؟ لا شك أن والديه في الدرجة الأولى هما المعلمان الأولان، فعن طريقهما وعملاً بارشاداتهما يحصل التقليد المتتابع الآلي. إنا وجدنا آباءنا على سنة وانا على هديهم لسائرون.

وكذلك هو شأن الشعوب البدائية في أطوارها الأولى، فكل شعب له تقاليد وطرق خاصة في حياته، وكل قبيلة لها عاداتها وتقاليدها التي تصبح فيما بعد عرفاً يعمل به ونظاماً يتمشى عليه. والشعب البدائي في دوره الطفولي تتعقد لديه الأمور ولا يجد منفذاً سهلاً وصحيحاً يخرج منه، فيعمد إلى تأويل الحلول التي تتوافق مع ذوقه السطحي وتفكيره الساذج، فيسطر[1] عن السبيل المستقيم ويدبِّج أحاديثه بمزخرف الكلام، إذ يطيل ويزيد في سرد القصص، ويبالغ في رواية الوقائع والحوادث حتى يخرجها بقالب شائق، يجذب الانظار، ويشنِّف الاسماع. فالكلام الكاذب عذب وان بعد عن الواقع، والحديث الباطل المنمق طيب عند البدائين، ولو لم يعبر تعبيراً صحيحاً عن

---

(1) تاج العروس ج 3 ص 267 ـ وسطر ابتعد عن السطر وضل عنه. والسطر قد يعني الخط في الكتابة وقد يعني الصف من الأشجار.

أصل واقعي. وما روايات ألف ليلة وليلة وقصص الزير سالم، إلا دليل معبر، ونماذج بيّنة، عن واقع الشعب الجاهلي، في دوره الطفولي وأساطيره وخرافاته. ويمكن لهذه الأساطير، أن تكون مبنية على بذور قديمة لها أصل معروف، كما يمكن أيضاً أن تنسج من خيوط الوهم ومن سدى الخيال فتختلق اختلاقاً، وتبرز إلى الوجود من أبوين عقيمين.

والجاهلية التي تعني التسرع في الأمور، وعدم الرصانة والوقار، والتي تبعد عن الحلم والتبصر، لم يتصف بها الشعب العربي في العصر الجاهلي وحده، بل هي صفة مشتركة عند جميع الشعوب في ذلك الطور الزمني من نشوء الأمم.

فالعرب عندهم جاهليتهم بأدرانها ورواسبها، وبقية الأمم عندهم أيضاً جاهليتهم بأوهامها وخرافاتها، وان اختلفت عن جاهلية العرب في الشكل، فقد تتفق معها في المحتوى. فالأساطير العربية لها صفاتها وميزاتها الخاصة، وهي مستوحاة من البيئة الجاهلية وملونة بألوانها. ولا ننسى ما للطبيعة من أثر في جميع التراث الأدبي الجاهلي.

فالبدوي يميل بطبعه إلى المادة، ويحب الطبيعة حب العاشق الولهان لحبيبته، وهي مركز التصور والمرح الذي تهيج فيه عواطفه، والسلطة الموحية التي يخضع امام سلطانها مستضعفاً قوته وعناده. فهو يلجأ إلى ظل شجرة في النهار، ويسافر على هدى القمر والنجوم في الليل، فالشجر ليس بشيء عزيز على قلبه فحسب، بل هو أنيسه وسميره، وهو أيضاً ذو حياة كحياته، يتحرك وينمو. ولكن ما هي الحياة في نظر البدوي التي توجد في الشجر، كما توجد في الحيوان جميعاً؟ هذا ما وقف أمامه حائراً لا يقوى على حل رموزه، ولا عجب لأن تصور الطبيعة وحدها في نظر عرب الجاهلية، حقيقة لا حقيقة بعدها. فتصور ما وراء الطبيعة شيء مجهول لم يرق للجاهليين، والروح موضوع غامض لا يعرف سرها، فمن العرب من ظن أنها تكمن في الدم، ومنهم من ظن أنها النفس الذي كان في باطن الجسم الانساني الذي منه يتنفس، ولذلك سموا المرأة نفساء. وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر، فإذا مات الانسان أو قتل، يأتي الطائر مطيفاً به، يصدح على قبره. وقد روى الألوسي في هذا الصدد: مما كانت العرب كالمجتمعة عليه (الهامه) وذلك

انهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت، أو قتيل يقتل، إلا وخرج من رأسه هامة، فإذا كان قتل ولم يؤخذ بثأره، نادت الهامة على قبره: أسقوني اسقوني وقال شاعر جاهلي:

يا عمرو الا تذر شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني[1]

كل هذا يرشدنا إلى أن العرب القدماء، بحثوا عن حقيقة الحياة، فدهشوا من مظاهرها دهشة الامم الهمجية، إذ لاحظوا ملاحظات عابرة، وأولوا الأمور بتفسيرات سطحية فقالوا:

إن الروح هي الدم، الروح هي النفس أو الهواء. ثم ذهبوا إلى حد أبعد فبالغوا في تصور النفس التي تتكون من الدم والهواء، حتى اعتقدوا أن طيراً من الطيور التي لها علامة التشاؤم وهذا الطير هو البومة، التي تمثل الخراب والفساد والموت عند العرب، وعند غيرهم من الأمم.

بعد هذا العرض البسيط يمكننا القول: إن العربي لم يتصور حقيقة الحياة خارجاً عن المادة، فلا نقدر أن نسلم انه عرف الحقيقة وراء الحجب الطبيعية، أو عرف الروح في عصر كانت الهامة تمثل الروح في تصوره.

ومن البديهي، أن البدوي يرى الشجر والحجر صامتين، ساكنين، ويرى في الحصان والجمل حياة وحركة، فيلاحظ ان الجماد شيء والحيوان شيء آخر. فالحياة عنده إذن عبارة عن الحركة التي هي ضد السكون، ولا غرو لأن الروح في الاسطورة العربية، كما أسلفنا، هي طائر تدركه الابصار، وتلمسه الايدي لا شيء فوق الطبيعة. وان هذا التصور ليس بوهم من أوهام خيال الشعراء، ولا من مولدات قرائحهم بل هو حقيقة لا شك فيها عند العرب جميعاً. وان تصور العرب العقيم للروح، ليس بشيء غريب خاص بهم، لأنه يوجد عند كل الامم في دور بداوتها.

ونلاحظ من جهة أخرى أن العرب في الجاهلية، كانت تعتقد بالجن والهواتف والغول، وهذا كله يدل على أنهم كانوا يعتقدون في شيء غير مادي. وهنا نصادف بعض الصعوبة في تفسير تكفير العرب، لأن هذا يخالف

---

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 311.

ما قلناه آنفاً في عقيدة العرب في الروح. ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن الجن والغول والغلاة وما أشبه ذلك ما هي إلا صنف من الحيوان في تصور العرب الجاهليين، ولا ننسى ما مر معنا من تقديس العرب للحيوان ـ لذلك نرى أن أكثر أسماء القبائل العربية، منسوبة إلى الحيوان كبني أسد ـ وبني فهد ـ وبني كلب ـ وبني عنز ـ وبني نمر ـ وبني ثعلب ـ وجراد ـ وذئب ـ ودب ـ وجحش ـ وغراب ـ وثور. . .

ولنا في أسطورة الثور وحمله الأرض على قرنيه، ثم أسطورة إشعال النار في أذناب البقر عندما يخسف القمر، خير دليل على نظرة العرب المقدسة لبعض الحيوانات. وكذلك حكايات مسخ الانسان حجراً أو شجراً أو حيواناً، كحكاية إساف ونائلة ومسخهما صنمين. وحكاية الضب وتحريم أكله.

وهكذا كثرت أساطير المسخ عند العرب، وكثرت معها النظريات. فمنهم من زعم أن المسخ لا يتناسل ولا يبقى، ومنهم من زعم أنه يبقى ويتناسل، حتى جعل الضب والأرانب والكلاب من أولاد تلك الأمم التي مسخت في هذه الصور[1] ولم يقف بهم الحد عند مثل هذه الخرافات بل كانوا يخالون أنهم يسمعون من أجواف الأوثان همهمة[2].

والانسان ابن الأرض عاش عليها، وأكل من خيراتها، ثم قضى ولم يفهم ما فيها وما عليها، فأخذ ينسج من بنات أفكاره ما يتوافق مع عقليته البسيطة الساذجة. نظر إلى عناصر الكون فعجز عن حل سرها وفهم كنهها، لذلك عمد إلى اختراع الأقاويل وتوليد الأساطير.

كانوا يخاطبون الجبل كما يخاطبون البشر، فيقولون اشرق يا ثبير كما نغير، وجبل أبي قبيس يزيل وجع الرأس عندهم ويمنع الصداع.

أما الشجر وخاصة النخل، فلم يكن أقل شأناً في حياة العرب الاجتماعية. فيفسرون سبب الحمل له على طريقتهم الخاصة. يروي القزويني فيقول: [3] لو قطع رأسها لهلكت، ولها غلاف كالمشيمة التي يكون الجنين

---

(1) الحيوان للجاحظ المجلد الرابع ص 23.
(2) الأصنام للكلبي ص 23.
(3) عجائب المخلوقات للقزويني ص 231.

فيها، ولو قطع منها غصن لا يرجع بدله كعضو الانسان، وعليها ليف كالشعر على الانسان. يروي أيضاً أنه إذا لم يثمر النخيل، يأخذ رجل فأساً، ويضرب به ويقول لغيره: اني أريد قطع هذه الشجرة لأنها لا تثمر، فيمسك بيده رجل آخر ويقول: لا تفعل فإنها شجرة حسنة واصبر عليها هذه السنة، فيضربها ضربتين أو ثلاثاً قال: فإذا فعل ذلك فإن الشجرة تنمو ثمراً كثيراً.

كما توهموا انهم إذا قاربوا بين ذكور النخل واناثها، فإنها يكثر حملها لأنها تستأنس بالمجاورة، وإذا قطع ألفها من الذكور، فلا تحمل شيئاً لفراقها. وللشجرة عندهم تقدير خاص، فهي رقيب المرأة وحارس لها في مدة غياب زوجها، لأنهم يرون انها تشعر مثلهم وتحس.

فكان إذا أراد أحدهم أن يسافر عن حليلته، عمد إلى هذه الشجرة وشد غصناً منها إلى الآخر وتركها، وبعد السفر ينظر إلى الغصنين، فإن كانا معقودين، استدل ان زوجته لم تخنه، وإلا يطردها من بيته لأنها خائنة[1] وقد أصبحت هذه العادة عندهم تقليداً من تقاليد العرب في الجاهلية، وهي تدعى الرتم.

أما بعض الأشجار فكانت عند العرب مأوى للشياطين، فخافوا من هذا النوع كشجرة الحماطة التي عبدوها ليتقوا شرها. وما العزى إلا شجرة كانت شيطانة، لذلك اتخذت من آلهة العرب المعظمة.

وهناك مذاهب شتى اعتنقها العرب على غير هدى أو بصيرة، تدل على حماقتهم وسوء استنتاجهم وعدم رويتهم. كانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شرير حل فيه، فيداوونه بما يطرد هذه الأرواح، أما إذا خافوا على الرجل الجنون، فينجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى فسرعان ما يبل ويشفى.

... والذي يبغي سفراً منهم أو دخول قرية، يخاف وباءها أو غولها، وقف على مدخلها قبل الدخول، ونهق نهيق الحمار، ثم يعلق كعب ارنب عوذة له، ورقية عن الوباء والجن، وسموا هذا النهيق التعشير.

والطفل الجميل الذي يخافون عليه من النظرة، يعلقون له سن ثعلب أو

---

(1) بلوغ الأرب ج 2 ص 216.

هرة، أما اللذيغ فلا ينفعه إلا تعليق الحلى والجلاجل، فإنه يفيق للحال من سكرته. وهكذا كان شأنهم في بعض تقاليدهم البدائية مثل مذهبهم في العر، ومذهبهم في العقر على القبور، وتسكين الناقة من النفار عندما يذكرون اسم امها، ووطأ المرأة المقلاة دم الشريف، ليعيش ولدها، واعتقادهم ان دم الرئيس يشفي من عضة الكلب. ولا ننسى اعتقادهم في أن ذكر الحبيب يزيل خدر الرجل، وان اكل لحم السباع يزيد في الشجاعة. أما إذا أراد أحدهم التخلص من رجل ثقيل مسافر، أوقد له النار خلفه فلا يعود. ومن مذاهبهم أيضاً أن الرجل المسافر من بلد إلى آخر لا يجوز له التلفت، فإنه إذا التفت عاد إلى بلده. ثم زعمهم اذا بثرت شفه الصبي يلم الخبز من الحي، ويلقيه للكلاب حتى يبرأ. والأجدر بالذكر للنساء خاصة وصف عمل المرأة إذا عسر عليها خاطب النكاح.

لكل مجتمع عاداته وتقاليده، وللمجتمع الجاهلي عاداته الخاصة التي تبين عن تعليل لقضاياه الحياتية. فيه من الحمق والتسرع ما يبعده عن المنطق السليم في عصرنا الحاضر فكل حركة لها عندهم مفهوم خاص، وكل إشارة لها تفسير غريب. فهم يتشاءمون من العطاس، وامرؤ القيس يغتدي الصيد باكراً قبل أن يتنبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً، فلا يتوفق في صيده.

كما حكي عن بعض الملوك ان مسامراً له عطس عطسة شديدة راعته، فغضب الملك وظهر غضبه على وجهه فخاف السمير وقال: والله ما تعمدت ذلك، ولكن هذا عطاسي: فقال: والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك، لاقتلنك، فقال اخرجني إلى الناس لعلي أجد من يشهد لي. فأخرجه وقد وكل به الأعوان، فوجد رجلاً فقال: يا سيدي نشدتك بالله ان كنت سمعت عطاسي يوماً، فلعلك تشهد لي به عند الملك: فقال: نعم أنا أشهد لك. فنهض معه وقال: أيها الملك انا أشهد أن هذا الرجل عطس يوماً فطار ضرس من أضراسه. فقال له الملك عد إلى حديثك ومجلسك[1].

نعم هذا ملك جاهلي، ابن بيئة جاهلية، فلا غرابة إذا نضح منه ما يتسم به عصره، وسار على هدى تقاليد بيئته وعاداتها كيفما كانت.

(1) بلوغ الارب ج 2 ص 332.

ومما يزيد في دهشتنا أن بعض المناطق الريفية عندنا نحن اليوم، يعيبون على الرجل إذا تثاءب، وقد يوجه اليه التأنيب والاهانة. فلكل عصر جاهلية، ولعصرنا أيضاً جاهليته. ولا نعدم وجود البعض من الناس يسير على عادات وتقاليد، ورثوها عن السلف، دون أن يميزوا في صحتها أو يحكموا عقلهم في نتائجها.

وقد يصل الانسان إلى نهاية مؤسفة، إذا أرخى لعاطفته العنان، وكبح لجام العقل. وبذلك نحصل على إنسان متقلب، لا يستقر على حال معين، ضعيف الارادة، سريع القطع والوصل في أموره، ينقصه الحكمة والروية. كيف لا وقد نجد أن الكثير الغالب من أهل ذلك العصر، يستعملون الخرزات، والاحجار، والرقي، والعزائم. فالعاشق له خرزة ليشفى وينسى، والمرأة لها خرزة تستعطف بها قلب زوجها، إن دب فيه الفتور والكره، وخرزة تشدها المرأة على خصرها فتمنع الحبل، ثم الرقي الذي يقرب البعيد ويبعد القريب، ويدفع الضرر ويجلب النفع، ويمنع من النظرة، ويكفينا شر الجان والغيلان والسعالي.

وأخيراً التمائم التي تمنع خطر الحياة وسمومها الوبيلة. وقد لا تنفع البعض على حد قول أبي ذويب:

وإذا المنية انشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع[1]

وكذلك أعمال أسطورية أكثر من أن تعد أو تحصى، تعطينا صورة صحيحة عن الانسان الجاهلي، نذكر منها: الضرب بالحصى، والخط على الرمل، والاستقسام بالأزلام، وزجر الطير، وإخراج النساء ليبلن بين الجحافل أثناء المعركة لتطفئ نار الحرب، وحمل الملوك على الأعناق إذا مرضوا.

والذي يظهر لنا وحشية الشعب الجاهلي، هو إقدامه على وأد البنات خوفاً من الفقر والعار، أو تشاؤماً من بعض علامات فيها، كالعيون الزرق، أو اللون الأسود... ثم إقدام الوالد أيضاً على ذبح ولده إذا بلغ بنوه العشرة. ولنا في قصة عبد الله بن عبد المطلب دليل واضح على ذلك.

---

(1) بلوغ الارب ج 3 ص 9.

أما تصور الجاهليين للالهة، وللشفعاء، والأصنام ولحروب تلك الآلهة، ووقوعها في الأسر، قصص وأخبار نستشفها من القرآن الكريم إشارات عابرة.

فالقرآن الكريم يشير إلى أنواع من الشرك، كان عليه الجاهليون، وفيه تعريف لمعنى الشرك في قوله تعالى: **﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾**[1].

وعبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة، والمعادن، أو الخشب، أو التراب، أو التمر، وقد ورد ذكر الاصنام هذه في باب الأساطير الدينية بتفصيل.

ومن أنواع الشرك أيضاً اعتقاد العرب بأن الجن هم شركاء الله **﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾**[2] ولا يكتفون باشراكهم بل يزيدون أن هذه الملائكة هي بنات الله. وفي آيات أخرى نرى أن العرب اتخذوا آلهة أخرى مع الله، كعبادة الكواكب والأجرام السماوية. فالكون بجماله ونجومه وليله ونهاره، وشمسه وقمره، لا بد أن يؤثر في نفوس الناس، وأن يحملهم على التفكير في كيفية نشوئه وحدوثه. وفي القرآن الكريم بعض الاشارات إلى الخلق والخالق للكون، وللانسان وللحيوان نزلت لتذكير القوم، ولفت نظرهم إلى شيء يعلمونه. ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك وينسبونه لغير الله، ومعنى هذا أن لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق، يظن انهم أخذوه عمن سبقهم من أهل الكتاب.

وقد تفلسف أهل الجاهلية، وعللوا أخذهم الاصنام، فقالوا: ان الله هو الذي خلق الكون وهو المهيمن على تصرفات عباده، ولكنهم اتخذوا الأولياء والشفعاء، واسطة تقربهم من الله زلفى **﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون﴾**[3] وقد نجد في أكثر من موضع، إشارات إلى الشفاعة والشفعاء في القرآن الكريم، منها الأصنام التي كانت تشفع بأهل الجاهلية في التقرب إلى

---

(1) سورة الأعراف الآية 191 ـ وما بعدها ـ سورة يونس الآية 18.

(2) سورة الأنعام الآية 101 ـ ثم سورة سبأ الآية 41.

(3) سورة الزمر الآية 3.

آلهتهم، باعتبار أنها رموز تمثل تلك الآلهة. وكانت الشفاعة عندهم بطرق عديدة: إما بالصلاة والأدعية، واما باتخاذ القديسين والرسل، وإما بتقديم القرابين والنذور إلى المعابد لتشفع لأصحابها لدى آلهتهم، في استجابة مطالبهم مهما كان نوعها.

هذا بالاضافة إلى أن تلك المعابد كانت تشترك في الحروب، فتدافع عن أهلها وتحامي عنهم. وطبيعي أن يكون لكل قبيلة إله، فأعداء القبيلة هم أعداء الصنم المعبود، وأعداء الصنم هم أعداء القبيلة. وعبادة الأصنام عند العرب هي عبادة موروثة، يرثها الأبناء عن الآباء، ولا يمكن لفرد واحد أن يغير صنمه بل ان هذا لرأي القبيلة بأسرها.

فيكون الصنم بهذا رمزاً لسياسة القبيلة. والرابطة التي تربط بين الأفراد. وفي معركة أحد المشهورة، التي جرت بين الاسلام والشرك، حمل أبو سفيان العزى واللات، وقدم على رأس المحاربين يحثهم على القتال، ويبعث في نفوسهم الحماسة ويستغيث باللات والعزى في الدفاع عن أتباعها. وقد كان يحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها حرصاً في المحافظة عليها، وإصابتها بأي سوء، ولطالما تعرضت هذه الأصنام إلى الأسر مع حامليها، ولا ننسى أن أسر الآلهة في نظرهم، أشد وقعاً في نفوسهم، من أسر الانسان.

ومن اعتقاد الجاهليين الراسخ، أن النصر والهزيمة بيد الصنم، نتج الاتكالية في نفوسهم التي أحدثت الفتور والخذلان.

ولا عيب في الانكسار لأن للالهة حظوظاً كالناس، والحظ دائماً في جانب القوي.

بعد هذا السرد الموجز نلاحظ أن العرب في الجاهلية، لم ينفردوا في بعض تصوراتهم الوهمية، بل هم يشتركون مع غيرهم من الشعوب الأخرى في أكثر أساطيرهم وخرافاتهم. ليس العرب وحدهم قدموا بواكير مواسمهم من الزروع والمواشي لآلهتهم قربى لها، لترضى عنهم وتبارك في أرزاقهم، بل حتى اليوم نجد بعض الأمم تقوم بالعمل نفسه قصد الزيادة والبركة. فالشعب الروماني يقدم بواكير العنب، وقد ينتخب أحسن العناقيد وأكبرها إلى معبوده، حتى يرضى عنه ويشفع له.

الشعوب البدائية كانت تنظر إلى هذا الكون الهائل، فتخاف من تركيبه الضخم، وحوادثه الغريبة العجيبة، فعمدت إلى خلق واسطة تعبر بها عن حدسها الداخلي، وإن كانت هذه الواسطة واهية العزيمة خائرة القوى، فهي تعتمد عليها أثناء الأزمات والمحن، وسرعان ما تنسى عند زوال الشدائد، فالايمان عند جمهرة الشعب ايمان ضعيف غير مبني على الاقتناع المنطقي. واننا لنجد الكثير غيرهم، من يستعينون بحبات المسبحة، حتى يعرفوا نصيبهم من التوفيق أو الفشل في سفرهم أو مشاكلهم، من تجارة، أو زواج، أو سفر، أو أي هدف آخر. فإذا فشلوا لا يجدون وسيلة يستعينون بها، إلا الشفاعة لدى الأولياء والقديسين، وتقديم النذور والهدايا.

وهو ما ظهر في عرضنا الطويل للأساطير والمعتقدات الجاهلية، وما نسجوا حولها من شروح لاحداث الكون، ومظاهر الطبيعة، فنتج من كل ذلك، ان الانسان هو هو تحت كل كوكب، وان البشر بشر في كل عصر ومصر.

والجاهلية ليست محصورة بمكان معروف وزمان محدد. كل عصر فيه جهل وجهال هو عصر جاهلية. وجاهلية القرن العشرين طغت على كل جاهلية قديمة. لأن الذي يجهل الأمور ولا يعرف أنه يجهل أهون شراً من الذي يتجاهل وهو يعلم أنه يتجاهل يخطئ الانسان في لبنان ويعلم أنه يخطئ ويستمر ويتمادى في أخطائه. أهكذا يريد الله في القرآن للانسان في لبنان. سبحانه وتعالى إنه علام الغيوب وإن كان رحماناً رحيماً فإنه شديد العقاب.

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.

ـ أ ـ

2 ـ ابن هشام السيرة تحقيق مصطفى السقا مصر 1955 م.

3 ـ ابن سيدة المخصص مطبعة بولاق.

4 ـ ابن عبد ربه العقد الفريد لجنة التأليف والترجمة والنشر.

5 ـ ابن رشيق العمدة دار السعادة مصر 1955 م.

6 ـ ابن خلدون المقدمة مصر 1327 هـ .

7 ـ ابن قتيبة الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر مصر 1958 م.

8 ـ ابن الكلبي الأصنام تحقيق أحمد زكي القاهرة 1924 م.

9 ـ أبو الفرج الأصفهاني الأغاني دار الكتب المصرية.

10 ـ الأزرقي أخبار مكة المطبعة الماجدية.

11 ـ الألوسي بلوغ الارب محمد بهجت الأثري مصر 1923 م.

ـ ب ـ

12 ـ بروكلمن العرب والامبراطورية العربية بيروت.

13 ـ البغدادي خزانة الأدب تحقيق هارون دار الكتاب العربي.

14 ـ البحتري الحماسة المطبعة الرحمانية.

15 ـ برندن البرفن تاريخ ثمود منشورات الجامعة اللبنانية بيروت 1966 م.

16 ـ بلاشير تاريخ الأدب العربي باريس 1952 م.

17 ـ البستاني فؤاد أفرام المجاني الحديثة بيروت 1946 م.

ـ ت ـ

18 ـ التبريزي شرح القصائد العشر كلكتا 1892 م.

ـ ج ـ ح ـ

19 ـ الجاحظ البيان والتبيين تحقيق هارون مصر 1945 م.
20 ـ الجاحظ الحيوان تحقيق هارون مصر 1965 م.
21 ـ جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام المجمع العلمي العراقي العراق 1955 م.
22 ـ حسين الحاج حسن علم الاجتماع الأدبي المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1983 م.

ـ د ـ

22 ـ الدميري حياة الحيوان مصر 1956 م.

ـ ز ـ

23 ـ الزبيدي تاج العروس دار ليبيا للتوزيع والنشر بنغازي 1306 هـ .

ـ س ـ

24 ـ سليمان البستاني الإلياذة مصر 1904 م.

ـ ض ـ

25 ـ الضبي المفضليات شرح شاكر وهارون مطبعة السندوبي.

ـ ط ـ

26 ـ طه حسين الحياة الأدبية في الجزيرة العربية دمشق 1935 م.
27 ـ طه حسين من حديث النثر والشعر مصر 1954 م.
28 ـ الطوسي العدة الهند 1312 هـ .

- ع -

29 ـ عباس محمود العقاد «الله» دار الهلال مصر العدد 42.

- ف -

30 ـ الفيروز ابادي القاموس المحيط المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

- ق -

31 ـ القرشي جمهرة أشعار العرب المطبعة الرحمانية 1926 م.

32 ـ القالي الأمالي مطبعة دار الكتب.

33 ـ القلقشندي صبح الأعشى مطبعة دار الكتب.

34 ـ القزويني عجائب المخلوقات.

- ك -

35 ـ كبريللي فرانسيسكو العرب باريس 1963 م.

- ل -

36 ـ لويس شيخو اليسوعي شعراء النصرانية.

- م -

37 ـ محمود جمعة النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الأمم السامية.

38 ـ المرزباني معجم الشعراء تحقيق المستشرق د. سالم الكرنكودي.

39 ـ محمد بن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك المطبعة الحسينية.

40 ـ المسعودي مروج الذهب مطبعة بولاق 1283 م.

41 ـ المعري أبو العلاء رسالة الملائكة، لجنة من العلماء بيروت.

42 ـ المبرد الكامل في اللغة والأدب مطبعة التقدم العلمية بمصر 1927 م.

- ي -

43 ـ ياقوت الحموي معجم البلدان طبعة لايبزك 1886 م.

فهرس المحتوى

1998 /3 /611